في الأدب الهولندي

بقلم : سعد صائب

« لا يمكن أن يوجد أدب عظيم دون قومية ،
ولا توجد قومية عظيمة دون أدب يعبّر عنها »

« ييتس »

ما رفّت « هولندا » في خاطري ، ولا هفت بإذني تمتمات طواحينها ، إلا ومثل أمام ناظري ريفها الحالم الجميل ، وتراءت ــ على البعد ــ سدودها السود ، وهي تحتضن مزهوة حقول « التوليب » الزاهية اللون ، التي ما انفكت تكسو أرضها الخضراء فتزركشها بروعة وجمال وسحر ، لم ترَ عيني قط أبهى منها منظراً ولا أبهج مرأى .....

وما خفق بذهني اسم « هولندا » ــ قاهرة البحر ــ إلا تمثلت لي في مواقف حاسمة من التاريخ ، وروائع فذة من الأدب والفن ، كنت وما برحت أعجب بها أشد الإعجاب ، وأتمنى لو أجلوها وأفصح عنها ...

ولست أشك في أن تلك المواقف ، وهذه الروائع ، تفسر أدق تفسير وأجلاه ، المنهج الذي انتهجه الهولنديون ــ عبر التاريخ ــ في صراعهم المرير مع البحر ، وترويض أنفسهم على قسوته ... ومَن يتصفح تاريخ هولندا بشقّيه القديم والحديث ، ويديم النظر فيه ، لا يخامره أي ريب في غناه بالكثير مما توافى لمطالبها ، واتسق لشأنها ، وليس يعني هذا أنه واتاها في غير مشقة ولا عناء ، بل

يعني ان الهولنديين رغبوا أن يشاكلوا بين البحر القاسي الذي يكتنف أغلب بقاعهم ، وبين الحياة الحقة التي ينشدونها • « ولو بعث الشعور في مظاهر هذا البحر وأقدره على النطق ، لقص علينا ما استوثق من مواظبتهم على كفاحه ، وحملهم أنفسهم على التكيف معه ، حتى استمكنت أيديهم من ناصيته ، ما يبالون بثوراته ، ولا يذعرون له ان استعصى عليهم فغلبهم وغمر أرضهم ، بل لا يحنقون عليه أو يسخطون ان هو نغّص عليهم عيشهم أو كدّر صفوهم ، اذ نراه على العكس ، يثير حماستهم ويشيع فيهم نضالا اعتادوه ، فألفوا فيه لذة النضال وطعمه ونكهته ، كما حرّك فيهم ألواناً من الكفاح ازدادوا فيها اهتماماً بدفع أذاه عنهم ، دون أن يفتر لهم سعيٌ ، أو تهمد لهم حماسة •••

وفي ميسورنا أن نُصوّر موجزين ، هذا الكفاح الذي شبّ في هولندا من بضعة قرون حتى اليوم ، وأن نترسّم آثاره ، ونتنسّم أخباره ، لنخرج من هذا كله الى ما تهيأ لأدبائها وشعرائها وفنانيها ، من طبع آثارهم على ما يألفه خيالهم ، ويستريح اليه ذوقهم ، وتوحيه بيئتهم ، حتى ليمكن القول في ادبهم بخاصة ، انه أمسى بفنونه المتشعبة ، واطراد تقدمه « أدباً يمتّع حقاً ، وينعم الروح حقاً بما ينفض من عاطفة محتلجة ، ويصوّر من دقيق حس ، ويندس الى ما استكن في مطاوي الضمير ، الى ما أصاب من المعاني البارعة ، وما تعلق من الأخيلة الرائعة ، وما يعرض فيه من كل دقيق وجليل ، في جميع الأسباب الدائرة بين الناس • وما ترك جليلا من الأمر ولا دقيقاً الا مسه وعرض له ، وعالجه بالتصوير والتلوين ، كل ذلك يصيبه في مصطفى لفظ ، ومحكم نسج ، وبارع نظم ، وحلاوة تعبير » •

بيد أن ظاهرة مست — على مر العصور — الحياة الهولندية ، ووقفت بعض مطالبها ، بعد دأب شديد ونصب متصل ، وجدير بنا أن نعرض لهذه الظاهرة بشيء من البيان ، وأن ننبه الى ما استحدثت من اشياء ، ولعل من أظهر صفاتها ، امتزاج لهجات القبائل التي استوطنت قديماً هولندا في لغة واحدة ، أو لهجة واحدة إن جاز التعبير هي « الهولندية » على خلاف « بلجيكا » التي يقطنها عنصران « العنصر الفلمنكي » في السهول الساحلية ، ويعود الى الجنس « النوردي » ولا يختلف عن الهولنديين المجاورين ، ويتكلم لغة قريبة من الهولندية ، أو هي

الهولندية نفسها ، في شيء من التحوير استلزمتها بيئته ، وصاغها محيطه ، ثم عنصر « الوالـون » في القسم الجنوبي الجبلي ، ويرجع أصلا الى الجنس « الألبّي » ويتكلـم الفرنسية ·

أما الهولنديون ، فبعد أن واتاهـم امتزاج لهجات القبـائل التي استوطنت أرضهم ، وتوافى لهم دمجها ، استشرفوا الأمل الى أن يطوروا هذه اللهجات وأن يوفوا على اتقان لغتهم ، حتى تبلغ في روحها وغاياتها ، مبلغ اللغات الأوروبيـة الحية ! ·· هكذا كان الأمر ، فما إن أطـلّ القرن الحادي عشر حتى دخلت لغتهم دوراً ثانياً كان بمثابة دور نمو ، ظل يطرد ويقوى ويشتد طـوال هـذا القرن بأكمله ، ثم بدا واضحاً جلياً خلال القرن الثاني عشر ومنتصف القرن الثالث عشر ، اذ بدأت النهضة تعم أرجاء هولندا ، وبدأ معها الأدب الهولندي بالاحتكاك بآداب الأمم ، والاقتباس منها والتأثر بها ، وكان التأثير الفـرنسي في هـذا الأدب أشـد بـروزاً يتلوه في التأثير الأدب الألماني ، ومن يرصد هذا التطور الذي رافق هذا الدور ، يتداخله العجب لما جرى عليه الأدباء من حذق لغتهم ، واطلاعهم عـلى آداب بعض الأمم التي أتقنوا لغاتها ،وتعرفوا أحوال أدبها ، فتراهم يعالجون النثر ، ويقرضون الشعر ، ويكتبون الرواية ، وينظمون الملاحم ، وقد أجمع مؤرخو الأدب الهولندي على أن أقدم الآثار الأدبية الهولندية يعود الى حوالي عام ١١٧٠ ، ولسنا نشك في أن الشعر كـان أسبق الفنـون الأدبيـة الى الظهور ، كمـا بدأت النهضة تعـمّ « الأراضي المنخفضة » فشيّدت الكاتدرائيات ، وأسست الجامعات ، فبرز من الأدباء الكاتب « هنريك فان فدك » الذي احتل مكانةً مرموقةً ، اذ اعتبر أول كاتب هولندي ذاع صيته،وطفت شهرته، فتهيأ لآثاره من الاقبال على مطالعتها ، ما لم يتهيأ لسواه من الكتّاب ، وكان شديد الاحتكاك بالأدب الألماني ، لما قدم من شروح وافية لهذا الأدب كانت موضوع جدل حاد ، ظل مثاراً أمداً طويلا ، ومن أبرز آثـار هـذا الكاتب الشاعر ، روايته «انييد Enéide» التي برع في أسلوب كتابتها ايما براعة، ولئن أُخذ على « فان فدك » عدم احتفاله في روايته بالتحليل النفسي ، لقد كان عنيفاً في أسلوبه ، مفرط الدقة في تفكيره ، وقد بسط هذا الشاعر أمام أنظارنا بهرج الحياة الفروسية بما رافقها من أعياد ومعارك ، كما بدأت تظهر في هـذه

الحقبة القصائد الحماسية ، يصحبها أدب ديني يجمع بين التصوير وسير القديسين !..

وخلال القرنين الثالث عشر والخامس عشر (١٢٧٥ ـ ١٤٣٠) طرأ على الحياة في هولندا تغيير جذري عميق ، ولعل من أبرز معالم هذه الحقبة ، اندحار الاقطاعية ، وظهور البورجوازية ، كما برز الروائي الشاعر « جاكوب فان ميرلان » الذي يصدق عليه القول انه « ابن الشعب » أصدر جملة روايات شعرية أهمها ملحمته « زهرة الطبيعة La Fleur de la nature » استعرض فيها بأسلوب سهل ، أحوال العالم والناس والحيوانات والشجر والحجر والمعادن حتى لقد جعل فن القول في متناول الجميع ، ولقد تغنّى في ملحمته « مرآة التاريخ Mizoir de l'Histoire » بأفراح العذراء ، وصوّر جراح السيد المسيح ، وهكذا عدّت الروايات التي ألفها هذا الأديب الشاعر ، فتحاً جديداً في أدب تلك الحقبة !.. وكان من آثار هذه النهضة كذلك ظهور المسرح الذي ظل متخلفاً أمداً ، ولعل مردّ تخلف الهولنديين فيه ، وعدم مسايرته الشعر والرواية ، يعود الى أن الأدباء تقاعسوا عن كتابة المسرحية ، ولم يعالجوها أو ينقلوا الى لغتهم مسرحيات من سبقهم من الأمم ....

أما في القرن الخامس عشر ومنتصف القرن السادس عشر (١٤٣٠ ـ١٥٥٠) فقد ازدهرت البلاغة وعمّ الجدل الأوساط الأدبية ، كما عني الأدباء بالمذهب الكلاسيكي ، فظهر في نهاية القرن السادس عشر أدباء وشعراء ثوريون تمردّوا على الأساليب التي سبقتهم ... وما ان أطلّ القرن السابع عشر (١٦٢١) حتى تألقت الحياة السياسية والأدبية والفكرية ، تألقاً لم يسبق له مثيل ، كما ازدهرت كذلك الزراعة ، وراحت السفن الهولندية تمخر عُباب البحار ، ناقلة الى أقاصي المعمورة قمح بحر البلطيك وأخشابه ، حاملة الجنود ، لاحتلال المستعمرات في افريقيا الجنوبية والبرازيل واندونيسيا ، وبهذا اعتبر القرن السابع عشر بحق عصر هولندا الذهبي ! ..

أما في القرن الثامن عشر ، فقد طغى على الأدب ـ والشعر بخاصة ـ التيار

العاطفي فأصدر « فان الفـان » عام ١٧٧٨ مجموعـات شعرية بعنوان « قصائـد قصـيرة للأطفـال » Petits Poèmes pour enfants « صوّر فيها كل ما يجيش في صدور الأطفال من عواطف ، وكل ما فيهم من عفوية ولهو بريء ، ولقد ظلت قصائد هذا الشاعر أمداً طويلا بمثابة ألف باء فن التربية في هولندا ٠٠٠٠ كما ظهر الشاعر « وايم بيلدرجك » (١٧٥٦ ــ ١٨٣١) بروحه العالية ، فكان شاعراً ومؤرخاً وفقيهاً وسياسياً ، استطاع بمواهبه الفذة أن يستحوذ على عصره ٠ ولعل مما يلفت النظر في شأن هذا الشاعر الأديب أنه بعد أن هجر بلاده ، أو نفي منها ، سكن ألمانيا ثم انكلترا ، التي ما لبث أن هجرها عائداً الى ألمانية ثـانيـة ، وكـانت سنوات نفيه أو هجرته بالنسبة للأدب الهولنـدي خصبة للغاية ، اذ اصدر عشر مجموعات شعرية ، كما نقل الى الهولنديـة كتبـاً جمـة أغنت أدبها ٠٠٠٠ ومـا إن شبت الثـورة الفرنسيـة ، حتى أثرّ شبوبها في هولندا كمـا لم يؤثر في سواها من البلدان ، اذ أحدثت تغييرات جذرية ، تناولت شتى المجالات ، بخاصة السياسية منها والأدبية ، فظهر الشاعر الغنائي « هنريك تولانس » (١٧٨٠ ــ ١٨٥٠) الذي سُمّي بشاعر « روتردام » وقد تغنّى بالحياة العائلية وهنائها ، وصوّر الأحلام التي ترافـق المرء في ليالي الشتـاء ، وراح الهولنديـون يتغنّون بها في دُورهـم ومجالس أُنسهم ٠٠٠ وما ان أطلّ القرن التاسع عشر حتى ظهرت الروايـات التاريخية المتأثرة بالرومانتيكية فأصدر الكاتب « دروست » أولى هذه الروايات وكان له من العمر (٢٢) عاماً ، وقد امتازت بقيمتها التاريخية ، وصحة روايتهـا الأحداث ٠٠ وعلى أثر ظهور الروايات التاريخية ، برز النقد الأدبي فتعهدته مجلة عنيت بـه تسمى « الـدليـل » كما تعهده كـذلك نُـقّاد فحول ، فأتى بأشهى الثمار على الحركة الأدبية في هذه الحقبة ، وليس من شك في أن للنقد « مزيّة لا ينبغي أن تسقط من الحساب ، ذلـك أن قيام النَقَدَة وتـرصّدهم لما تنضح بـه قرائح المتأدّبين ، من شأنه أن يُدْخِلَ الحـذر على هؤلاء ، فلا يتكئوا في نقدهم على البهرج يزينونه للجمهرة تزييناً ، بل انهم ليجتمعون للتجويـد ، ويشمّرون في تحرّي الاصابة والاحسان ، ما واتى جهدهم الاحسان ، ان لم يكن للظفر بالثناء الرفيع يذهب به الصيت والذكر ، فللسلامة على التهجين وسوء المقال » ٠ وهكذا كان الأمر

بالنسبة الى النقاد في هولندا ، إذ استطاعوا أن يؤدوا أغراض النقد خير أداء ، وكان رائدهم فيما يؤدونه غيرتهم على أدبهم ، وحرصهم على لغتهم ، مما أبعد عن أدبهم الحشو ، وجنّب لغتهم الهُجْنَة ....

هنا يبدر سؤال لا بد من طرحه : كيف تأتى للأدب الهولندي الاطراد في نهضته واستوثق الاتصال بينه وبين الآداب الأوروبية ، فأدى الغرض المقسوم الذي أدته هذه الآداب ؟؟ .

ليس من شك في أن الرقي والازدهار اللذين عما هولندا ، قد أفسحا في ملكات الأدباء الهولنديين ، وأرهفا من حسهم ، ولا سيما بعد أن أمست هولندا في مقدمة الدول الغربية في الزراعة والنقل والتجارة ، كما شاركت بنصيب موفور في الحضارة والكشف والاختراع والفنون ، ولسنا نلتمس دليلا على ازدهار الحركة الأدبية وتقدمها ـ منذ القرن الثاني عشر حتى القرن العشرين ـ أصدق من موقع هولندا الجغرافي الممتاز ، ومناخها المعتدل المنشّط ، واطلالها مباشرة على أكثر أجزاء المحيط الأطلسي حركة ، واختراق نهر « الريـن » أرضها ، وهو أكثر انهار العالم حركة ، كما تجتازها الكثير من الخطوط الحديدية ، ويمرّ في أراضيها قسط كبير من التجارة بين فرنسا والمانيا ووسط أوروبا والمحيط الأطلسي ، فأمست منذ القرن السادس عشر احدى دول العالم التجارية الكبرى ، وبعد أن كان الهولنديون وسطاء في نقل بضائع الشرق التي كان يجلبها البرتغاليون ، ما لبثوا أن قاموا هم بالرحلات حول افريقيا ، ليجلبوا منتجاتها بأنفسهم .. تلك عوامل واتت دون ريب جميع حاجات الهولنديين ، والأدباء منهم بخاصة ، فاطمأنت بها طباعهم ، واستراحت اليها أذواقهم ، فمضوا يترجمون عن عواطفهم ، ويصوّرون أحاسيسهم ، ترجمةً وتصويراً ، ساهما في جعل الأدب الهولندي يبلغ في مستواه شأو الآداب الغربية ، فأمسى أدباً واسع الغنى ، رفيع الدرجة ، غزير الانتاج ، رائع الأخيلة ، وما نحسب أن ثمة من ينكر على الشعراء الهولنديين المعاصرين ، ما استحدثوا من أخيلة ، وما تناولوا في شعرهم من حقائق واقعة ، وما استلهموا من صور ، وابتكروا من فنون المعاني ، مما يدلّ أكبر دلالة على أن

الشعر الهولندي كان دوماً مزدهراً ، ولقد ازداد هذا الازدهار اطراداً منذ نصف قرن، إذ امتازت هذه الحقبة بظهور تيارات ومذاهب أدبية، أبرزها المذهب الانطباعي Impressionnisme تعضده مجلة أدبية ، ظهرت عام ١٩١٦ بعنوان « مدّ وجزْر Flux et Reflux » وراحت تدعو لهذا المذهب في الشعر والتصوير ... والتيار الانساني ، تعضده مجلة أدبية ثانية ظهرت عام ١٩٢١ بعنوان الصوت Voix » استقطبت حولها جُلّ الأدباء ، الذين يأملون أن يروا ظهور أصداء انسانية لألاءة ، ويبحثوا في أملهم عن السُبُل الى انماء قوى الأحاسيس النبيلة في نفوسهم ، ونفوس قُرّائهم ، حتى لقد أمكن تشبيه هذه الحقبة ، بنهضة التصوير في عصر المصوّرين العظيمين « فرمير ١٦٣٢ ــ ١٦٧٥ » الذي امتاز فنّه « بتوزيع الأضواء والظلال ، وبرع في تصوير المشاهد داخل المساكن » و «رامبرانت» « ١٦٠٦ ــ ١٦٦٦ » وهو من أعظم فناني العالم ، وقد تجلّت في تصاويره القوة وبهجة الحياة والجمال ، مع التلاعب بين النور والظل » ! ..

بعد أن استوفينا قسطنا من تاريخ الأدب الهولندي ، قديمه وحديثه ، واوضحنا فنونه ومراميه ، بقي علينا أن نتعرّف بعض الشعراء الذين يحملون طابع هذا الأدب ، وما يتفرّد به هذا الطابع في وصف البحر بخاصة .... هذا البحر الذي طالما تغنّوا به غناءً شجياً ، بعد أن كافأ مشاعرهم ، ورضيت به أذواقهم ، وبلور تجاربهم ، فانسجمت عواطفهم في اتساقه ، وما انفك يستمر في رؤاهم وأخيلتهم ، حتى ليكاد يشغلهم عن كل ما عداه ... أو في تصوير جوانب من الحياة ، شاركوا شعبهم في معاناتها ، بعد أن أداموا النظر فيها فاتضحت لهم حقيقتها ! ..

فالشاعر ج . هـ . ليوبولد ــ ١٨٦٥ ــ ١٩٢٥ الذي نظم قصيدته «الحلم» قد ألفى فيها سلوى عوّضته عن مساخر الدنيا ، فأعطى رقّة وسمواً لا حدّ لهما ، ويخال مَن يقرأ شعره ، انه يحلّق في عالم خيالي ، لا يسمع فيه سوى همساته ، وكأنها صوت الصمت ... وقصيدته « الصمت » نفسها ، جاءت شعراً صافياً ، استعمل فيها أشكالاً جديدة ، وألفاظاً تأثر فيها بصديقه الأثير ، الشاعر والمفكر الفرنسي « بول فاليري » حتى كاد أن يُجاريه في جمعه بين الرمزية والكلاسيكية ،

فبينا نرى « ڤاليري » يحتفظ في شعره بالأوزان والايقاعات الداخلية للبيت ، ويخضع راضياً للقواعد القديمة ، ويرتضي فنها الشعري ، نلحظ « ليوپولد » يصنع صنيعه في أوزانه وقوافيه ··· وبينا تكشف أشعار « ڤاليري » لقارئها ، من حاجة الشاعر الملحة للمطلق Absolu ونزوعه اليه ، ورفضه الحياة العادية المألوفة ، رامياً من وراء ذلك الى الخلاص من كل ما هو متبدل ، والفرار من كل ما هو متحول ، ليبلغ منهما في النهاية الى أعماق « الأنا Le Moi » كذلك تكشف لنا أشعار « ليوپولد » عن حاجة هذا الشاعر ، ونزوعه ، ورفضه الحياة العادية المألوفة ···· ومهما يكن من أمر هذا المنهج الموحد الذي ينتهجه الشاعران ، فليس يعني أن « ليوپولد » كان مقلداً « ڤاليري » أو ناسجاً على منواله في كل ما صدر عنه ، بل يعني انهما التقيا عند مفترق الطريق في التعبير الشعري ، الذي ارتضياه لفنهما ··· ولئن لوحظ على « ڤاليري » تمتنه في صياغة قصائده ، وتمدده الغموض والابهام فيها ، حتى ليحس قارئها كأنها صادرة من مفكر اكثر من صدورها عن شاعر فنان ، لقد كان « ليوپولد » يَنذر نفسه على سجيتها ، محاولا جهده تجنيب قصائده ما قد يشوبها من غموض وابهام ، مضفياً عليها غلالة شفافة من الرقة والسمو والصفاء !·· وهكذا ترانا حين نتلو شعره نحس بموسيقا ألفاظه ، وجمال تعبيره ، كما نحس كذلك بتوازنه العاطفي ، ورقة شاعريته وعذوبتها وصفائها !··

وتمتاز الشاعرة «هنرييت رولند هولت فان ديرسكايك ١٨٦٩ ـ ١٩٥٢» بقيمة قصائدها التشكيلية ، وتقترب في موهبتها من صوفية القرون الوسطى ، الشبيهة بالنبوءة ، وكان شعارها السمو بالعاطفة ، والنضال من أجل الحق ، ومساعدة المعذبين في الأرض ، وقد اتجهت أنظارها نحو آفاق بلادها الواسعة ، فكونت منها مناظر لا تمحى ··· ومن يتخيلها جالسة قرب الموقد ، يخال نفسه يسمعها وكأنها تناجي الملائكة ! ··

والشاعر « جان برنس ١٨٧٦ ـ ١٩٤٨ » الذي تغنى احلى ما يكون الغناء ، بتلك السدود السوداء ، التي بناها مواطنوه ، اتقاء اذى البحر ، كما عبّر عن حبه

في الهروب نحو هذا البحر ، يناجيه حيناً ، ويستعطفه أحياناً ، كأنه يلتمس منه الرفق بمواطنيه ، والحدب على أرضهم ، التي لاقت من طغيانه ما لم تلقه ارض سواها !... لقد اوحى البحرُ الى هذا الشاعر ، نظم جُلّ قصائده ، مصوراً فيها كبرياء شعب ، شدّ ما قارع طغيانه فتغلب عليه ، ولكم تشيع هذه الظاهرة في اغلب الشعراء الهولنديين ، ممن آثروا الهروب الى البحر فخصوه بنجواهم ، واستمدوا منه اناشيدهم !..

والشاعر « خرتن خوسارت ١٨٨٤ ـ ١٩٥٨ » الذي رأى في منظر البحر بدوره ، ضَرباً من الانسجام ، والتلاؤم ، كما ألفى فيه ، عنصر اطمئنان وامان للبشرية ، التي مزقت الاهواءُ شملها ، واوهنت المطامع الوشائج بين افرادها !..

والشاعر « ادريان رولند هولست ـ ١٨٨٨ ـ » الذي ظل مقيماً في قريته « برغن » الواقعة على شاطىء البحر ، لا يبرحها طوال حياته ... وقد وصفها في آثاره وصفاً وافياً دل على عمق وجودها في ذاته ، وعمق ملاءمتها حياته التاملية اللذين اعاناه على استكناه قلق الانسان المعاصر ، وحفزاه الى دعوته للتحرر منه !..

نشر في مستهل حياته الادبية ، مجموعتين شعريتين ، اولاهما بعنوان « اشعار » صدرت عام ١٩١١ والثانية بعنوان « احتراق الصمت » صدرت عام ١٩١٣ فدلت هاتان المجموعتان ، على ان ناظمهما شاعر سمح النفس ، عذب الروح ، مولع بالوحدة !..

أما في مجموعاته الشعرية التالية « عبر الدروب » ـ ١٩٠٢ ـ و « الافق الوحشي » ـ ١٩٢٥ ـ و « شتاء على الشاطىء » ـ ١٩٣٧ ـ فقد اضحت الوحدة بالقياس اليه ، ألماً ميتافيزيقياً ، اذ أحس وكأنه فريسة لضربين من النوازع الحا عليه ولم يفارقاه : ضرب من « الحنين الفردوسي » من نحو ، وضرب آخر من « الرغبة الجامحة » بامتلاك جزيرة السعداء ، تلك الرغبة التي تجعل من الانسان ـ كما يقول سارتر ـ « رفضاً لكل شيء ، ومحبة لكل شيء .. الرغبة التي هي نفي جذري للقوانين الطبيعية وللممكن ، ونداء للمعجزة ، الرغبة التي تلقي بالانسان من جديد بقوتها الكونية المجنونة في حضن الطبيعة المتأجج ، وترفعه في الوقت نفسه فوق

الطبيعة ، عن طريق توكيد حقه في عدم الرضى » • فكان « هولست » بحنينه هذا الذي عاناه ، ورغبته تلك التي الحت عليه ، كان نائياً عن شتيت الامواج وابعادها ، تلك الامواج التي لم تدع له إلا بعض نسيمات ، لا تبرح تهب عليه بين الفينة والفينة ، حاملةً اليه الاغاني التي تشدو بها الرياح عند هبوبها ، وهي مقبلة من البحر الذي الِفَ صحبته !••

هنا يتبادر الى الذهن سؤال :

مَن تراهم اولئك السعداء الذين عناهم الشاعر ؟

أهم محاربو « طروادة » الاشاوس ، الذين الهبهم جمال « هيلين » الفاتنة ؟ ام هم ابطال « الفولكلور السلتي » Celtique العظام ؟

مهما يكن من أمر ، فحسب هؤلاء المحاربين الابطال الوهميين ، انهم أمسوا ـ بالنسبة الى الشاعر ـ كائنات حية ، ابتعثتها ارواح هيمنت عليها حقبةمن الزمن، وجبلتها دماء ، أريقت منها امدا طويلا ، وحسبها كذلك ، أنها الهبت في العصور الخوالي ، حماسة اناس آمنوا بها اشد الايمان واعمقه ، بعد أن خالوها حقيقة واقعة !••

تلك هي الرؤى او الإخيلة ، التي راودت ذهن « ادريان رولند هولست » الشاعر ، او لنقل توهمها ، فاستطاع بما أوتيه من قوة احساس ورهافة شعور ، تصويرها في شعره ، تصويراً رائعاً اخاذا ، وهي في الوقت نفسه تنبينا ان ثمة واجباً ارتضاه هذا الشاعر لنفسه ، وآمن به ايماناً دفعه الى الجهر بدعوته ، التي دعا فيها انسانية الغرب المعاصرة ، لتجديد حياتها ، بل تغييرها ، والعودة الى الروح التي هجرتها راضية او مضطرة ، بعد أن هاله وقوفها مبهورة الانفاس حيرى ذاهلة ، حيال الآلة التي ابدعتها ، ثم ما لبثت ان انقلبت عليها ، فاستحكمت في مبدعيها وراحت تمعن في اذلالهم ••• هكذا مضى الشاعر النبيّ منذ عام ١٩٢٠ يدعو دعوته، أو يؤدي واجبه الانساني خير اداء ، معلناً للضالين ، بكل ما وهب منخيال خصب ، انه استشف خطر الفاجعة التي باتت تتهددهم ، وبانَ لناظريه منُفُ التيار الذي

يوشك ان يجرفهم ، مجسداً في النهاية قول الكاتب « ارنست نيجر » إن خير جواب لخيانة الروح هو خيانة الروح للروح ، واعظم ما في زماننا من مسرات واقساه ، هو أن تشارك في هذا العمل الهدام » ...

ثمة سؤال آخر لا بد لنا من طرحه : اين إذاً تكمن الهولدرنية(١) « والبيتهوفنية(٢) » ؟ والجواب عن سؤالنا ، يكمن في الايقاع الرائع العذب الذي ينبعث من شعر « ادريان هولست » بعد أن تحرر أو كاد ، من أدائه الغنائي والرثائي معاً ، فظل على مر السنين اشد قوةً وصلابةً ، ولشد ما نراه يمد يده ليختصر هواتف الغيب الباردة ، التي تلم بالكثيرين ممن لم يطلعوا على مبادىء الفن الخافية ، كيما يثير في نفوسهم الحيرة ، مما استعصى عليهم من هذه المبادىء ...

وليس من شك في أن هذا الموقف الذي وقفه الشاعر في شعره ، حيال هؤلاء الحيارى ، قد وقفه كذلك ردحاً من الزمن في بداية نثره ، ثم ما لبث ان حاد عنه .

من هنا تبدو لغته الشعرية وقد اتسمت بطابع اكثر سحراً وفتوناً من نثره ، ومرد ذلك الى انه تجاوز فيها الافكار العقلية العامة ، التي طغت على لغة سواه من الشعراء الهولنديين ، ولقد ظل هذا الطابع مهيمناً على اغلب الاقاصيص التي رواها الشاعر ، ولا سيما في ديوانه «ديردر وابناء اوسناخ « Deirdre et les fils d'usnach الذي صدر عام ١٩٢٠ وقد اقتبسها من الاساطير الايرلندية » وحسب هذه الاقاصيص أن زخارف العمل فيها ، لم تتعد وصف الارض والنار والريح والماء ، بعد أن دوت العاصفة فوق الذُرى الجديبة ، وراحت السماء تلتحف عند الغروب بسجف من الغمائم السود المؤدية . ولئن لم تبد هذه الاقاصيص تصويرية محضة ، ولم تتسم بطابع محلي بحت ، لقد اضفى الشاعر عليها من جموح اهوائه وعسفها ، ما جعلها تؤدي صورتها ، وتؤكد طابعها ..

تُرى ... أثمة شيء يدوم في القاع ، غير تلكم الاصوات الرتيبة الصاخبة ، المنبعثة من شدو الرياح ، وغير تلكم الاحلام التي لا تني تهيمن على السهوب والهضاب ،

---

(١) نسبة الى الشاعر الالماني هولدرلن .

(٢) نسبة الى بيتهوفن (١٧٧٠ ـ ١٨٢٧) من كبار الموسيقيين الالمان وقد اشتهر بسمفونياته .

وبالتالي خير ذاك الهدير المدوي ، الذي يثيره البحر من بعيد ، حين يموج ويضطرب ، على حد تعبير الشاعر في احدى قصائده ؟ ..

والشاعر « م . نيهوف ١٨٩٤ ــ ١٩٥٣ » الذي احب الشعر كحب الاطفال للأشياء المفرحة ، ولعل تجربة الحب هذه التي عاناها الشاعر بصدق ، هي التي اتاحت له التعبير الجميل عن دنيا الطفولة ، بكل ما فيها من براءة وعفوية وصفاء ، وهي التي مكنته كذلك من تصوير الاطفال في شعره ، تصويراً اخاذاً فاتناً ، يستحوذ على القارىء فيحدث فيه الهزة التي تحدثه في الشاعر عفوية الطفولة وبراءتها ، وتجعله يحس نحوها ما احس الشاعر ! ..

والشاعر الناقد « هنريك مارسمان ــ ١٨٩٩ ــ ١٩٤٠ ــ » الذي عد ــ بين الحربين العالميتين ــ واحداً من أبرز مثيري الجيل الأدبي الهولندي الصاعد ، وممثلا للحركة المتميزة عن الروح والجسم ، لما امتاز به شعره من قوة وشمول .. على الرغم من فكرة الموت التي لازمته فسمت به الى التعبير الرثائي ، ومن تأثير الرومانتيكيين والانطباعيين من شعراء الألمان عليه من نحو ، وتأثره بالشاعرين الفرنسيين « مالارميه » و « ڤاليري » من نحو آخر .. ولقد طواه اليمُّ بين امواجه ، في مطلع الحرب العالمية الثانية ، وهو الذي آثره بقصائد جمّة ، وتغنّى أصدق غناء بعنصره الذي آب اليه ... ذلك العنصر الذي كان « مارسمان » يرى فيه دوماً ، سبيلا للهرب الى جنّة الأسرار ، التي ظلَّ يتوق اليها ويحلم بها ! .

والشاعر « خيرت اخترپرغ » ١٩٠٥ ــ ١٩٦٢ الذي قال عنه الروائي الهولندي « س. فيستيك » انه كان شاعراً متعصباً لرأيه ، وان هذه الصفة هي نفسها التي صنعت بوجه الدقة عظمته ... ثم أضاف الى أنه كوّن « الأعجوبة الأشدّ جرأة » في فن الشعر الهولندي ! ...

ولا يخالجنا شك في أن « اخترپرغ » قد أُضْنِيَ بفكرة ثابتة « عن الكائن الضائع » إذ أن وجود الموت قد كظَّ شباب كل قصيدة من قصائده ، فعبّر عن الموت بضروب متباينة ومدهلة معاً ... إن الشعر ــ في الواقع ــ لا يغري البتّة « اخترپرغ » بل الأصح انه « جرحه الدقيق العميق » فليس أقلّ تعلقاً بالأدب من

هذا الشاعر ، المعروف بتجانفه عن قراءة شعر غيره من الشعراء ، خشية أن يبتر توتره الشخصي .. كما كتب عنه الناقد الهولندي « اوريان مورين » قائلاً : إن اخترنبرغ يحيرنا بعودته المفاجئة للحسي الأكثر تفاهة في التعبير اليومي ، وان رؤاه تتجلّى دوماً في أسلوب غريب غير مرتقب ، وأحياناً غير مفهوم ، وصعب الترجمة أبداً ! ..

أما « برتوس آفيوس » فقد نَعَتَ « اخترنبرغ » بشاعر التابوت ، وشبّه أثره « هيولى » برحلة في مملكة الموتى ... انها محاولة ـ كما يقول ـ في سبيل بعث امرأة ميتة ، بواسطة ألفاظ سحرية ، تُخْرِج أرواحاً شريرة ، بل هي في الواقع تمثيل لضرب من التحرّي اليائس خلال العالم المحسوس ، أدّى الى حوار بين الموت والعَدَم ... ذلك هو مفتاح شعر « اخترنبرغ » الغامض ، بيد أنه مع هذا لا يفتح الأبواب كافة !.. حسبنا أننا نلج هذه الأعماق التي تطرح مشكلة وجودنا ، وصفة بواعثنا الجوهرية ! ...

وأخيراً الشاعر « برتوس آفيوس » ـ ١٩١٤ ـ الذي يحق لنا أن ندعوه بشاعر الحرب ، لأنه عرف كيف يفتح أمام مواطنيه الذين دهمهم العدوُّ على حين غرة ، فاحتلّ أرضهم ـ في الحرب العالمية الثانية ـ نوافذ تفضي الى الحرية ، في حين ظل لاصقاً بتراب وطنه ، ولم يبارح مدينة « امستردام » ..

في ضوء ما تقدم نجد أن الشعراء الهولنديين المعاصرين ، قد صوروا لنا أصدق تصوير وأروعه روح بلادهم ، بسمائها المترامية ذات الغيوم الدكناء ، وأرضها الواسعة ذات الخضرة الدائمة ، وبحرها الخضمّ الجياش الغوارب ، الذي غلبه الهولنديون على أمره بصمودهم ، غير مبالين بعيظه منهم الذي بلغ كل مبلغ !..

كما صوّروا كل ما يدعو الى تحريك المشاعر ، واثارة النفوس ، وبعث الهمَم ، في أسلوب بسيط مرهف يكسبه اليأس حيناً حدّة وعنفاً ، ويصله أحياناً بالغنائية المحببة ، الأكثر كلاسيكية ! .

واذا ما تتبعنا تغنّيهم بالحب والموت والعدم والأمل الذي يرين على شعرهم ،

نجد ثمة سلسلة متصلة الحلقات من التناغم المتنوّع ، تبدو أمامنا وقد حملتهـا الينا الريح والبحر والأزهار والألـوان ، وغيرها من التهاويـل التي طبعتها جغرافيـة هولندا نفسها بطابعها !..

وثمة ظاهرة مهمة تتبدّى كذلك ، وهي أن شدّة عناية الهولنديين المعاصرين بشعـرهـم دفعت شعـراءهم الى تخطّي حـدود الحلقـات الأدبيـة الخـاصـة ، التي كان أسلافهم في الماضي خاضعين لها كل الخضوع ، وحبّبت الى الجمهور ، اقبالـه على الاستماع الى شعرائه ، يناقشهم ويوازن بينهم ، ويتحسّس نتاجهم ، ويتعاطف واياه ويتذوقه ، ممـا حدا بواضعي المختـارات الشعرية ، الى الأخذ برأي طـلاب الجامعات ، في القصائد التي تستحق التدوين ، فأدّى ذلك الى نشوء صلات وثقى بين الشعراء من نحو ، وبين الجمهور المثقف من نحو آخر ، كما أدى الى ضرب من الألفة والانسجام بينهما ، لم يسبق لهما مثيل ! ...

تلك لمحة موجزة ، تناولنا فيها الأدب الهولندي ، قديمه وحديثه ، ولا يخامرنا شك في أن تطوره مرّ بمراحل جمّة ، لم يفتر فيها أو يضعف ، شأن الأدب في كل أمة ، وعت حقيقتها ، وآمنت بوجودها ، وشاركت بنصيب موفور في الحضارة ، والكشف ، والاختراع ، والفنون ! ...

المصـــادر

Pierre Branchin : La littérature néerlandaise (Collection Armand Colin - Paris) .

Leya Berger : Les Femmes poètes de la Hollande Paris, 1922.

J. Tielrooy : Panorama de la littérature hollandaise conraine, Paris.

قصائد مختارة

مُهَدْهِدَة

دعي النوافذ موصدة
وهدهدي ، هدهدي في اناة
فان الصمت لن ينتهك
هدهدي ، هدهدي في اناة !

★ ★ ★

ومنذ ينوي الطفل الملول الهانيء امرا
دعي اهدابه الوطف تنساب
فوق عينيه اللألاءتين !

★ ★ ★

هي ذي سيدة الأحلام الحلوة
ترف فوق الثرى
حذرة .. فما دامت ثمة يقظة ، فستحار في تحليقها .
وما دام الليل مرخيا سدوله
فستنحني فوق راسه
كفراشة الأحلام
كيما تسبيه بسحرها

★ ★ ★

هي ذي القصة تعاد
حلوة ، تكاد تثير خوفه
أما القاصة فمتيمة هيمى
ساعة تلو ساعة !

* * *

دعي النوافذ موصدة
ومهدي ، هدهدي في أناة
فإن الصمت لن ينتهك
هدهدي ، هدهدي في أناة !»

« ج. هـ. ليوبولد ١٨٦٥ ـ ١٩٢٥ »

* * *

رؤوس سود

لشدما أهوى هذه السدود الغامضة
التي تتناثر على شاطىء بحر سحيق
فتحكي صفوفا من أناس يقطعنون
بعد أن غمرهم الموج حتى كواهلهم

* * *

البحر والشاطىء والريح كلها سحيقة
كلها مخلوقة ، مترامية ، مغلقة ، عميقة ،
ليس ثمة سواها من يحيا تائهة بلا زهو
لأنها يقظى بضمائرها ،

سكرى بالأرجوان الذي يلفظه النجم
سكرى بأباطيل مجلوة لشمس غاربة
لكأنها تنشد في أعلى الموج ملكوتها !
بيد أن هذي الجباه
التي اسودت بعملاتها الدانية
ما انفكت شامخة تدرأ الأذى عن هذه السدود
تدرؤه عنها دون أن تفكر !·

« جان برتيس ١٨٧٦ ــ ١٩٤٨ »

* * *

كم تبقّى لي من أيامي ؟

كم تبقى لي من أيامي ،
كم تبقى من حميّاها ، من صَخَب وشوشات عالم
فتنتُ به عبثاً ؟
فيا مثوى الطفولة
ليس ثمة سواك الأكيد !
لقد ظلّ المثوى حصيناً ، مفعماً بالمآتم الحنونة
مفعماً بالهوى المرير ، بتدافع الأحلام الغاضب
الذي لا يأتلي وحده ينعي طفولتي ·

* * *

لشدّما تعوزني الراحة
حين أغفو منذ الساعة فوق سريري الوثير
بعد أن استشرفت أيامي نهايتها
وأفرج عني

ولــن يتيسّر لـي انقــاذ نفسي مـن الـوجـود
إلا كمــا اصنــع !

★ ★ ★

يتسـرب الصمت مقبــلاً من خلــل السـطوح
وانـا غـافٍ ، بعـد أن أمسى الـدجى المريد لجينـا ،
وتهـادت أنفـاس الغافـين ذات الايقــاع
حتــى دانت قلبــي .

★ ★ ★

لقــد ودّت رغبتي الـوحيــدة
إمــا ادبــر النهــار موليــا
وانـــزاح عنـي تقنفـه ،
لـو ترهف سمعهـا الى امنيـاتي التي تجلّ عـن الـوصف
في جنـح الليـل الأصـمّ المغمـوس بالظــلال ! .

« ج.س. بلوم ۱۸۸۷ »

★ ★ ★

أغنيــة عــاطفيّــة

ليظــلّ الليــل صـامتـا أبـدا
فمــا الــذي ابتغيــه مـن عبـادتــكِ !
سيجيء المنسيّ مـن أحـلامـكِ
ليحكـي لـــكِ عــن حبـي
وسيغدو كـــل شيء مـدامـا
بعــد أن أوارى الثـرى مقــرورا .

دميني اتألم بصمت
من اهاناتكِ !
ها هو ذا القمر يستوي في الليل الوليد
بعد أن ازاح عن وجهة غضونه
كيما يقف شاردا حيران في كبد السماء •

★ ★ ★

وكمرآة وضياء
ونار مبتدعة مهجورة ما فتئت تتوّج
هكذا تبدو لي قصائدي
زينة لا مجدية لقيمة باطلة

★ ★ ★

ليت الليل يكلّ من الاصغاء
الى شكاتي التي تتناهى إليكِ !
أما في الضياء الأزرق البارد
فسيغدو في ميسوري العثور عليكِ
في هذه الزرقة التي سانوء بعبئها
خلال الأثير القاتم !••

« فيكتور فان فريسلاند ١٨٩٢ »

★ ★ ★

أنا والطفل

في يوم يثير الكآبة ، مضيتُ أبتغي صيداً
فوضعتُ يدي في الطحلب

خلـل السـوسـن
فلـذة مـن السـماء لالاءة ،
ومض يـريـق
مـن اعمـاق مـرآة كثيفـة
فاقبلت الى صفحـة المـاء روضـة اريضة
حـلّ بهـا طفـل .

★ ★ ★

امسك الطفل بمنضدتـه الصغـيرة
وراح يـرقـم عليهـا ،
امـا الكلمـات التي جرى بهـا قلمـه
فقـد امست كلمـاتي بعـد ان عرفتهـا .

★ ★ ★

لقـد ابصرتـه في طـرفـة عـين
مـاضيـا يـرقـم متشـدا
فكـان رقمـه يفـرض عليّ
ان أكـون حيّـا كـي اصوغـه .

★ ★ ★

وفي كـل مرة ، بايمـاءة تبـدر منـه كنتُ ارتضيهـا
كمـا لـو اني وعيتهـا
يـروح يعبث بـالمـاء فـوق الخطـوط
فتمّحي الكلمـات كـافـة ! .

« م. تينهوف ١٨٩٤ ـ ١٩٥٢ »

★ ★ ★

دمشـــــق

ليس ثمة أيّ مدار لانطلاقـكَ
بعد أن ران عليـك المـدى
فاشتدّ عليك وحال دونكَ ودون خلواتـكَ
ولـم يدع لـك أيّ إطـار
يمكّنـك من السعي في مجالـكَ
حتى ولا أيّ منفـذ أو أيـة فرجـة
تتيح لـكَ النمـاء فيهـا فيمد أنملـة
لأنـكَ رجيـم حتى التصلّب ...
أما أنـا فقـد كنتُ هنـاك حقاً ،
هنـاك ، بعد أن طويتُ معطفـكَ فـوق ذراعي ،
بيـد أن الالـــه
أعلـن في دربـي النـذيـر
هـاتفـاً بـي :
امض الـى دمشـق
امض قُدُماً الى دمشـق ولا تتـوان
واصنـع ما يبـدهونـكَ بـه مـن قـول
فلقـد قادوني إليهـا كليـل الطرْف أعمى
بين أفـواج القـادمين .

★ ★ ★

بعـث

لقـد اختـار نفسه والريـح
وهـذا الشجر الـذي هـو خـدرك

والعشب الذي يلمسك
وأنا الذي أرهف إليك سمعي .

★ ★ ★

في الشعر الذي يجهز على نفسه
كيما يتشرب بك
بنسم الحرير الناعم
الذي همست بارتدائه !.

« خيرت أختربرخ ١٩٠٥ – ١٩٦٢ »

★ ★ ★

الرسالة الأخيرة

هكذا يبدو العالم زاخراً بالنور(١) ...
ثمة جندي يغفو فوق معطفه
وقد افتر ثغره عن ابتسامة
وراوده حلم بالسلام لا أجمل
فيا لروعة حلمه الذي يراوده
وكأنه جرس واضح الرنين .

★ ★ ★

لقد هوى العصفور وكأنه لم يكن عصفوراً ،
هوى على مقربة منه ، فحط فوق خلنجة حية

(١) نظمت هذه القصيدة في القطار الذي عاد بالشاعر من روما الى هولندا خلال الأيام الأولى للحرب العالمية الثانية .

بعد أن راودته أحلام جمّة ،
ذلك لأن الدمنة أمست حمراء
خلوا من السرّ .

* * *

الغيث منهمر ، والريح عاصفة
وطبل الفرقة الأصمّ
لا يأتلي يقرع
فتتجاوب أصداؤه في قرارة خطّ الأفق الرماديّ
وتنفضّ من معطف الصريع قصاصة
خطّ عليها كلماته الأخيرة :
« كلا ، ليست الحرب كما مثلث في وهمك
يا غالية » ! .

« بروتوس أفيوس »

* * *

الملك الشيخ

أدلجنا في غلس الدجى العميق
أدلجنا في دروب مقفرة لا تنتهي
فالفيناه يغفو على امتداد بناء ذي قبّة
بعد أن برّح به الكلال
وهو يردّد كلمات واجفة ، مبهمة ، حيّرى ،
ثم ما لبث أن استوى واقفا كالأملود بعظمة طبيعيّة .
لمة على درب بيتنا
تمثال ملك شيخ ، بدا بطلعة شامخة

وكان الموت وهب له ذِكرا بعيدا
بدا ساهراً يحرس وسط شعب ران عليه الكرى
شاهراً سيفه ، ناظراً الى الشارع كان العدوّ يباغته •

★ ★ ★

في هذه الهنيهة ، وفي غلس الدجى الحاني
كنا نسير على مقربة منه بخطى حالمة
دون ان نفكر فيه •

الشاعر الجوّال الحائر

لشدّ ما يستهويني ان احكي لكِ ثانية
حكاية البجعة التي نفقت فوق صفحة الماء
وحكاية الطفل الوليد ،
كما يستهويني ان أحكي لكِ بعد لأي
حكاية جنّي المناجم ذي الجلاجل الصغيرة
الذي ذرّفة العبرات
وهو يعبر الغابة في ليل داج ، لشتاء ثلجيّ قاس •
بيد أني ملزم قبل ان انهي حكايتي
ان الوذ بصمتي وسط حلم جميل •
وإما علق بكِ صمت الجليد
فسادعكِ وشأنكِ
بعد أن تفرغ يداكِ
لأهاتكِ ! •

« كوس سكور ١٩١٥ »

★ ★ ★

حلم

كان ذلك حلماً
ان يديها الصغيرتين
اتكاتا برفق فوق راسي
كان يخيّل اليّ في النهاية أني طفل
وإن اللذة والألم قد تخطياني
وإن روحي التي حرمت منهما
راحت تضحك مما كنتُ اخاله عبثاً ..

★ ★ ★

وكمن اعوزه الفِكَرُ
مضيتُ أردّد بيني وبين نفسي :
حقاً .. لقد كانت يداها رقيقتين فوق راسي !..

« انتوني دونكر »

★ ★ ★

مختارات شعرية

وليم بتلر ييتس

١٨٦٥ - ١٩٣٩

ترجمة : يوسف اليوسف

شاعر ايرلندي كان له الفضل الاكبر في انتقال الشعر الانجليزي الى الحداثة والى الرمزية بشكل خاص • له مؤلفات مسرحية هامة ، ونشاط وطني كبير • ينظر الى الشعر من حيث هو رؤى صوفية ملهمة وخلاقة • كما يرى ان المحور الاساسي لعمل القصيدة هو اكتشاف الذات ونبش طاقات الشعور •

ييتس صاحب نبوآت صوفية الطابع ، وصاحب رؤى من نمط غير واقعي • وفي كتابه « رؤيا » يعرض فكرة يدعوها « العام العظيم » وهو العام الذي ينتهي به القرن العشرون ، والذي تنتهي بانتهائه حلقة من حلقات العصر المسيحي لتشرق شمس عصر جديد لحضارة جديدة • وفي سبيل هذه الفكرة كتب قصيدتين أراهما من عيون شعره • وهما « العودة الثانية » و « الابحار الى بيزنطة » •

تبدأ القصيدة الاولى (التي يوحي عنوانها بعودة المسيح مرة أخرى ليبدأ عصر مسيحي جديد) بصورة توحي بالحركة الحلزونية لكل عصر ، وهي الحركة التي تفرز الحلقة الارقى • و « الباز الذي لا يستطيع أن يسمع مروضه » اشارة الى أن الحركة لا يمكن لأحد أن يضبطها • ولهذا فان « وحياً ما قد غدا وشيكاً » ، ولهذا فان « الروح الكلي » يشع صوره الجديدة • وفي الصحراء (اشارة الى بلاد العرب حيث مهد النبوات) ينهض حيوان له جسد أسد ورأس انسان (قوة وحكمة معا) ، وحوله تبدي « طيور الصحراء سخطها » • الظلام مسيطر (الفساد

والدنس) ولكن السنوات الألفين الاخيرة ينغص نومها كابوس يصنعه مهد المسيح الجديد (الحضارة المسيحية الجديدة التي يحلم بها الشاعر) • ولهذا يتحرك « وحش جلف ، أزفت ساعة ولادته » • انه يسير وئيدا باتجاه بيت لحم ليولد •

هذه هي قصيدة « العودة الثانية » ، تهويمة شاعر يحلم بعالم بريء •ولما كانت هذه النبوءة غير مؤكدة ، فقد اضطر الشاعر أن يكتب قصيدة أخرى تعوض عما يعانيه العالم من البراءة ، وهي « الابحار الى بيزنطة » التي تمثل نكوصا باتجاه الماضي • انه يرتد الآن من المستقبل الى الماضي ، الى عالم بيزنطة شبه الساكن • ومع ذلك فان صورة التفسخ والانتقال (التحول) تظل في وعيه عبر القصيدة كلها ، مثلما تبزغ من جديد صورة الحيوان المخشرج الذي يذكر بالوحش المثاقل المشي في « العودة الثانية » • واذا كان ذلك الحيوان المحشرج هو العصر الذي انهار ، عصر بيزنطة، عصر القرون الوسيطة ، فان حيوان « العودة الثانية»، أو وحشها ، هو العصر الذي سيولد • وبين العصرين يقع عصرنا المرفوض من قبل الشاعر •

منذ البيت الاول لقصيدة « الابحار الى بيزنطة » نراه يهاجم كل ما هو متعفن • ويقدم قبولا للتجدد عبر صورة « الصبية والصبايا » الذين يحتضن بعضهم بعضا • ثم يقدم ألفاظا توحي بالتفسخ : الأجيال المحتضرة ، شلالات السلمون ، سمك ولحم بشري • وبعدها « يثني على كل من ينجب ويولد ويموت » • ثم لا يلبث أن يهاجم الشائخ الرافض للدفن . ليس المسن سوى شيء خسيس • ولهذا كان على الحكماء ان يخرجوا من النار القدسية ليدوروا في لولب • وصورة الدوران في اللولب هنا تذكر بالبيت الاول من قصيدة « العودة الثانية » • فالدوران في مثل هذا الشيء يوحي بالصورة الحلزونية للتاريخ • كل ما يدور في لولب حي • أما ما يسكن فليس الا في الموات • ولهذا كان قلب الشاعر مشدودا الى حيوان يحشرج • انه ينتظر موته ليولد وحش بيت لحم الجديد • وهذه هي خلاصة فلسفته في الحلقات التاريخية •

العــودة الثـانيــة

يدور ويدور في الحلقة المتسعة •
الباز لا يستطيع أن يسمع مروّضه ؛
تتهاوى الأشياء جانباً ؛
والمركز لا يملك أن يتماسك ؛
الفوضى الخالصة تنطلق فوق العالم •
وانطلق موج الدم القاتم ،
وفي أكل مكان أُغرق عيد البراءة ؛
الفاضلون يفتقرُون الى العقيدة ، بينما
الأرذال مفعمون بالقوة المتقدة •

من المؤكـد أن وحياً ما قد غـدا وشيكاً .
ومن المؤكد ان العودة الثانية وشيكة •
العودة الثانية ! بمجرد خروج هذه الألفاظ
اخذت صورة واسعة من « الروح الكلي »
تتعب باصرتي : في مكان ما من رمال الصحراء
ثمة شكل له جسم أسد ورأس انسان ،
وتحديقة فارغة وقاسية كالشمس ،
يجر فخذيــه البطيئتين ، في حين ان كل ما حوله
ظلال مترنحة لطيور الصحراء الساخطة •
الظلام يتقاطر ثانية ؛ ولكنني الآن اعلم
ان عشرين قرناً من النوم الحجري
نغصها كابوس يصنعه مهد مترجح ،
واي وحش جلف ، ازفت ساعته اخيراً
يمشي متثاقلاً باتجاه بيت لحم ليولد ؟

الابحـــار إلى بيزنطـة

داك قطر لا يصلح للمسنين • الصبية والصبايا
بعضهم في أحضان بعض ، وعلى الاشجار طيور ،
ـ تلك الأجيال المحتضرة ـ تغني ،
شلالات السلمون ، البحـار المكتظة بالاسقمري ،
سمك ولحم بشري ، أو طيور تتني طيلة الصيف
على كل ما ينجب ويولد ويموت •
وفي أسر تلك الموسيقى الحسية ، كل يهمل
أنصاب العقل الشاب •

ليس المعمّر سوى شيء خسيس ،
معطف بـال عـلى عصـاه ،
ما لم تشبك النفس يديها وتغني ، ويتعالى غناؤها
لكل مزقة في ثوبها الدنيوي ،
فليس ثمة مدرسة للغناء بل أنصاب
تدرس جلالها الخاص •
ولهذا عبرت البحار وأتيت
الى مدينة بيزنطة المقدسة •

أيها الأساطين الواقفون في نار الله القدسية
كنقوش فسيفساء ذهبية على جدار ،
أخرجوا من النار القدسية ، ودوروا في لولب
وكونوا لنفسي أساتذة الغناء •
استنقذوا قلبي ، انه مريض بالرغبة
ومشدود الى حيوان يحشرج
ولا يدري ما هو ؛ ولموني الى براعة الابدية •

حين أخرج من الطبيعة فلن أتخذ
شكل جسدي من أي شيء طبيعي ،
بل شكلا أشبه بما يصنعه الصائغ الاغريقي
من الذهب المطروق ومن التمويه بالذهب
لابقاء الامبراطور المهوّم يقظاً ؛
أو أحط فوق غصن ذهبي لأشدو
لسادة وسيدات بيزنطة
بما مضى ، وبما يمضي ، وبما سيجيء ٠

ثانيا ـ عزرا باوند

١٨٨٥ ـ ١٩٧٣

شاعر أمريكي لعب دوراً كبيراً في تطوير الشعر الانجليزي ، وقدم نقداً شديداً للمجتمع البرجوازي ولا سيما لأخلاقه المنحطة ٠ وتهجم على المصارف والربا والرساميل التي تنتهك حرمة الانسان وتمارس عليه الاستلاب والتغريب ٠ ولقد حوكم اثر الحرب العالمية الثانية بتهمة الفاشية أو الانتماء الى موسوليني ٠ عاش قسما كبيرا من عمره في ايطاليا ٠ له دراسات نقدية وفهم خاص للشعر ٠ مارس تأثيرا لا بأس به على اليوت ٠

أشهر أعماله الشعرية مجموعة القصائد المسماة كانتوز ، والتي اخترنا منها الكانتو الثالث عشر والكانتو الخامس والاربعين ٠ وفي هذه المجموعة تهيمن أفكار الخلق والتطور والولادة المستمرة (ويرمز لها بالاله زاجريوس) ، كما تسيطر أفكار أخرى أهمها صورة انحطاط النظم البرجوازية أخلاقيا واجتماعيا وسياسيا واقتصاديا ٠ وتنادي المجموعة بتنصيب الشعراء حراسا للصمود الروحاني ، ابتغاء الا تتراخى القيم ٠ كما تنادي الكانتوز (ولا سيما الكانتو الثالث عشر) بضرورة تمازج الثقافتين الغربية والشرقية، وهو شيء نادى به اليوت في « اليباب » ٠

ولسوف نرى في الكانتو الثالث‌عشر تأثير الثقافة الصينية عليه • والجدير بالذكر أن لعزراباوند ترجمات شعرية من الصينية الى الانجليزية كان من خلالها يعيد كتابة القصيدة التي يترجمها • وفي هذا الكانتو يقوم كونفوشيوس (أو كنغ في القصيدة) ، وهو الذي يعكس صوت الشاعر نفسه ، يقوم بتعليم‌تلاميذه ما يرغب عزرا نفسه للثقافة الغربية أن تتبناه • وهو يرى أن تمازج الثقافات هو احدى وظائف الشاعر ، وهذا ما نلمسه في البيتين الاخيرين من الكانتو الثالث عشر •

الكانتو الثالث عشر

ساركنغ بالقرب من معبد السلالة
والى غابة الارز ،
وبعدها خرج مع النهر الادنى ،
ومعه كيوتشي
وتيان الغفيض الصوت •
« نحن مجهولون » ، قال كنغ
« لسوف تبدأ بقيادة العربة ؟
« وبعدها ستغدو معروفا ،
« أو ربما أنا سأبدأ بقيادة العربة ، أو رمي السهام ؟
« او بممارسة التحدث الى الجمهور ؟ »
وقال تسو ـ لو ، « لسوف أرتب الحصون ، »
وقال كيو ، « لو كنت أميرا لاحدى المقاطعات
لنظمتها على خير مما هي عليه • »
وقال تشي ، « اوثر معبدا جبليا صغيراً ،
مرتب الاخوات (١) ،

١ ـ الاخوة مجموعة من الزهاد والعباد تخضع لنظام شعائري واحد (المترجم) •

وذا إدام للشمائل مناسب » »
وقــال تيــان ، ويــداه عــلى أوتــار عوده
والأصداء الخفيفة تستمر
بعدما ارتفعت يده عن الأوتار ،
وتصاعد الصوت كالدخان ، تحت اوراق الشجر ،
وقد اعتنى بالصوت :
« حفرة السباحة القديمة
« والصبية يتقافزون على الألواح الخشبية ،
« أو يجلسون على الشجيرات يداعبون المانذلين » »
وابتسم كنغ لهم جميعا وبالتســاوي .
ورغب تسنغ ــ سي في أن يعرف :
« من أجاب بالصواب ؟ »
وقال كنغ ، « أجابوا جميعا بالصواب ،
« أي كل حسب طبيعته » »
ورفع كنغ قصبته في وجه يوان جانغ ،
ويوان جانغ أكبر منه سناً ،
لأن يوان جانغ جلس على قارعة الطريق
متظاهرا بانه يتلقى الحكمة .
وقال كنــغ
« انت أيها الأبله العجوز ، أخرج من هذا ،
« انهض وافعل شيئا نافعاً » »
وقال كنــغ
« احترمْ مواهب الطفل
« منذ أن يبدأ باستنشاق الهواء الصافي ،
« اما رجل في الخمسين لا يعرف شيئاً
« فلا يستحق أي احترام » »

« وحين يحشد الامير حوله ،
« كل الأساطين والفنانين ،
« فان ثرواته ستستغل تماما • »

وقال كنغ ، وكتب على اوراق اليو ،
«اذا لم يملك الانسان نظـامة في داخلـه
« فلن يقدر على نشر النظام حولـه
« واذا لم يملك الامير نظاما في داخله
« فلن يقدر على وضع النفوذ في مناطق نفوذه • »
وأعطى كنغ الفاظ « نظام »
و « المراعاة الاخوية »
ولم يقل شيئا عن « الحياة بعد الموت » •
وقال « بوسع اي امرىء أن يبلغ الازدياد ،
« ومن السهل أن تطلق عبر الدريئة
« من العسير ان تقف ثابتاً في المنتصف • »
وقالوا : « اذا ارتكب الانسان جريمة
« أينبغي على ابيه أن يحميه وان يخبأه ؟ »
واجـاب كنـغ :
« يجب أن يخبأه • »
واعطى كنغ ابنته لكونغ ـ تشانغ
مع أن كنغ ـ تشانغ كان في السجن •
وأعطى ابنة أخيه لنان ـ يونغ
مع أن نان ـ يونغ كان مطرودا من عمله •
وقال كنغ « حكم وانغ باعتدال ،
« في عصره كانت الدولة جيدة الصيانة ،
« وأستطيع حتى ان اتذكر
« يوماً كان فيه المؤرخون يتركون البياض في كتاباتهم ،

« اعني من اجل اشياء لم يعرفوها ،
« ولكن ذلك العصر يبدو انه قد ولى • »
وقال كتغ ، « بدون حرف لن يكون
« بوسعك العزف على تلك الآلة
« او تاليف الموسيقى المواثمة للاغاني •
« ازهار المشمش
« تهب من الشرق الى الغرب
« وقد حاولت الحؤول دون سقوطها • »

الكانتو الخامس والأربعون

مع الربـــا
مع الربا لا يملك أحد بيتاً من الحجارة الجيدة
كل لبنة فيه مقطوعة بنعومة ومناسبة جيداً
ذلك التصميم قد يغطي وجههم •
مع الربـــا
ما من أحد يملك جنة مرسومة على جدار كنيسته ،
قيثاراً وعوداً ،
أو حيث تتسلم العذراء الرسائل
وتقي المشاريع من التثلم •
مع الربـــا
ما من أحد يرى كونزاغا ولا
ورثته ومحظياته ،
ما من صور تصنع لتدوم أو ليعاش معها
ولكنها تصنع لتباع ولتباع بسرعة •
مع الربا ، الخطيئة المادية للطبيعة ،

أبدأ خبـــزك من الاسمال البالية

خبزك يابس كالورق ٠

دونما قمح جبلي ودونما طحين قوي ٠

مع الربا ينمو الخط سميكا

مع الربا ما من حدود واضحة

وما من أحد يملك أن يجد موقعا لمسكنه

قاطع الحجارة مفصول عن حجره

والحائك مفصول عن نوله ٠

مع الربـــا

لا يصل الصوف الى السوق ٠

الأغنام لا تقدم نفعا مع الربا

الربا طاعون الماشية ، الربا

يثلم الابرة في يد العذراء

ويوقف براعة الغزال ٠

لم يأت بيترو لومباردو عبر الربا

ولم يأت دوكشيو عبر الربا

ولا بيير دلا فرنسيسكو ؛

ولم يأت زوان بلين عبر الربا

ولم ترسم « الكالوتيا » ٠

ولم يأت انجليكو عبر الربا ؛

ولم يأت أمبروجيو برانيدس

ولم تأت كنيسة من الحجر المقطوع تحمل

هـذا التوقيـع : أدامو مي فيست ٠
ولم يأت القديس تروفيم عبر الربا
ولا القديس هيلير ٠
الربا يجعل الازميل صدئاً ،
يجلب الصدأ الى الصانع وصنعته ٠
انه يقضم الخيط في النول ٠
ما من أحد يتعلم كيف ينسج الذهب
وفقـا لقـرار الربـا ؛
ومع الربا يصاب اللازورد بالتقرح ؛
الكراموزي لا يخاط
والزمرد لا يجد مطنغ ٠
الربا يذبح الطفل في الرحم
ويكبح غزل الشاب
ويجلب الشلل الى السرير
ويرقد بين العروس الشابة وعريسها
ضد الطبيعة ٠
جاؤوا بالمومسات الى اليوسس
ومدت الجثث على المائدة
استجابة لرغبة الربا

ثالثـا ـ جـون أبدايـك

شاعر أمريكي من مواليـد عام ١٩٣٢ (بنسلفانيـا) ٠ درس الفنون الجميلة في اكسفورد ٠ يكتب القصة والرواية والمقـالة والقصيدة ٠ ويعيش الآن مع زوجته وأطفاله الاربعة في ولاية مساشوستس الامريكية ٠

يتصف شعره بأنه متعدد الاشكال الفنية ومتنوع الانتماءات ٠ فهو يكتب القصيدة الغنائية والرمزية ، كما يكتب منظوما ومنثوراً ٠

تقــريــر عــن الصحــة

اني لوحيد الليلة •
الخطـأ الـذي ارتكبتـه بحقـك
يجلس كقرح تحت ابهامي ؛
ويشتعل كحرق في الجانب الايسر من قلبي •
اني لست على ما يرام •
احشائي الغارقة طويلا في حبك ،
ترضخ الآن لاسترخاء مقيت •
ثمة في الداخل متاهة شبحية
من الانابيب والعقد السرابية
حيث يرفـرف أولئك المواطنـون : انفعالاتنا •
وهنا ، كشعاع الشمس العابر من الشوارع ، •
اشعر بحبك المتالق يغادر

ليلة اخرى • انبئت اليوم •
يا صديقتي العزيزة ، من قبل شخص آخر ،
انك تبدين سعيدة وعلى ما يرام •
وهذا ما لا يملك شيء أن يؤذيني اكثر منه •
كيف تجرؤين ان تكوني سعيدة ، انت ،
يا من صممت لأجلي بالضبط ،
كاسي ومرآتي ـ
كيف تتجرأين على ان تترفعي
لتضللي بشيء من فوضى شعرك ،
انفصالي عنك ؟
اوثر ان اظنك

عرفت ان صديقك سيأتي الي ،
ولذلك يبدوت على خير ما يرام ــ
« ما من شعرة في غير مكانها » ــ
كممثلة تتلف وضعا على غير هدى
في الظلمة المخلوبة •
بالنسبة الي ، انك ما تزالين عيون الهواء •
ارحل من نقطة الى نقطة بحضورك •

قد لا اكتب ثانية • صوتي
ينســاب الى اللا مكان • يا صديقتي العزيزة ،
لا تتركيني اتسائل للشفاء •
لا تابهي فانا بخير •
انا سعيــد
اذ أسكن عالما أريد جحيمه :
الباب يلمع الى شبحك
ونمر ينشب مخالبه في قلبي ؛
شجيرة الليلك شيطان
يدعوني الى شركه •

حب في نفــق

أيتها الزنجية الصافية حتى تحت الارض ،
اية أعراس في هارلم الشمالي
قد أضفت عليك هذا

الطابع المزركش من الصفام الرواقي ؟
لا يتبرم الجمال بكونه جميلا .
الأضواء الصارخة تتبعثر مع اندفاعنا .
الاقران يتهامسون ، والظلمة تصرخ .
بجانبك يهوّم الطفل للنعاس مترنحا
وأنا ، رجل أبيض قاتم مسكين
يندر أن يرى ،
لا أحاول أن أحدق بك
أيها الجمال الذي لا يملك أن يرى ذاته :
المحاجر مصوغة من الصلصال حيث
الجفون تويجات الفل ،
وعظام الوجنة والفك مصوغة
من راكب يتبختر في المخمل
وفي الشفاه تعيش احدى عشرة ثنية .
يوريديس ، تعالي اتبعيني ،
أغنيتي صامتة ، أصيخي السمع :
سأرفع اسمك في الحب
الى أن تتركه محيطات السنين جافا !
وجبال الزمن لن تبدأ بتحريك
لحظة من جلدك .
تتفتح الابواب على اتساعها في التاسعة والخمسين .
درجات الكشك اسودت بالدم
أعود ، أيتها الزنجية الصافية ،
فأجدك قد وليت
بعدما وبخك الشوم ،
تندفعين شمالا الى آخر الليل .

الملائكة

انهم فوق رؤوسنا طيلة الوقت
السادة الطيبون ، موزارت وباخ ،
سكارلاتي وهاندل وبرامز
ينثرون بحور النور فوقنا
ويحيطوننا علما ، المرة تلو المرة ، بان ثمة مملكة
فوق مستوى هذه المنزلة الصامتة •
انهم حولنا في كل مكان ، العرافون القدماء ،
ماتيس وفيرمير ، سيزان وبيرو ،
يحيوننا ، وصدى صوتهم في الانفاق التحتانية
ويقفزون كازهار الشتاء من البطاقات البريدية ،
مشدودين الى الجدران المطبخية البيضاء ،
ويقفون الضخم من الحياة في الاروقة الظليلة
ليهمسوا قائلين ان حواف اللون
ترقد حولنا بريئة كالعشب •
انها خلفنا ، تحتنا ،
الكتب السحيقة ، شكسبير وتولستوي ،
الانجيل وبروست وسرفانتس ،
تشتعل في الذاكرة كابواب فرن راشحة ،
وكحفر الشرق التي نجونا منها ،
بشكوك مسهبة • احيينا ،
ايتها العروش الميتة ،
غننا فننام ، أيقظي عيوننا ،
وواسي بالرعب امسياتنا الفانية •

الأيـــام القصـــيرة

الحب في الشتاء طريقة
اضاءة السيارات تحت النجوم المتباطئة
واندفاعها ، بسطلة أو اثنتين ،
اذ تؤاز لتتابس على عسلها في الظلام •

كآب عظيم نؤوم ،
أطفالـه يفلقون الفجـر باللعب
تحتجز الشمس رأسا ثقيلا
خلف التلة ، فترجيء النهار
وبعدها تطلي حواف حمراء أفواه الميازيب
ويشحب مصباح الشـارع ؛ وتضمحل المجرة ؛
وربات البيوت ـ بعد ذهاب أزواجهن ـ
يغسلن الشكوك
فتغوص الظلال المتوهجة وترتفع •

ذهبت السيارات ، ولسوف تعود
حين تشتعل الانوار في ليلة جديدة ؛
وبين الجرعات الطويلة لأشيرون
يبدأ ظمأ اليوم المريض •

اهتـــزاز

العالم يهتز ، وليالي المؤرقة تنكشف .
همهم المكيف الهوائي ، فأطفأته .
وغنت الأنابيب في الشقة المجاورة ؛
رحلت ، ووجدت مدينة
معالمها ترتعد اذ تعمل طيلة الليل .
والأسلاك على الأعمدة
ترتجف خارج نافذتي بنشوة
وتمتد رفيعة بين الآفاق .
ذهبت الى حيث لا توجد أسلاك ؛
وهناك ، حيث اضطجعت بهدوء ،
أمسك ارتجاف شيطاني بجسدي المسود ،
فضم فؤادي ، وتمتم : إلا أنت .





يقوم (مانغ كوانغ ـ تاي) وابنــه (مانغ تيان ـ سيانغ) بممارسة مهنة ترويض الدواب وسوق العربات في احدى التعاونيات الزراعية الانتاجية في (مانفكياتشاي) كان كل منهما يتقن هذه المهنة اتقانا عجيبا حتى أصبحا علمين من أعلام هذا الفن .

كان (مانغ كوانغ ـ تاي) قد سبق له أن زاول نفس هذا العمل عندأصحاب المزارع الاغنياء في القرية ، قبل تحرير المدينة التي ولد فيها . كان مثار اعجاب الجميع . فان أشد البغال مراسا لايلبث أن يرضخ لطقطقة سوطه. وأكثر الخيل نفورا تغدو بين يديه طيعة وديعة كالحمل ، بعد أن ينصرف الى ترويضها مـدة شهرين أو ثلاثة.

أما (مانغ تيان ـ سيانغ) فكـان منذ طفولته دؤوباً عـلى مرافقة أبيـه في أعماله اليومية ، فاستخدام السوط . وترويض الحيوانات ليست اذن من الامور المغلقة عليه أو الغريبة عنه ، وازدادت تجاربه في هذا الميدان بعد أن عهد اليه خلال هذه السنوات الاخيرة ، بقيادة ما يخص التعاونية مـن العربات الكبيرة ، ذوات الدواليب المحاطة باطـار من المطاط المنفوخ بالهواء . وقـد أصبـح الآن (مانغ تيانـسيانغ) بين الفرق الخمس في التعاونية ، من أمهر سائقي العربات.

فكلما دعت الضرورة الى نقل أحمال صعبة الى مسافات شاسعة ، كان هو الذي يناط به دائماً هذا الامر • فهو لا يوصم الا بنقيصة واحدة هي افراطه في التزام الصمت• كان باطراقه ونظراته الدائمة الى الارض ، كأنه يبحث عن شيء ضائع ، أشبه بمن كان أصم أبكم • ففي الاجتماعات العامة ، أثناء فترة الاصلاح الزراعي ، كان لا يطلب الكلام الا نادرا وكان أبوه هو الذي يتكلم نيابة عنه في أكثر الاحيان•

كان العجوز مانغ عـلى عكس ابنـه تماما • كان مرح المزاح ، ميالا الى الانطلاق والالفة يتكلم كثيرا ، ويضحك مقهقها بصوته العريض المجلجل • ومع انه يناهز الستين من العمر فهو دقيق السمع حاد البصر ، قوي الذراعين ، كان بادىء ذي بدء حين انتسب الى التعاونية ، يعمل سائقا • ولكن انقضاء سنة مع تقدمه بالسن، بدأت قواه تخور فكلف بمهمة جديدة،هي مهمة العناية بالحيوانات• فقام بمهمته الجديدة خير قيام وبكثير من المهارة والاخلاص • كان في كل يوم ، يصرف وقته كله في تكنيس الاوساخ من جميع أرجاء الاسطبل ، القريبة والبعيدة وتنظيف الاربطة وتنفيض الغبار ، ورفع الفضلات والاقذار ، دون تراخ ولاراحة• وبما انه ماهر في مهمته ، ففي استطاعته خلال شهرين أن يجعل من أي بغل ، رث الهيئة ، يأنف كل امرىء من تغذيته ، حيوانا جميلا ، ممتلىء الجسم • وهذا ما حدا بمدير التعاونية (كانغ تا ــ تشانغ) أن يوصي بانتخابه رئيساً للفريق المكلف بالسهر على الحيوانات التي تجر العربات والعناية بها • فكان لهذه الوظيفة الجديدة أثرها في شحذ همة العجوز مانغ الذي أخذ يبذل جهدا مضاعفا • فكان يثير الاكبـار والرهبة المشوبة بالاحترام في نفوس السائقين العشرة في التعاونية • امـا الاكبـار فللطريقة التي يتبعها في عنـايتـه بـالحيـوانـات وأمــا الـرهبـة المشـوبـة بـالاحتــرام فـلأنــه دائم الثـورة على هـؤلاء الـذين لا يولون بهائمهم العنـايـة والرأفة • فما أكثر ما نسمعـه عنـدئـذ يقذف الشتـائم واللعنـات المقـذعـة • « يا للشيطان ! ماذا فعلت بعينيك ؟ أين دستهما ؟ أفي بطنك ؟ أم أين ؟ » ويلحق هذا بسيل من العبارات القاسية الاخرى • فكان السائقون يضطرون الى الاهتمام بحيواناتهم ومعاملتها خير معاملة ، تجنبا لغضبه •

انتهى الحصاد وحــان موعد تقاسم الارباح • كان الابن (مانغ تيان ــ

سيانغ) قد ذهب في الصباح الباكر بحمولة من المنتجات الزراعية الى تعاونية التمـوين والبيـع • وكان بقية أفراد الاسرة قد انصرفوا الى تجفيف المحصـول • وهو عمل مرهق ، يتطلب صبرا كثيرا وجهدا بالغا ، يستنزف منهم العرق والدم • فتقديرا لهذا العمل المضني ، أقيمت ظهرا في بيت العجوز ، مـأدبـة حـوت الكثـير من المآكل الفاخرة • وفيما كان يأكل مع حفيديه الاثنين ، قال لكنته :

ــ اياك أن تنسي الاحتفاظ بحصة زوجك من الطعام • فقد يعود في هذا المساء •

فما كان من زوجة مانغ العجوز الا ان تولت هي الاجابة دون أن تنتظر جواب الكنة :

ــ احتفظنا بحصته • فلا عليك ••• كأن من عادتنا أن لا نفكر بابنك ••

سمعت الكنة هذا الحديث وهي في المطبخ ، فراحت تضحك من أعماق قلبها • وأردف العجوز مانغ قائلا :

ــ حين يحفل البيت بأطعمـة فاخرة ، لا أتمكـن الا أن أفكر بـولـدنا • لأن من واجبنا أن نعترف بالعمل المرهق الذي يؤديه ••!

كانت زوجة العجوز مانغ قد مضت الى المطبخ وعادت منه بقصعة أخرى من الخبز الصغير المحشو بالسكر • ولكن الفتاة الصغيرة (لان ــ لان) قد اغتنمت فرصة انشغال جدتها ، واخذت قطعتين وهمت بـالفرار بهمـا خـارج البيت • الا أن الجدة لحقت بها وامسكت بخناقها وهي تصيح :

ــ الى أين ؟ أتريدين أيضا أن توزعي هاتين القطعتين ؟

فتمتمت الصغيرة :

ــ كلا يا جدتي ، لا أريد أن أهب أحدا هاتين القطعتين !

فتظاهرت الجدة بالغضب ، وقالت :

ــ اذا ، ابقي هنا !

خطر للعجوز مانغ أن يتدخل • فقال

ــ دعي هذه الصغيرة وشأنها •••

كان هذا القول حجة تذرعت بها زوجته لتصب كل ما تختزنه في صدرها

من نقمة منذ عهد بعيد ، فاتهمت بادىء الأمر (تشوسي) الصمير ، باختطاف قطعة الحلوى المصنوعة من الارز ، من يد حفيدتها ، يوم عيد التنين ، في الصيف الماضي ، ثم أبدت تذمرها من البائعة في التعاونية ، مدعية انها لاتعتني ببضاعتها عناية كافية ... هذه الادعاءات ما لبثت أن أثارت غضب العجوز مانغ ، فصاح :

ـ كفى ! علام هذا التذمر الدائم والتشكيك بالآخرين ؟ أنت تعلمين تماما أنهم لا يسرقون منك شيئا ....

ولكن المرأة العجوز احتجت قائلة :

ـ كيف تتجرأ على التفوه بمثل هذا الكلام ! لو كان الكل مثلك لهان الامر ! ففي المرة الاخيرة حين طلبت منك أن تأتيني بنصف كيلو من الزيت ، جئتني فقط بنصف الزجاجة !

صمتت برهة لتتابع قولها :

ـ ولهذا ، أفضل أن أذهب بنفسي بعد ظهر هذا اليوم ، لحضور توزيع غلال التعاونية ، دعني أذهب بنفسي ، بودي أن يعطوني كمية أكبر من هذا القمح الجيد رقم ٤٢٨ .

كان عناد الزوجة سببا ، في اثارة غضب العجوز مانغ ، فأجاب :

ـ التعاونية ، لن تبخسك حقك ، فلا تتدخلي في هذه الامور ! والافضل لك أن تلازمي البيت وتهيئي لاستقبال الحبوب عند وصولها ، فالمحاسب رجل منصف ، كوني مطمئنة ولسوف تنال حقنا ، أما اذا أردت أن تتصرفي الان كما تصرفت في السنة الماضية فاعلمي أني أنذرك بأني لن أتدخل بعد الان في شؤون البيت ، مهما حدث ، ولسوف تدبرين أمرك وحدك ، وأنفض يدي من كل شيء .

الا أن المرأة الهرمة ، بدلا من أن تقنع بهذه العبارات ، فقـــد غضبت وثارت :

ـ مادام الامر كذلك ، فلن أذهب ، ولن أهتم بشيء ، وسيان لدي حتى ولو عدت صفر اليدين .

أما العجوز فقد القى على امرأته نظرة طويلة ثم غادر المنزل وسلك طريق التعاونية وهو يهز رأسه ٠

بلغت حصة أسرة مانغ ، عند نهاية التوزيع ١١٠٠ كيلو من القمح ٠ فرفع مانغ أكياسه على عربة ليذهب بها الى البيت كانت الحبوب المستديرة البراقة تلمع كحبوب الرمان ، فغمرته غبطة عارمة وسرت في جسده نفحة من الرضى والاطمئنان ،كنفحة من النسيم الندي المنعش ٠ وكان يردد في سره : « ما أكثر الحصب في هذه السنة ! لم أحصل من قبل على مثل هذا القدر من القمح ! » ثم ما لبث أن تذكر أن التعاونية كانت في السنة الماضية ، قد دانت الفلاحين سمادا للارض ، في موسم البذار ٠ وتذكر أيضا أن الحكومة كانت قد وضعت منهاجا للزراعة ، أوضحت فيه عزمها على انشاء مركز للحرارات في قريته، تبدأ عملها في السنة المقبلة ٠ ففكر في سره :

« وبعد وفاء هذا كله ٠٠ لا بد من أن أبيع الدولة في هذه السنة (٥٠٠) كيلو من قمحي الخاص الفائض »

كان غارقا في أفكاره هذه وهو في طريقه الى البيت ، فوصل عند المساء ٠ كان أول ما فعله والفرح يملأ صدره ، أن سأل حفيدته قائلا

ـ تعالي يا حبيبتي الصغيرة ! أترين أن لحية جدك بيضاء ؟

فأجابت الصغيرة (لان ـ لان) بخبث :

ـ كلا يا جدي ٠ ليس فيها الا بعض شعرات رمادية ٠

انفجر العجوز مانغ ضاحكا وهو يقول ، من حسن حظه انه عاش طويلا حتى رأى نعم الاشتراكية ٠

كان العشاء قد هيىء ٠ فخرج مانغ تيان ـ سيانغ من غرفته متراخيا ٠ فاعترضه العجوز مانغ ، يسأله بلهفة :

ـ هدت اذاً يا بني ؟ والحيوان ؟ كم مرة سقيته ؟

ـ ثلاث مرات ، يا أبي •

ـ وقدمت له ما يكفي من العلف ؟

فتمتم الابن بين أسنانه :

ـ نعم ، يا أبي •

شاء العجوز مانغ أن يوجه اليه أسئلة أخرى • الا أن زوجته التي كانت في المطبخ قطعت عليه حديثه •

ـ كفى ! أرحنا من أسئلتك المزعجة • أراك تكلمه وكأنه يجهل نظام اطعام الحيوانات أثناء سفره •

أما وقد اعتاد العجوز مانغ على طباع ابنه ، القليل الكلام ، فلم يشأ أن يلح عليه ، وطلب من زوجته أن تأتي بالطعام الذي احتفظوا بـه اليـه • ثم روى له باطمئنان ظاهر ، كيف كانت نتيجة التوزيع • زادت حصة الاسرة من القمح بمقدار ثلاثمئة كيلو من السنة الماضية • وقد جرى التوزيع بتجرد كبير • فلم يكن ثمة فرق بين عضو قديم وعضو جديد •

كان مانغ تيان ـ سيانغ يستمع اليـه دون أن ينبس ببنت شفـة ، ووجهـه جامد ، لا ينم عن أي تعبير وهو يتناول حساءه متكئا على المائدة بمرفقيه • ثـم أردف العجوز مانغ قائلا :

ـ يجب أن تذهب الى التعاونية ، في أحد الايام القادمة وتشتري بضعة أمتار من القماش ، فثيابك غدت بالية جدا • اياك أن تنسى ابتياع أحذية من المطاط ، لأنك تكثر من المشي ، وهذه الاحذية ستكون لك ضرورية جدا ، اما أنا فما أقل ما أغادر البيت • فبامكاني أن أستغني عنهـا • فأجابـه الابن بصوت رخو :

ـ حسنا ، يا أبي •••

تذكر العجوز مانغ آنئذ ، أن ثمة اجتماعا سيعقد في التعاونية ، هـذا المساء • فنهض من أمام المائدة وأعلن وهو ما زال يخاطب ولده :

ـ اللجنة الادارية ستجتمع • ولا بد من مناقشة قضية انتخاب العاملين النموذجيين ، فيجب حضور هذا الاجتماع • قال لي رئيس الفريق الثاني ، ان جميع الشروط اللازمة لانتخابك متوفرة •

الا أن مانغ تيان ـ سيانغ ظل معتصما بصمته ، وقد زاد من طأطأة رأسه • فقالت زوجة العجوز مانغ مستفسرة :

ـ هؤلاء العاملون النموذجيون ، هل يتلقون مكافآت ؟

فأجاب العجوز مانغ :

ـ بكل تأكيد ، يتلقون مكافآت ؛ وفي هذه السنة ، سنكون نحن الاثنين ممن ينالون المكافآت • وأنت لا همّ لك ، الا التفكير في هذه الامور ؟

وانفجر ضاحكا •

فالعجوز مانغ ، كان عاملا نموذجيا في دائرته ، خلال سنتين متتاليتين • وسيكون في هذه السنة أيضا ، عاملا نموذجيا في تعاونيته • ولكن فرحه لم يكن له حد حين أخبر أن ولده ، قبل أيضا في عداد المرشحين • فالناس جميعا يعانون بعض الضعف بشأن أولادهم • والعجوز مانغ كباقي الناس • ان تفوق ابنه يشيع فيه من الغبطة أكثر مما يشيعه فيه تفوقه الخاص •

كان الطقس أخذ يميل الى الرطوبة • فآثر العجوز مانغ ، أن يرتدي لباسا أشد دفئا • كان كل ما في البيت في تشويش بالغ • وكانت الحوائج قد تداخلت ببعضها تداخلا عجيبا • وكانوا قد اضطروا في الواقع الى اخلاء غرفة بكاملها ، لتخزين الحبوب • بحث العجوز مانغ بحثا دقيقاً ، وطويلا ، ليعثر على اللباس المطلوب ، فلم يفلح • اعتزم عندئذ ان يرتدي رداء ولده • ولكن ، ما كاد يمسك بهذا الرداء حتى وقعت عينه على كيس صغير مصنوع من خيوط القنب ، كان قد أخفي تحت الرداء بعناية فائقة • أدرك لأول وهلة أن هذا الكيس هو أحد أكياس التعاونية • ففتحه ، واذا به يرى حبوبا • فاجتاحه غضب شديد • لأنه يعلم أن التعاونية تقدم هذه الحبوب لتغذية حيواناتها •

في نفس هذه اللحظة ، دخلت المرأة مسرعة كالاعصار وخاطبت زوجها بشيء من الارتباك :
مالك تفتش هنا ؟

وهرعت نحو الكيس، فحملته وخبأته في زاوية الغرفة، كان لهذا التصرف تأثير على ازدياد حدة غضب العجوز مانغ ، الذي صر بأسنانه وصاح مناديا ابنه الذي كان في هذه الاونة في الباحة .

ـ من أين لك هذه الحبوب ؟
فطرف مانغ تيان ـ سيانغ بعينيه ولم يجب . وألح عليه العجوز :
ـ تكلم ! من أين لك هذه الحبوب ؟

أخذ وجه مانغ تيان ـ سيانغ يصطبغ بصفرة فاقعة . وأحنى رأسه وهو ما زال معتصما بالصمت . كانت زوجة العجوز مانغ قد دخلت وهي تصيح :

ـ انها حبوبي . وهي علف الخنازير .
ـ ولكن من أين هذه الحبوب ؟ من أين جئت بها ؟
فأجابت المرأة :
ـ اشتريتها . واقتربت من زوجها هامسة :
ـ لا تصرخ فيسمعنا الناس .
حاولت أن تضع يدها على فمه .
فهتف العجوز مانغ بصوت مخنوق :
ـ آه منك ! أنت ! أنت !

وانقطع عن الكلام لجموح ثورته وهيجانه ، فضرب الطاولة بغليونه الطويل . كان هذا الضرب من شأنه أن يخفف من سورة غضبه . ثم التفت الى ابنه وأردف قائلا وغضبه يزداد تأججا :

ـ أقدمت على هذا المنكر ! أيها الشقي ! هل أعطيت هذه الحبوب لتعيدها الى البيت ، وتترك الحيوانات تموت جوعا ! في هذه السنة تبلغ الاربعين من

عمرك • وبعد قليل ستنتخب عاملا نموذجيا ••• يا للسماء ! وتقدم على هـذه الخسامة !

كان كلما تكلم ، كلما جمع بـه الغضب •• ثم رمى بـالرداء عـلى الارض وهرع الى التعاونية بسرعة واندفاع • كانت الجلسة في التعاونية في اوجها • وكـان العجوز مانغ قد وصل في تمام البرهة التي يوشر فيها بانتخاب العاملين النمـوذجيين الاربعة عشر من بين أعضاء الفرق المختلفة الذين ساهموا بالحصاد الاخير • كان معكر المزاج ، فجلس القرفصاء في احدى زوايا القاعة المعتمة •

جاء دور انتخاب العاملين النموذجيين من الفريق الثاني وكان مانغ تيان ـ سيانغ من عداد المذكورين على قائمة المرشحين •

فهتف العجوز مانغ فجأة :

ـ لا •• لن يكون هو ••• لا •• ليس هو ••

وبدت على وجهه علائم العذاب النفساني •

كان هذا الموقف الغريب ، ينم عن سرٍ دفين •

تدخل رئيس التعاونية (كانغ تا ـ تشانغ) بدوره قائلا

ـ يجب أيها العم مانغ ، أن تبين لنا ما الذي يرضيك في هذا الاقتراح • يجب أن تبين لنا كيف ولماذا ؟

ران على القاعة صمت كصمت القبور • كانت الانظار كلها شاخصة الى العجوز مانغ • الذي كان قد احمر غضبا • حاول أن يجيب ، ولكنه عجز ، فلم يتلفظ الا بعبارة واحدة :

ـ هو ••• لا يستحق •••

ثم هب واقفا وغادر القاعة فجأة وأسرع الى البيت • فوصله لا هثا ، متعبا• وعندما دخل سأل :

ـ أين تيان ـ سيانغ ؟

فأجابت زوجته ببرود :

ـ لا أدري •

وحين لحظت اضطراب زوجها ، راحت تتذمر :

ـ لن ترتاح • ولن تطمئن ، حتى توقع ابنك في مصيبة !! لـو كـان لنـا ثلاثة أولاد أو ولدان على الاقل ، لهان الامر ! ولكنه ، الولد الوحيد الذي بقي لنا ، بعد رحيل كوان ـ سيانغ • فما كاد يصل مرهقا ، حتى رحت تلصق بـه شتى الاتهامات ، وتنهال عليه ، بمختلف صنوف اللوم •

صمتت برهة لتتابع بصورة أشد :

ـ أوه ! يا ولدي الحبيب كوانغ ـ سيانغ ••• منذ تجنيدك عنوة في جيش الكيومنتانغ ، لم أتلق منك أي خبر • لو كنت واثقة انك على قيد الحيـاة ،، لتركت أباك يقضي على تيان ـ سيانغ •

وراحت تنتحب •

شيئا فشيئا ، انتقل اضطراب الزوجة الى العجوز مانغ • فهدأت سورة غضبـه بشكل واضح • وكان ألمه الخاص قد هد قواه ، فاندفع مترنحا الى خارج الغرفة• وسرعان ما انتقل به فكره الى ولده البكر ، فسالت الدموع من عينيه •

أما تيان ـ سيانغ فقد وجد نفسه بعد مضي أبيه الى التعاونية في حالة من الهياج الشديد• فانتحاب أمه وتذمر زوجته وهي تغسل الصحون في المطبخ ، قـد أثـارته • ولكن ، لم يكن فيـه من الجرأة ما يكفي لتـأنيب أمـه على الخطيئـة التي ارتكبتها حين سرقت الحبوب • وهـو يصرف النظـر عن هـذا كلـه ، يشعـر بعجزه لعيـه في الكـلام • فـآثر مغـادرة البيت • ولكن بـدلا من الانضمـام الى أبيـه في الاجتمـاع ، سلـك طريق البيدر وتمدد هناك على كوم من سـوق القمـح وغرق في بحران من التفكير العميق • كان بين حين وآخر ، يرسل زفرة طويلة يعلو معهـا صدره ويهبط •

جاء الليل • وكان القمر الوادع الشاحب يرقى الافق مـن خلال شقوق أوراق الدردار • كان البيدر خاليا من أي ظل •• ولم يكن ثمة أثر للحياة ••

كان الليل هادئا ، رائقاً كصفحة ماء بحيرة صغيرة • على حين غرة ، انبعث في ذاكرة تيان ـ سيانغ ذلك الحادث الذي وقع له ، بعد ظهر هذا اليوم • قبل غروب الشمس بقليل • كان عائداً بعربته ، وكان الكل في التعاونية ، متهمكين جدا في اقتسام الغلال فلم يلتفت اليه أحد ولا مد له أحد يد المساعدة وهو ينزل الاحمال • في هذه الاثناء مرت به أمه • فأبصرت كيسا قرب ردائه • سألته عما يحويه • فأجابها : « هي وجبة الحصان التي لم اقدمها له لضيق الوقت » ترددت الأم هنيهة ثم قالت :

ــ سآخذ الآن رداءك الى البيت معي !

وفيما هي تتكلم ، لم تأخذ الرداء وحده ، بل أخذت معه الكيس وقد لفته بالرداء • حاول تيان ـ سيانغ أن يعترض ويحتج ، الا انه تخاذل وامتكان• لقد حز في صدره أن يرى أمه تبتعد والغنيمة تحت ابطها •

كان تيان ـ سيانغ وهو يتذكر هذا المشهد يشعر أن ناراً تأكل ما بين ضلوعه • الا أن الذكريات تتداعى • تذكر حادثا آخر ، جرى كذلك يوم تقاسم الغلال ، وقد مر عليه زمن طويل •

كان أبوه قد خاض نقاشا حادا مع أحد الملاكين المدعو هو ميه وتراشقا عبارات لاذعة • ولكنه في نهاية الامر رضخ للواقع ولم ينل سوى عشرين بالمئة من المحصول وغنم صاحب الارض الثمانين بالمئة الباقية • وكانت أسرة مانغ بجميع أفرادها تستيقظ باكراً في كل أيام السنة المضنية • بعد أن تم التقاسم ، بلغت حصة صاحب الارض عشرات الاكياس ، أراد نقلها فأقبل أبوه لمساعدته ، وكانت زوجة الملاك تسهر على أعمال النقل هذه • عندما خيم الظلام ، وكانت الليلة حالكة السواد ، اضطرت المرأة الى الاتيان بفانوس • كان تيان ـ سيانغ يساهم أيضا في نقل الاكياس • فأبصر أمه تشير اليه كي يسرق كيسا ، أثناء غياب زوجة صاحب الارض • فأطاع فورا دون أي تفكير تقريبا • فحمل كيسا على كتفه ومضى به الى البيت واذا بأمه تلحق به • فقالت .

ـ أبوك رجل شريف • ولا فائدة من اعلامه بما جرى • مع أبي لا الام على شيء • اذ أن المهم أن لا تجوعا أنت وأبوك ••• وهـــذا كل ما نرجوه وأسعى اليه •

بعد هذا اليوم ، كثير ما كان مانغ تيان ـ تسانغ يشاهد أمه عائدة الى البيت وهي تحمل شيئا من البطاطا والذرة والفاصوليا وقد جـاءت بهـا من حقـول صاحب الارض • وقد فاجأها المالك في ذات يوم وهي تقطف يقطينة من حقله • فاختطف منها سلتها ورمى بها بعيداوراح ينهال عليها بالتقريع والتوبيخ• لقد جر عليها هذا العمل المذلة والهوان الا أنها ما كادت تلتقط اليقطينة حتى أخذتها مرة أخرى وعادت بها الى البيت وطبختها لأسرتها •••

كان مانغ تيان ـ سيانغ وهو يعيش هذه الذكريات ، يشعر بأسى بالغ يملأ جوانحه ، وقد بدأ يجد أمه أقل اجراما • فكيف يستطيع توجيه اللوم اليها؟

مرت أمام القمر بعض الغيوم • فحجبت من بهاء ضيائه • وبدت النجوم المتألقة أكثر عددا • على حين غرة ، أطل كالشبح شخص من وراء أكوام القمح• فتقدم توا نحو مانغ تيان ـ سيانغ فاجفل وهب للقائه • كان القادم اباه •

ـ اقعد بجانبي يا بني ـ قـال العجوز مـانغ بصوت عذب هادىء • ـ لـدي ما أريد أن أفضي به اليك • كنت أبحث عنك منذ مدة تزيد عن ربع ساعة •

جلس الاب وابنه على كوم من القش • وتـابع العجوز حديثه في هـون وبطء وهو يقتنف بين الفينة والاخرى بزفرة طويلة :

ـ أترى يا بني ؟ يجب علينا دائما أن نحرص على مصالح التعاونية • ألا يعود الفضل اليها في تحسن مستوى معيشتنا ؟ من الواجب اذاً أن لا نمـد يـدنـا الا الى ما هو لنا بعد التقسيم • وخلاف حصتنا يجب أن لا نمس منـــه قشة واحـدة • لأنـه ملك المجمـوع وثمرة نشاط الجميع • في العهد البائد ، كنا نشقى ونكدح طول السنة ، وفي النهاية ، كان أصحاب الارض هم الذين يجمعون الغلال• كنا آنئذ ، اذا ما تمكنا من خداعهم والعبث بهم ، يكون عملنا عدلا وانصافا •

ولم يكن فيه شر كبير · أما الآن فالتعاونية ملك لنا وهي أسرتنا الكبيرة · انظر الى ما نلناه هذه السنة مثلا ، لهذا كله فان تصرفك معيب حقا · وظلمت الخيل من حرمانها حصتها من العلف ·

كان العجوز مانغ ، وهو يتكلم ، يزداد احمرارا ويزداد صوتـه تجهما · فكأن الغضب يهـدر في داخلـه · بيـد أن سلوك ابنـه كـان حائلا دون انفجاره · لم يخطر ببال تيان ــ سيانغ أن يرد عليه ، بل على العكس ، طأطأ رأسه وراح يبكـي ·

بعد تفكير قليل ، أردف العجوز بصوت عادت اليه عذوبته ورقته .

ــ لا تحقد عليّ ، يا بني · رويت لمدير التعاونيـة كـل الحكـايـة · وأنت تعرف اني ماشقيت في حياتي الا لاسعادك · وها أنت الآن وقد غدوت في كامل قوتك وفي أوج همتك ونشاطـك ، فان أسوأ ما أخشاه ، أن لا تأتلف مـع مجتمعنـا الجديد ، السائر نحو الاشتراكية · فان أنت اقدمت على ارتكاب أعمال السرقة في المستقبـل ، في مجتمـع اشتراكي ، فمـا عساهم يظنونـك ؟ وما عسى أن يكـون رأيهم فيك ؟

بعد هذه العبارات ، رفع مانغ تيـان ــ سيانغ رأسه فجأة ، فبـدا وجهه لأبيه مغمورا بالدموع وتمتم قائلا :

ــ عفوك عني يا أبي · اني أقر بـذنبي وأكـاد أموت خجلا ، أرجوك أن لا تعيد هذا الحديث على مسامعي ، مرة أخرى ·

ولكن العجوز مانغ هز رأسه وأضاف قائلا :

ــ لكل جواد كبوة ، يا بني · فالكمال نادر الوجود · وعليـك الآن أن تتحلى بالجرأة الكافية ، لتعترف بخطيئتك بكل صراحة ·

وأجاب تيان ــ سيانغ :

ــ قل لي اذاً ، ما ينبغي أن أفعل · فأنفذ ما تريد ···

ــ أعد هذه الحبوب الى التعاونية ، أعدها ، يا بني فورا · واعترف للمدير بكل ما جرى ولا تخجل ·

ـ نعم ، يا أبي .. سأذهب حالا .

مضى تيان ـ سيانغ ومضى بخطوات ثابتة الى البيت ، ليأخذ منـه الكيس المليء بالحبوب . امـــا العجوز مانغ ، فما ان رأى ولده ، يبتعد حتى تنفس الصعداء ، وقد اعتراه ضيق خفيف وقلق ممض .

كان النسيم قد أزال من السماء ، تلكالغيوم التي كانت قد حجبت القمر، برهـة من الزمن . وها هو الآن ، يسطع بكل بهائـه . قـد مضى من الليـل شطـر كبير . القرية بأسرها تهجع غارقة في سكون شامل . ولم يبق زاخرا بكتلة من النور وجلبة متشابكة من الاصوات ، سوى احدى نوافذ التعاونية .

بعد أن مضى على هذا الحادث المزعج ، ثلاثة أيام ، احتفلت التعاونيـة بتخزين الغلال وانتخاب العاملين النموذجيين .

في ساعة مبكرة من ساعات الصباح ، أخـذت الموسيقى تعزف أناشيـد الحقول . وفي القاعة الرئيسية في البناء ، تجمع كل أعضاء التعاونية من رجال ونساء وأولاد من جميع الاجناس والاعمار .

كان الكل يرتدون أجمل ماعندهم من الثياب. فالشيوخ يحتلون الصفوف الامامية وهم يعبثون بلحاهم الشائبة تعبيرا عن اطمئنانهم ورضاهم . والصبايا اليافعات ، ذوات الجدائل ، يتبخترن في وسط الحشد .

افتتح الحفلة المدير كانغ تا ـ تشانغ وتلا تقريرا عن حالة الغلال وقرأ أسماء العاملين النموذجيين الاربعة عشر الذين جرى انتخابهم حديثا . ولكن ما أن قرأ اسم مانغ تيان ـ سيانغ حتى أضاف بعض العبارات قائلا :

ـ أيها الرفاق ! أرى من واجبي أن أبين بهـذه المناسبة أن الرفيـق مـانـغ تيان ـ سيانغ قد اقترف في الآونة الاخيرة اثما تجاه المجموع . فقمت بعرض القضية حالا على لجنة المراقبة . الا أن اللجنـة ، لاعتقـادهـا أن مـانـغ تيـان ـ سيانغ في وسعه أن يصلح نفسه ، واستنادا الى الخدمات التي قدمهـا ، ارتأت التمسك بالقرار الذي اتخذه أعضاء التعاونيـة بتسميته عاملا نموذجيـا في منظمتنـا .

قال هذا وجلس بعد أن سمح لمانغ تيان ـ سيانغ بالكلام • فاعتلى المنصة اذ ذاك وهو مطأطىء الرأس يلمع وجهه من العرق • فحرك جفنيه واتكأ على الطاولة الموجودة أمامه بيديه المصبيتين فساد الصمت بسرعة وأخذ الجميع ينظرون اليه والقلق ملء عيونهم • انهم جميعا يعرفون عيه في النطق •

مرت دقائق ، أحس خلالها مانغ تيان ـ سيانغ كأنه واقف على جمرات متقدة • ان عبارات مدير التعاونية التي تفوه بها بصوت كثير الرقة ، كثير العطف ، والكلمات التي واساه بها مدير فرقته كانت كلها ترن في سمعه • وكان ممتنا لها • رفع رأسه ببطء بعد أن طال به الصمت ورأى أن الحاضرين كافة يشخصون اليه وفي وسط هذه النظرات ما لبث أن عثر على نظرات أبيه • وكانت طيبة ومشجعة ، ما رأى مثلها قط • فاستعاد فجأة هدوءه وكرامته واهتز كأنما سرى في جسده تيار كهربائي • واندفع يتحدث بقوة ما ظنه أحد قادراً عليها • وقد دهش هو نفسه من جرأته وأنكر نفسه • أصيب المستمعون بذهول وبدوا كأنهم سمروا في أماكنهم •

قال تيان ـ سيانغ :

ـ أيها الرفاق ! لست جديرا لأكون عاملا نموذجيا • لأنني أمس الاول وأنا عائد بعربتي أقدمت على سرقة وجبة حصاني وهي نصف كيلو من الحبوب وأخذتها الى بيتي • فأنا مذنب تجاه التعاونية ، ومذنب تجاهكم جميعا • كنت باقدامي على سرقة ما يخص التعاونية ، قليل الامانة • وتصرفت عكس القانون• فمن العدل أن أتلقى جزاء قلة أمانتي • لذلك أنا أنتظر العقاب الذي ينبغي أن تنزلوه بي •

كان صوته يزداد تدفقا وارتفاعا كلما اندفع في كلامه • وقد اشتد وجهه احتقانا •

سرت في القاعة رعدة خفيفة • وتعالت بعض الزفرات • وخفض بعض الحاضرين رؤوسهم ومسحت احدى العجائز عينيها بطرف قميصها • وكانت هي أم مانغ تيان ـ سيانغ ، وصاحت بعض الأصوات :

ــ لنختم هذا الحديث ، ما دام قد تدم •

وارتفعت أصوات أخرى قائلة :

ــ نحن لا نزال موافقين على أن يُنتخب عاملا نموذجياً •

★ ★ ★

عادت زوجة العجوز مانغ الى البيت حين انتهت الحفلة • الا أنها قضت الليل بطوله ، دون أن تذوق طعم الكرى وهي تتقلب على فراشها • كانت كلمات ولدها تدوي في أذنيها •

في صباح اليُوم التالي ، توسلت الى زوجهـا كي يدخل الى غرفتها قليـلا • كانت عيناها محمرتين وشفتاها بيضاوين • أرته منجلا وملعقة كبيرة من نحـاس كانت وضعتهما في احدى الزوايا •

ــ انظر ! ــ قالت بصوت مخنوق ــ هذه الأغراض ملك التعاونية • أعـدهـا الى أصحابها أما كيس الحبوب هذا ، فأنا التي سرقته ، لا ولدنا •

وانهارت على كوم من القمح مرتعشة راجفة وقد أرهقها التعب والندامة • وبدا صدرها كأنه يتمزق بنحيب متواصل •

كان لهذا الاقرار وقع أليم على نفس مانغ مـلأه حيرة ودهشـة • فأخـذ ينقل بصره من زوجته الى المنجل والملعقة الكبيرة ، ومن الأغراض المسروقـة الى زوجته • ولكنه سرعان ما أفاق من هول المفاجأة • فأمسك بامرأته من وسط جسدها وقال لها بلهجة رؤوم :

ــ كفي ! هدئي روعك ولا تبكي • المهم أن نستفيد من هذا الدرس • أما الآن وقـد وعيت واتعظت ، فهـذا أثمن من كـل ما حصلنـا عليه من القمـح في هـذه السنة •



ولد جاك بريفير في نويي عام ١٩٠٠ ، وعاش في سان بول دوفانس في منطقة الألب البحرية ، ولقد تأثر في الخامسة والعشرين من عمره بالحركة السوريالية ، وظهرت موهبته الهجائية المطبوعة بروح هزلية ، ودعابة شعبية في احدى أولى قصائده : « محاولة لوصف عشاء رؤوس في باريس – فرنسا » ؛ تلك القصيدة التي تتصدر مجموعته الشعرية « كلام » حيث يختلط شعر بريفير بنثره ، ويبرز اسلوبه الخاص في التعبير الشعري . وقد كان تاريخ كتابة هذه القصيدة هو العام ١٩٣١ .

بعد ذلك، تمكن بريفير أن يفرض نفسه في ميدان السينما ككاتب سيناريو كبير الموهبة ، ولكنه استمر مع ذلك في كتابة الشعر ؛ فقد كان ينشر في الصحف بعض القصائد ، أو يتركها لأصدقائه دون أن يوليها اهتماما يذكر . ولقد جمعت هذه القصائد عام ١٩٤٦ تحت عنوان « كلام » ونشرت ، فلاقت نجاحاً باهراً ، كما لحن العديد منها ، ووضع موسيقاها جوزيف كوزما ، فكان لها جمهور شعبي كبير .. وقد تلا هذه المجموعة الشعرية مجموعتان أخريان هما : قصص (عام ١٩٤٦ بالاشتراك مع أندريه فيرديه) ومشاهد عام ١٩٥١ .

ان شعر جاك بريفير الشفاف والعفوي يأخذ أغلب موضوعاته من الواقع اليومي المعيش ؛ فالأشياء الصغيرة المألوفة ، ومشاهد الطرق العامة ، والأحداث

المختلفة تضطلع بدور هام في غالب الاحيان ؛ فيكون هذا الدور طريفا أو يكون مؤثرا ، ولربما لم تكن احدى القصائد برمتهـا سوى (سرد) غـير متناسق ويفتقد الى التسلسل المنطقي .

ولكن فكر الشاعر الشديد النشاط والحيوية لا يكتفي بالوصف في حد ذاته ، فقد تستدعي احدى الكلمات في قصيدة له كلمة أخرى ، كما يمكن لموضوع ما أن يجعل الشاعر يفكر بموضوع آخر فيستطرد فيه . وقـد تتتابع الجناسات والاحاديث المبتذلة كما لو أن هناك آلية لا تقاوم قد استدعتها الى خاطره .

وأحيانا يجمع بريفير بالمصادفة بين تعابير مختلفة ، لا يحدد اختياره لهـا الا النزوة العابرة ، فيبتكر صورا جديدة ، وتتفتح أمامه آفاق أخرى لم تكن تخطر على الذهن .

ان بريفير ، على النقيض من شعراء فرنسيين كبار ، كانوا يختارون الكلمة والتعبير الشعري بعناء كبير وبحث استاطيقي (جمالي) عميق مثل بول فاليري، الذي سيطر على منصة الشعر الفرنسي في النصف الاول من القرن العشرين ، فكان شاعر الحياة اليومية النابضة، وليس شاعر التجريد الذهني أو الروحي.

ولكن قريحته الشعرية ليست عفوية تماما في واقع الامر ، فهي تتوجـه بشكل لا يخلو من العنف ضد أولئك الناس الذين يضعون بحكم مصالحهم أو مراكزهم عوائق أمام حرية أقرانهم ، ويمنعونهم من بلوغ السعادة الآنية المبتغاة - ومن هؤلاء الناس أصحاب الصناعة ، ورجال المال والقضاء والشخصيـات ذات النفوذ ، والاساتذة الكبار .

ان بريفير يمجد على النقيض من ذلك المسرات الكبيرة والبسيطة التي يحصل عليها الناس العاديون من الاحلام والتجوال والصداقـة والحب ، برغم الأشراك التي ينصبها القدر القاسي أحيانا في طريقهم .

وفي الحادي عشر من نيسان ١٩٧٧ ، وبعد فترة من الصمت ، رحل بريفير من عالمنا الصاخب ، الذي طالما كان يعيش في خضمه بأعمق ما يكون .

مختـارات مـن شـعر بريفـير

ـ صيـــد الحـــوت ـ

هيا الى صيد الحوت ، هيا الى صيد الحوت •
هكذا كان يقول الأب بصوت حانق
لابنه بروسبير ، المتمدد تحت الخزانة
الى صيد الحوت ، الى صيد الحوت
انت لا تريد ان تذهب
ولمَ اذن ؟
ولماذا اذن اذهب الى صيد حيوان
لم يسيء الي بشيء يا ابي ،
اذهب انت يا ابي ، واصطد الحوت بنفسك
بما أن ذلك يروق لك •
اما انا ، فافضل البقاء في البيت مع أمي المسكينة
وابـن عمي غاسـتون •
حينذاك ، مضى الأب وحيداً في قارب صيد الحيتان
في عرض البحر الهائج •••
ها هوذا الأب على سطح البحر
وها هوذا الابن في البيت
وها هوذا الحوت الغاضب
وها هوذا ابن العم غاستون الذي يقلب وعاء الحساء
وعاء الحساء المملوء بالمرق •
كان البحر شديد الهيجان
وكان الحساء جيداً

وها هوذا بروسپير على كرسيه اسفا
الى صيد الحوت لم اذهب
ولماذا اذن لم افعل ذلك ؟
فلربما قبضوا على الحوت ،
وهكذا ، فقد كان بامكاني أن آكل منه •
ولكن ، ها هوذا الباب ينفتح
فيظهر الاب ، والماء يسيل من ثيابه
لاهثا ، متقطع الانفاس •
حاملا الحوت على ظهره •
فيرمي بالحيوان على المنضدة ؛ انه حيوان جميل ذو عينين زرقاوين
حيوان قلما نرى مثله •
ثم يقول بصوت يثير الشفقة :
اسرعوا بتقطيعه ،
اني جائع ، اني ظمآن واريـد ان أكل
ولكن ها هوذا بروسپير ينهض واقفا
وينظر الى ابيه وجها لوجه
في وجه أبيه ذي العينين الزرقاوين
الزرقاوان كعيني الحوت ذي العينين الزرقاوين :
ولماذا اذن اقطع حيوانا مسكينا لم يسيء الي ؟
تبا لهذا ، انني اتخلى عن حصتي •
ثم يرمي بالسكين على الارض •
ولكن الحوت يقبض عليها ، وينقض على الاب
فيطعنه بها ، ويحوله من اب الى حصة •
ويقول ابن العم غاستون آه آه
يذكرني هذا بالصيد ، بصيد الفراشات •

وهـــــذا
هذا هو بروسبير الذي سيهيء بطاقات النعي
والام التي تلبس ثياب الحداد على زوجها المسكين •
اما الحوت ، الذي يتامل البيت المخرب دامع العين فيهتف فجاة :
ولماذا اذن قتلت هذا الأحمق المسكين ؟
سيطاردني الآن الصيادون الآخرون بالقارب البخاري
ثم انهم سيقضون على أسرتي الصغيرة •
حينذاك ، انفجر الحوت بضحكة تثير القلق ،
وتوجه نحو الباب وقال
للارملة وهو يمر بجانبها :
يا سيدتي ، اذا اتى احدهم يسال عني
فتلطفي وقولي له :
ان الحوت قد خرج
تفضلوا بالجلوس
انتظروا هنا
انه ، دون ريب سيعود بعد خمسة عشر عاما
سيعود •

هـــذا الحـــب

هـذا الحب
العنيف جدا
الشديد الهشاشة
الرقيق جداً
اليائس جدا
هـذا الحب
الجميل كالنهـــار
والسيء كالطقس
عندما يكون الطقس سيئا
هـذا الحب الحقيقي
هـذا الحب الجميل جدا
والسعيد جدا
والمرح جداً
والمحتقر جداً
الذي يرتجف خوفا مثل طفل في العتمة
والواثق جداً من نفسه

مثل رجل هادىء في وسط الليل
هذا الحب الذي كان يخيف الآخرين
والذي يجعلهم يتكلمون
والذي يجعلهم يصنفرون
هذا الحب المراقب
لاننا كنا نراقبهم
الحب الملاحق المجروح المداس المجهز
عليه المنكر المنسي
لأننا لاحقناه جرحناه ووطأناه بأقدامنا
قضينا عليه أنكرناه ونسيناه
هذا الحب بأكمله
الذي لم يزل شديد الحيوية
والمضيء بنور الشمس
هو حبك
هو حبي
هو الحب الذي كان
ذلك الشيء الجديد دائماً
والذي لم يتغير
الحقيقي مثل نبته
والمرتجف كعصفور
والحار والحيوي كالصيف
يمكننا كلانا
أن نذهب ونعود
يمكننا ان ننسى
ثم ننام ثانية
وأن نستيقظ ، نتالم ونشيخ
وننام ايضاً
ونحلم بالموت
ان نستيقظ نبتسم ونضحك
ونستعيد شبابنا
فحبنا يبقى هنا
عنيدا كالأتان
وحيويا كالرغبة
وقاسيا كالذاكرة
وغبيا كالحسرات
ورقيقاً كالذكرى
وبارداً كالرخام
وجميلا كالصباح
وهشاً كالطفل
انه ينظر الينا مبتسما
ويكلمنا دون أن يقول شيئاً
وانا اصغي اليه مرتجفاً
واصرخ
أصرخ لأجلك
اصرخ لأجلي
أتوسل اليك
لأجلك لأجلي ولأجل كل الذين
يحبون بعضهم
والذين احبوا بعضهم
اجل ، انني اصرخ به
لأجلك لأجلي لأجل كل الآخرين
الذين لا أعرفهم :

ابق هناك
هناك حيث انت
هنـاك حيث كنت سابقا
ابق هناك
لا تتحرك
لا تمض
نحن الذين تحابينا ، أحب بعضنا بعضا
قد نسيناك
اما انت ، فلا تنسنا

فليس لنا غيرك على هذه الارض
لا تدعنا نصير باردين
وابعد من هذا الزمان دائماً ،
وفي اي مكـان ،
وبعد ذلك بوقت طويل، في ركن غابة بعيدة ،
في غابة الذاكرة
انبثق فجاة
ومد لنا يدك
وانقذنـــا

نـــوم الضحـــى

مخيفـــة
مخيفة هي فرقعة البيضة المسلوقة المكسورة على مبسط من القصدير
مخيفة هذه الفرقعـــة
عندما تثور في مخيلة انسان جائع
ومخيف أيضا رأس الانسان
راس الانسان الجائع
عندما ينظر الى نفسه الساعة السادسة صباحاً
في مرآة مخزن كبير
انه رأس بلون الغبار
ومع ذلك ، فهو لا ينظر الى راسه
في واجهة « بوتان » (١) الزجاجية

(١) اسم محلات مشهورة في فرنسا تبيع أنواع المأكولات .

انه لا يابه برأسه كانسان
انه لا يفكر فيـــه
انه يحلم
يتصور راسا آخر
راس عجل مثلا
مع صلصة بالخل
أو راس اي شـــيء يـؤكـــل
ويحرك فكه بهدوء
بهـــدوء
ويصر بأسنانه بهدوء
لأن العــالــم يسـخر منـه
وهو لا يقدر أن يفعل شيئا ضد هذا العالم
وهـو يعـد على أصابعه : واحد ، اثنان ، ثلاثة
واحـد اثنــان ثلاثـة
وحاصل هذا كله انه لم ياكل منذ ثلاثة ايــام
ولقد كرر هذا عبثا منذ ثلاثة أيام
ان هذا الامر لا يمكن أن يدوم
ومع ذلك فهو يدوم
ثــلاثــة أيــام
ثــلاث ليــــال
دون طعـــام •
وخلف هذه الواجهات الزجاجية ،
هذه المعجنات هذه الزجاجات هذه المحفوظات
وهذه الأسماك الميتة التي تحميها العلب ،
والعلب تحميها الواجهات الزجاجية

والواجهات الزجاجية يحميها رجال الشرطة
ورجال الشرطة يحميهم الخوف •
ما أكثر المتاريس من أجل حماية ستة أفراخ بائسة من سمك السردين•••
وأبعد من ذلك بقليل هناك • الحانة
قهوة بالكريما والهلاليات(١) الساخنة
الرجل يترنح
وفي داخل رأسه
ضباب من الكلمات
ضباب من الكلمات
سردين للأكل
بيضة مسلوقة وقهوة بالكريمـا
قهوة مضاف اليها الروم
قهوة بالكريمـا
قهوة بالكريمـا
قهوة بالكريما مرشوشة بالدم !••
لقد قتلوا أو ذبحوا في وضح النهـــار
رجلا يحترمه الناس كثيرا في حيه
والقاتل المتشرد قد سرق منـــه
فرنكيـــن
أي ثمن فنجان قهوة مغشوشة بالماء
أي سبعين سنتيماً
وهذا ما يكفي للدفع ثمن فطيرتين بالزبدة
وخمس وعشرين سنتيما حلوانا لخادم المقهى
مخيفـــة

---

(١) نوع من الرقائق على شكل الهلال •

مخيفة هي فرقعة البيضة المسلوقة المكسورة على مبسط من القصدير
مخيفـــة هـــذه الفرقعـــة
عندما تمـر في مخيلة انســان جائــع .
تتحــرك .

- ٤ -

نبيـــذ أليكـــانت[1]

برتقالة على المنضدة
ثوبك على البساط
وانتِ في سريري

ياهدية الحاضر العذبة
يا وطوبة الليل
وحرارة حياتــي

- ٥ -

الفصـــل الجميـــل[2]

على الريق، ضائعة ، جامدة بلاحراك
وحيدة ، لا تمتلك قرشا واحدا
فتاة في السادسة عشرة ،

واقفة بلا حراك ،
في ساحة الكونكورد
ظهرا ، في الخامس عشر من آب .

---

(١) اليكانت Alicante : مقاطعة فرنسية.
(٢) الفصل الجميل ترجمة حرفية ، معناها الصيف ، وتستخدم في اللغة الدارجة . استخدمها الشاعر عن قصد منه لتتعارض مع الجو الحقيقي لقصيدته .

- ٦ -

لأجلــــك يـا حبيبتـي

ذهبت الى سوق العصافير
واشتريت لكِ عصافير
يا حبيبتي
ذهبت الى سوق الزهور
واشتريت لك زهوراً
يا حبيبتي
ذهبت الى سوق الحديد
واشتريت سلاسل
سلاسل لكِ ثقيلة
يا حبيبتي
ثم ذهبت الى سوق العبيد
وبحثت عنـك
ولكنني لم أعثر عليك
يا حبيبتي

- ٧ -

رأيت عـــدداً منهـــم

رأيت واحداً منهم كان جالساً على قبعة شخص آخر
كان شاحبـاً
كان يرتجف
كان ينتظر شيئاً ما ••• اي شيء ••
الحرب ••• نهاية العالم •••
وكان مستحيلا ، اطلاقا ، بالنسبة اليه ان ياتي باية حركة أو أن يتكلم
أما الآخر
الآخر الذي كان يبحث عن قبعته فقد كان أكثر شحوباً
أيضـاً
وكان يرتجف هو ايضا
وكان يردد دون توقف
قبعتي ••• قبعتي •••

وكانت لديه رغبة في البكاء .
رأيت واحداً منهم كان يقرأ الصحف .
ورأيت واحداً منهم كان يحيي العلم
ورأيت واحداً منهم يرتدي ثياباً سوداء
وكان يحمل ساعة
وسلسلة للساعة
ومحفظة نقود
ووسام جوقة الشرف
ونظــارة انفيــة
رأيت واحداً منهم كان يقتاد ابنه بيده
وكان ابنه يصرخ ويبكي ..
رأيت واحداً منهم مع كلب
ورأيت واحــداً منهم مع عصي في جوفها سيف
ورأيت واحداً منهم كان يبكي
رأيت واحداً منهــم كــان يدخل الى كنيسة
ورأيت آخر كان يخرج منهـــا ...

من الأدب الألماني المعاصر

جورج ماورر

محمد نبيل شريتح

يعد جورج ماورر احد ممثلي الشعر الالماني الاشتراكي المعاصر الذي اتخذ من الحرب العالمية الثانية نقطة تحول ومنعطفا حادا لمجرى تطوره الفكري والشعري اذ وجد نفسه مضطرا ـ بعد ان وضعت الحرب اوزارها ـ الى تغيير نظرته الفلسفية عن العالم وطريقته الشعرية في معالجة قضايا المجتمع وبسط امور الحياة بشكل عام٠٠٠ انطلاقا من هذ هالفكرة ونحن نبحث في هذا الموضوع علينا الالمام بالظروف الاجتماعية الموضوعية التي لازمت الشاعر منذ نشأته ورافقته في شبابه وكان لها تأثير عميق في تطوره فيما بعد ٠

وُلد جورج ماورر في الحادي عشر من شهر آذار عام ١٩٠٧ في بلدة(ريفن السكسونية) لأسرة ريفية ـ عمل والده في التدريس باحدى المدارس الابتدائية في بوخارست بعد أن هاجر اليها مع عائلته عـام ١٩١١ ٠ نشأ الشاعر ضمن عائلة قروية متمسكة بعاداتهـا وتقاليدهـا تمسكا مطلقا ، متزمتـة في دينهـا ومعتقداتها المرتبطة بالكنيسة البروتستانية التي هيمنت على الاسرة وأضفت جوا من التدين أو بالأحرى من التصوف داخل المنزل ـ وان كنا نتكلم عن طفولة ماورر فيجب أن لا ننسى دور الوالد الذي ساهم في توجيه اهتمام طفله الوجهة الدينية التي نشأ فيها هو ٠ كل هذه الظروف كان لها نتائجها وتأثيرها البالغ على شاعر المستقبل اذ كانت عنصراً هاماً دخل تكوين شخصيته ولازمه فترة شبـابـه دون أن تكون له ارادة في ذلك ٠

وعندما كان ماورر تلميذا في المرحلة الثانوية تعرف ـ ولأول مرة ـ على اللغة الالمانية الفصحى لدى دراسته للشعر الالماني الكلاسيكي حيث استحوذت لغة الادب اهتمامه ، هذه اللغة التي أصبحت بالنسبة له فيما بعد أداة للتعبير عن أفكاره وانطباعاته نحو العالم وتأملاتـه تجاه الكون ووسيلة لترجمـة مشاعره والتزاماته الى أشعار وقصائد ۰

وفي عام ١٩٢٦ غادر الشاعر بوخارست متوجهـاً الى المانيا طالبـاً للعلـم حيث أصبح هذا البلد فيما بعد وطنه الأم اذ كان معجبا بهذا الوطن أيما اعجاب لما يتمتع به من حضارة فنية وتراث أدبي فتن الشاب وزاد من حماسته نحو الادب والشعر ۰

ولكن هذا الاعجاب وهذا الحماس كانا مقرونين بالتالي بنوع من النفور تجاه العلاقات الاجتماعية التي كانت تسود المانيا انذاك ، ولقد صور لنا الشاعر هذه العلاقات المتسمة بالصبغة الامريالية ، أمريالية العشرينيات من هذا القرن حيث الاستغلال والمنافسة الاقتصادية والتزاحم الوحشي والاقتتال في سبيل المـادة دون مبالاة للقيم الاجتماعيـة ودون اكتراث للشعور الانساني الذي لم يعد له مكـان في مجتمع الاستهلاك والاستغلال ۰ كل هـذه الافكار بسطها الشاعر لنا معبراً عـن انطباعاته تجاه هـذا البلد الغريب في الديوان الشعري الذي ألفـه فيما بعد ـ وبالتحديد عام ١٩٥٦ ـ وأطلق عليه اسم (تصوير الذات Selbstbildnis) ومـن جملة ما قال في هذا الديوان :

ـ هكذا تزدحم المنازل وتشرئب الى اعلى
ـ وهكذا يتصادم ضجيج الانسانية
ـ كما لو أن قطار الزمن توقف فجأة
ـ لينقلب الوجود وتتبدل المفاهيم حيث
ـ تتزاحم لافتات المحال التجارية »

في هذا الجو المشحون بالاضطراب والقلق باشر ماورر دراسته في جامعة برلين ولايبزغ فدرس الفلسفة وتاريخ الفـن والادب الالمـاني ، والى جـانب

الدراسة لم ينس ماورر نظم الشعر الذي كان أهم ما يميزه في هذه الفترةتأثير الشاعر (موريكة Mörike) عليـه حيث الارتباط الوثيـق بالاعتقــاد الديني المتزمت وبالتقاليد التي لا تقبل المرونة أو التطور ، ولقد أكد ماورر علىذلك في ديوانه الآنف الذكر حيث تابع وصفه للحالة النفسية المضطربة التي كان عليها عند قدومه الى المانيا اذ أخذ اليأس منه كل مأخذ فوجد في قصائد هــذا الشاعر المعروف عنه الانطواء على النفس والانعزال عن العالم الخارجي مغمضا عينيه على ما يجري فيه ليجد في ذاته ملجأ يقيه الاضطراب الخارجي ـ ولقدكتب ماورر في ذلك يقول :

« غبار وشمس وعاطفة

● تمازجت

● ليرفرف فوقها مثل الفراشة بحنان ، شعر الربيع لموريكة »

هذه الاشعار ترينا الاثر البالغ الذي كان يمارسه موريكة على نفسيةماورر بالاضافة الى تأثيرات أخرى لشعراء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الذيــن شابهوا (موريكة) في نظرته السوداوية عن العالم ، عالم الصراع والتناحر ، عالم استغلال فئة صغيرة لفئة كبيرة في المجتمع ، ولقد مثل ماورر هــذا التأثير حيث أجاب عن سؤال طرح عليه حول الشعراء الذين تركوا فيه أثرا انعكس في شعره فقال : « الى جانب شعر غوته وشيللر هنــاك شعر (موريكة) الذي أثــر في داخلي ، حيث كان شعره ـ أي شعر موريكة ـ بالنسبة لي التجسيد الكامل للحالة النفسية التي كنت أشعر بها في قراراتي . »

وفي برلين تعرف الشاب ذوالتسعة عشرة ربيعا لاولمرة على مدينة صناعية كبيرة يشهد فيها ولأول مرة أيضا العلاقات الاجتماعيــة في المجتمع الرأسمالي الامبريالي القائمة على الاستغلال والسعي وراء الربح على حساب الاخرين من البشر كما وعايش عن كثب البطالة الناجمة عن الازمة الاقتصادية التي سيطرت على ألمانيا فافزع اليأس المسيطر على المجتمع المتحكم فيه رأس المــال ـ أفزع الشاعر الفر فكان عليـه الهرب بعيداً عن هــذا الواقع البائس فعله فعل كثـير من

شعراء هذا الوقت لأنهم لم يروا في هذا المجتمع ما يشجعهم على التفاعل مع أحداثه ليعطوا الانتاج الشعري المحلل لأوضاعه وظواهره على أساس واقعي علمي ٠

لذلك لا عجب والوضع على هذه الحالة أن ينكب ماورر على شعر (ريلكة Rilke) المتميز بانعزالية تعكس نفسيته السوداوية هو الآخر فاتخذ شاعرنا بالاضافة الى شعر شيللر المثالي مثالا يحتذى به في شعره وملجأ له ينطوي بهما على نفسه بعيدا عن مشاكل المجتمع التي كانت بحاجة ملحة الى أناس من شعراء وفلاسفة ومفكرين يفندوها ويبينون أسبابها ويضعون الحلول لها ، لقد كانا مثالا له في تأملاته الشعرية ليس للواقع وانما لما كان يختلجه من شعور فقط ٠ ولقد سمى ماورر هذه المرحلة من تطوره الفكري (مرحلة ريكلة ـ شيللر وان دلت هذه التسمية على شيء فانما تدل على ما كان لهذين الشاعرين من تأثير بالغ على الشاعر الشاب ٠

وبالرغم من هذه الحقيقة المرة التي واجهت الشاعر في برلين والتي من شأنها تحريره من نظرته المثالية المتصوفة الى الحياة تمسك ماورر بشعوره الديني نحو الوجود وباعتقاده الخيالي المستند على قاعدة ميتافيزيكية ٠

وعندما اندلعت الحرب العالمية الثانية سيق ماورر الى الجيش حيث اشترك بها كجندي مثله مثل الملايين من الشبان الذين أجبروا على الدخول في هذه الحرب البربرية الشمة ، وفي عام ١٩٤٤ وقع ماورر في الأسر الروماني ثم آل الى الأسر السوفيتي ، ولكن هذا لم يستمر طويلا اذ عاد ماورر الى المانيا ثانية بعد أن افرج عنه فكان في عداد العائدين الى وطنهم المدمر من جراء حرب ذهب ضحيتها الملايين من البشر غدرت بهم الامبريالية الفاشية (للبحث عن مكان تحت الشمس) فكان مصير وطنهم الدمار ٠

لقد كان الشاعر مثله مثل غيره من أبناء وطنـــه في ذلك الوقت فريسة للحيرة النفسية القاتلة حيث لم يعرف أي طريق يسلك ، والى أين ستؤدي هذه الطريق • هذا السؤال كان في الواقع سؤالا أساسيا طرح ليس فقط من قبل الادباء والسياسيين وانما من قبل عامة الناس الذين كانوا عـلى مفترق طرق ليبدأوا حياة جديدة بعد أن ضاع كل شيء •

هذه الاوضاع البائسة دفعت ماورر الى اعادة النظر في نظرته القـديمة التي لم تعد تساعده وترفد أمله وتهدىء من روعه وتخفف من محنته ومحنة وطنه ، ولقد وجد نفسه في وضع يدعو الى التفكير والحسم في موقفه الفلسفي بالنسبة للحياة وهذا ما حدد بالتالي سمات تطوره الشعري ، فتبين له أن شعوره الديني لم يسعفه في تحليل أحداث الحرب الماضية المفزعة بموضوعية وواقعية ولم تعد مثاليته وسيلة يعبر بها بأبيات شعرية عن أهوال حرب اجرامية • من هنا كان لزاما على الشاعر البحث عن قاعدة شعرية جديدة يعتمد عليها في وصفه لمشاعره وعرضه لتأملاته عن أحداث الحرب ، هذا ما يفسره لنــــا قوله : « لم أستطع بانعزالية ريلكة ولا بمثـالية شيللر ادراك كل هذه الاحداث ـ أي أحداث الحــرب العالمية الثانية » •

من هنا نخلص الى القول بأن الحرب كانت بالنسبة للشاعر نقطـة تحول في تطوره الشعري لأنهـا هزته من الأعمـــاق وأصابتـه في الصميم • ولقـد نوّه الشاعر عن تأثير الحرب عليه ودور أحداثها في التقليل من أهميـــة ريلكة في شعره ••• يقول ماورر في ذلك : « لقد لاحظت خطأ نظرتي الى العالم المصوغة بانعزالية ريلكة وتنبهت الى الحقيقة ووعيتها بعد الحرب العالمية الثانية وما جرته من مصائب على ألمانيا ـ الوطن الذي أحببته وأحبه »

وبهذا يكون ماورر قد عبر عن عزمه على ترك وهجران (منفاه الداخلي وملجاه الروحي) الذي كان يأوي اليه هربا من تناقضات الحياة وأهلن التفاته

الى العالم الخارجي والى ذويه من بني البشر موليا اهتمامه لمشاكلهم وقضاياهم في مجتمعهم ٠

في الواقع لم يكن هذا الحسم بالامر السهل عليه اذ كان لا بد من تصفية الحساب مع الكثير من العلاقات والمفاهيم التي شب عليها وتطبع بها خلال طفولته وشبابه ، لقد كان عليه الكفاح مع نفسه ، مع ذكرياته ومع ماضيه ، لذلك لم يكن لهذا الكفاح أن ينتهي خلال أيام قليلة معدودة ، بل استمر فترة طويلة من الزمن وسار في مراحل عدة حتى اكتملت صورته وانتصر فيه الشاعر الاشتراكي الواقعي ليس دون ثبات وتصميم وصلابة ٠

وأول ديوان للشاعر بعد الحرب العالمية الثانية كان (أغاني العصر Gesänge der Zeit) عام ١٩٤٨ ٠ ونستدل من عنوان هذا الديوان أن الموضوع الذي يعالجه هو ذاك الذي شغل اهتمام شعراء وأدباء تلك الفترة ، ولو أمعنا النظر قليلا في هذا الديوان لوجدنا أن الشاعر يبحث في طياته عن القوة غير المرئية التي تبقى وتدوم والقدرة الخارقة التي تسير العالم رغما عنه أي أنه بمعنى آخر كان يعزو كل أحداث الحرب العالمية الثانية الى هذه القوة الخارجة عن ارادتنا وقدراتنا ، وان دل هذا على شيء فانما يدل على أن الشاعر لم يتحرر كليا من قيود أفكاره القديمة القائمة على أرضية غير واقعية ، ولكننا رغم ذلك نستطيع أن نرى اختلافا واضحا بين هذا الديوان وبين ديوان (أصوات أبدية Ewige Stimmen) الذي كتبه قبيل الحرب بقليل اذ أن شعره هنا لم يعد يعالج موضوع الديمومة وموضوع العالم الآخر بل أخذ يدعو الى التخلي عن الاحلام والاماني بالخلود في جنان الآخرة :

ــ حطموا الاعتقاد بالفراديس

ــ التي ستوجد ذات يوم دون عمل ٠

هذان البيتان يدلان على التحول الملحوظ في وجهة نظر الشاعر الذي كان يؤمن بديمومة الحياة بعد الموت ، ولكنه وجد هنا أن الجنة والسعادة الحقة لا

يستطاع التوصل اليهــا الا اذا بذل العمل والجــد في سبيلها ولا فرق أن وجــدتا بعد ذلك في العالم الاخر أو في الحياة الدنيا •

ولقد بدأت مرحلة جديدة في حياة ماورر بشكل عام وفي تطوره الشعري بشــكل خاص لــدى ظهور ديــوان جديد له عــام ١٩٥٠ أسماه (وعي) حيث نظم فيه اعترافاته بخطأ فكرته السابقة عــن العالم والحياة • وعنوان الديوان يعبر أصدق تعبير عن هذه الفكرة بالذات • ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو بحثنا عن المؤثر القوي الذي كان العامل الرئيسي في استبدال نظرته وتفكيره الخاطيء ـ على حد قوله ـ بفكرة جديدة عوضا عن القديمة وبأسلوب جديد في الطرح والمناقشة للمواضيع الشعرية ، ولقد أجاب ماورر عن هــذا السؤال بقوله : « لقد فسرت لي الماركسية أحداث الماضي وشرحت لي ما علي القيام به كشاعر »

لقد كــانت الماركسية اذن الطريق الــذي سار ماورر على هداه في معالجتــه لقضــايــا المجتمع الجــديد وفي تفســير ظواهــره الماضية بمــا فيها الازمــات التي تعاقبت على ألمانيا قبل الحرب ثم الويلات التي جرتها النازية بحربها الفاشية الامبريالية ضد الانسانية •

ولقد اتخذ الشاعر من العبــارة الآنفة الذكر مبدأ له في حياتــه الادبية فشرع في تحقيق نظرته الفكرية الجديدة المرتكزة على أسس الماركسية في انتاجه الشعري وهذا ما بدا جلياً في الديوان اذ أننــا نستطيع اعتبــاره وثيقة لوجهة نظــر جديدة وفكرة فلسفية مختلفة عن السابقة لانه برهن فيه على بداية لتحرير نفسه من النظرة المثالية التي أضحت ثقلا يضغط عليه بعد تأكده من أنهــا لم تعد تمده بالعون لدى تفسيره للظواهر الاجتماعية الجديدة ، اذ اعترف بتصوراته الخاطئة عن العــالم والطبيعة ، هذه التصــورات التي سلبته قــوة الخلق والابداع وجعلت منه مجرد (ببغاء) ـ كما جاء في الديوان ـ يتلقى الاشياء كما هي ويلاحظ الحوادث بلا اكتراث دون أن يتفاعل معها ودون أن يؤثر فيها تأثيرا ايجابيــا خلاقا • هذه الوحدة الدياليكتيكية بين الانسان والعــالم المادي أضحت العنصر

الرئيسي الذي ميز دواوينه الشعرية اللاحقة اذ تعمقت وترسخت وازدادت وضوحا مع ظهور كل ديوان جديد ·

ولقد كرس الشاعر ديوانه الجديد (تقويم المقاطع الثلاثة) لاظهار وجهة نظره عن الوحدة الديالكتيكية التي تسود الطبيعة حيث عالجت كل قصيدة من هذا الديوان ظاهرة معينة من ظواهر الطبيعة المتعددة أو جانباً من العلاقات الانسانية بين المخلوق والكون ·

ويتحسس ماورر هذه الظواهر بشعور جديد لم يكن معروفا لديه من قبل اذ ينظر الى الطبيعة ـ كموضوع شعري ـ نظرة مختلفة كلياً عن سابقتها ليكتشف فيها مجراها المادي ودورتها الديالكتيكية منذ البداية حتى النهاية · وتدلنا قصائد هذا الديوان على تطور الشاعر الملحوظ ـ وهذا ما يهمنا في بحثنا ـ اذ أنه بدأ يفهم عملية تبدل ظواهر الطبيعة بتبدل فصولها فهما موضوعيا مستندا بذلك الى قواعد علمية صاغها باسلوب شعري رائع أضفت على الديوان صبغة تعبيرية في غاية الدقة والجمال أطلعنا على مزيد من التباعد بينه وبين النظرة المثالية التي كانت ترد تبدل الظواهر الطبيعية الى قوة خارقة لا يدركها انسان تتحكم في العالم وتسير ظواهره حسب مشيئتها ، ولقد صور ماورر فرحته وسعادته بنظرته الجديدة هذه عندما قال :

« لقد زحفت هاربا من هموم الليل
ـ كما يخرج العصفور من البيضة
ـ كسرت قشرتها
ـ لاتنزه الان طليقا »

وفي الديوان الشعري (اثنان وأربعون مقطوعة) عام ١٩٥١ يتابع الشاعر اظهار أفكاره التي بدأها بشكل جلي في ديوانه السابق حيث يحاول فيه الانطلاق من قاعدة أكثر واقعية مستوحاة هذه المرة ليس من الطبيعة بل من أمور مجتمعه الجديد ، حيث يظهر اعجابه بجمال عالم أصبح الانسان فيه انسانا بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى وما تتضمنه من مفاهيم،

بالاضافة الى تشديده على طريقته الشعرية الجديدة في بسطه لهذه الامورومعالجته لها ، ومن جهة أخرى نستطيع أن نمتبر هذه المقطوعات الاثنتين والاربعين اعترافاً جديداً بنوعية جديدة اذ أنهـا لا تسلم بخطأ النظرة القديمـة فحسب وهجران العالم المجرد فقط وانما هي اعتراف بالعالم الجديد الذي يحترم مكانة الانسان في المجتمع :

« لقد بدأ الآن يخوف الانسان بالتمزق
ـ هذا الخوف الذي عاني الانسان منه في داخله »

انه اذن العالم الجديد الذي يفسح المجال لقوة الانسان في الخلق والابداع، كيف لا وهذه القوة انما توجهها التعاليم اللينينية الى أهداف مفيدة للانسانية جمعاء لانها تحمل في داخلها معنى انسانيا عميقا ٠

أما في ديوانه الشعري الذي كتبه عام ١٩٥٤ واطلق عليه اسم (عناصر) فقـد عالج الشاعر سلطة قـوى الطبيعة وموقف الانســان تجـاه هـذه القـوى اذ ثبت « لماورر » أن الانســان لا يستطيع عزل نفسه عن العـالم الـذي يعيش فيه لأنه مرتبط بالطبيعة شاء هذا أم أبى ، انه يعيش في وسطها ،كيف لا وهو عنصر من عناصرها ، انه يخرج منها ليعود اليها ، فظواهرها تصيبه في الصميم لدى مجراها وتغييرها ، ولم ينس الشاعر أن يحدد هذه العناصر التي هي في الواقع المقومات الاساسية لكل ظاهرة طبيعية : انها الماء والهواء والارض والنـــار ٠

ويرى الشاعر أن الانسان لم يقف مكتوف الايدي حيال هذه القوى فهو في صراع مع الطبيعة منذ الازل ؛ يقوم بتشذيب قوتها وفرض ارادته عليهـــا وتكييفها حسب رغباته وضرورات عيشه ، فهو اذن لم يستكن لها ولم يستسلم لجبروتها ، وكانت وسائله في ذلك عديدة فهناك الفن الذي يرى الشاعر فيه وسيلة ثورية لتغييـر المفاهيم الاجتماعيـة الى مستوى أفضل لخدمـــة الانسان وخصوصاً اذا كان مرتبطاً بالعنصر الثاني وهو العمل حيث يستطيع الانسان به تبديد مخاوفه من الماء وفيضانه ومن النار بتكريس عمله الذهني والعضلي ليخلق من هذه العناصر ـ التي كانت مصدر خوف له ـ منجزات عجيبة تحقق سعادته وتبني رخاءه ،

والى جانب الفن والعمل هناك الوسيلة الثالثة لتغيير وجه الطبيعة وتبديل معالمها ـ انه الحب في معناه الشامل اذ أن لهـذه الوسيلة تأثيرهـا غير المباشر على اسهامه في اضفاء صبغة الانسانية عـلى الشعور الانساني ، وهو الذي يفجر طاقات الانسان وينشر في العالم شعاع الامل ٠

وهكذا يظهر « ماورر » من خلال ديونه كشاعر واقعي ديالكتيكي ذي شعور أكثر انفعالا بالاشياء المحيطة به لانه بدأ يعرف تأثير الانسان على هذه الاشياء ٠٠ انه يرى في الطبيعة المكان الذي نأتي منه ونؤول اليه ، تلـك اذن العلاقـة الديالكتيكية بين الانسان والطبيعة ٠

ولقد أظهر ماورر عمق هـذا الشعور في دواوين شعره الاخرى مثـل (رحلـة شعريـة Poetische Reise) عـام ١٩٥٢ (وعـرس البحـار (Hochzeit der Meere ١٩٥٣ـ١٩٥٤(ووطن مغدر (Mahnende Heimat ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦ حيث لم تبق قصائد ماورر مقتصرة على الطبيعة وعناصرها بل تخطاها الى الواقع الحي الذي يحياه الشاعر في بلده الاشتراكي الفتي لقد انتقل ماورر الى معالجة الأحداث المعاصرة في وطنه وفي البلدان الاشتراكية الاخرى ليقوم بمقارنتها بالاوضاع والاحداث في مجتمع المانيا الغربية الرأسمالي ٠

ففي الديوان الشعري (رحلة شعريـة) يتجول الشاعر بنـا في المـدن والمناطق المختلفة في جمهورية المانيا الديمقراطية الفتية عارضا علينا بأمانـة واقعية البنـاء الاشتراكي ، ويربط خـلال هذا العـرض الماضي العظيـم لألمانيا بالمجتمع الجديد لأنه امتداد وتتمة للتراث الانساني وتحقيق لأهداف ناضل من أجلها أبناء المانيا العظام من مفكرين وفلاسفة وموسيقيين وأدباء ٠

وبينما يعالج الشاعر في هذا الديوان جملة من المنجزات والمشاريع التي رآها في رحلته الواقعية ليترجمها الى رحلة شعرية تنبض بهذا الواقع يتكلم في الديوان الأخر (عرس البحار) عن واحدة مـن المنجزات الكثيرة في الاتحاد السوفياتي اذ انه يصف لنا وصفاً شـعرياً دقيقاً مليئاً بالصـور التعبيرية الرائعـة التي تجعل الموضوع المعالج سلس الوقع على أذن القارىء والمستمع رغم جفاف

مادته ، اذ انه وصف لعملية بناء القناة التي تربط نهر الفولغا بنهر الدون · وعرض الشاعر لهذه العملية بجزئياتها تبرهن قوة الملاحظة والقدرة الشعرية على ربط هذه الجزئيات مع بعضها لتكون صورة مترابطة توحي للقارىء بأنه أمام هذه القناة يرقب كل مرحلة من مراحل بنائها ·

بهذين الديوانين في عرض الواقع الحي جسد « ماورر » قمة مقدرته الشعرية في تصوير الانسان العامل أثناء قيامه بعمله منيرا بقوته العظيمة الواقع ووجه الطبيعة لصالح الانسانية ·

ولكن رغم ذلك لم يظهر « ماورر » في هذين الديوانين وفي دواوينه السابقة كشاعر يتعمق بالاشياء الواقعية للكشف عن خلفيتها وتحليلها وليس فقط عرضها ، لقد كانت معالجته لجوهر الانسان العامل غير كافية رغم أن الجوهر الانساني للعامل بدا جليا في المناطق التي وصف فيها المنجزات المحققة·

ولقد عبر ماورر في ديوانه الجديد (صور من التاريخ) ١٩٥٨ عن وجهة نظر ماركسية بحتة في فهمه لتاريخ الانسانية الذي اعتبره تاريخ نشوء وامتلاك القيمة التي تمثلت في وسائل الانتاج وفي صراع الطبقة المستغَلة ـ بما فيها الطبقة العاملة ـ مع الفئة المستغِلة واعتبر هذه الفكرة بالذات المحور الذي دارت وتدور حوله كل الاحداث التاريخية ، فعرض لنا أشكال استغلال الانسان للانسان في كل الانظمة الاجتماعية الماضية ، ليأتي الى المجتمع الاشتراكي حيث وجد الحل الصحيح الملائم للخلق الابداعي المفيد للانسانية بعد القضاء على العلاقات الاستغلالية في الانتاج ·

ولقد كرس ماورر دواوينه الثلاثة اللاحقة للديوان الآنف الذكر لموضوع الحب الانساني مبتدئا بالعلاقات العاطفية الطبيعية بين انسانين ليخلص الى الحب المؤثر في العلاقات الاجتماعية لاضفاء الصبغة الانسانية عليها فكان ديوان مديح فينوس (Lob der Venus) عام ١٩٥٩ (واشكال الحب) عام ١٩٦٠ وديوان (أفكار الحب) ١٩٦١ فاكد في الديوانين الأول والثاني على دور الحب في التغلب على الوحدة وفي تهذيب الشعور الانساني واكمال شخصية الانسان لانه يسهم في تفجير طاقات

وامكانيات العشاق لتتفاعل مع حركة الطبيعة المستمرة من أجل السيطرة على العالم ٠

ويشير ماورر في ديوانه الاخير (أشكال الحب) الى شكل نبيل من أشكال الحب الذي يؤكد تحرره من مفهومه البرجوازي انه اذن الشكل الذي يعبر التعبير الصادق عن المعنى الحقيقي بالشعور الانساني وليس فقط الحب بمعناه الضيق بين شخصين من جنسين مختلفين وانما الحب لكل الانسانية ٠

وبذلك نفهم الحب على انه امكانية السعادة والانسجام بين الناس من جهة وبين هؤلاء الناس والبيئة المحيطة من جهة أخرى ، ويشترط في الحب حسب رأي « ماورر » أن ينعكس الى الخارج لا أن يبقى مقتصرا على العواطف الذاتية ويجب أن يكون الحب أيضا تعبيرا عن السلام ـ يقول في ذلك ٠

« لكن نحن نسمي الحب ـ السلام الحي
ـ الذي يجعل كل شيء خلاقا »

ان فهم الشاعر هذا يذكرنا بالفهم الماركسي للحب الذي يجب أن يجسد الاقتراب المتبادل للانسان مع الطبيعة من أجل السيطرة عليها والتحكم فيها ، وبذلك يعبر الشاعر مرة أخرى عن موقفه الفلسفي الملتزم بالنظرية الماركسية ليس فقط بالنسبة للعالم والطبيعة وانما لمشاعر الانسان ولأرق عواطف الجوهر الانساني ٠

ولو أمعنا النظر في المواضيع التي عالجها الشاعر في دواوينه منذ أن اختار طريقا جديدا له في حياته الشعرية والعامة لوجدنا أن هناك جملة من المواضيع تعكس هذا الطريق الجديد وتتكون من أربعة عناصر وهي (المادة ، التاريخ ، الحب والعمل) حيث ظهر كل عنصر في ديوان منفرد حتى كان عام ١٩٦٢ عندما خرج ديوان جديد الى حيز الوجود بعنوان (حاضرتنا) حيث جمع « ماورر » هذه العناصر لتكون موضوعا واحدا يبحث في المرحلة الجديدة لتطور عالمنا ويحاول فيه الشاعر بتأملاته الشعرية المادية وطريقة

عرضه الديالكتيكية الوصول الى فهم أعمق حول تاريخ الانسانية وتحديد علاقة الانسان بالماضي والحاضر •

ويتطوي تحت هذا الموضوع الواسع الكثير من المواضيع الجزيئة التي انكب عليها الشاعر بالبحث والتحليل فنجد مثلا موضوع المنجزات والموائد التي حققها القدماء لجيلنا الحاضر ولانسان المستقبل باذلين في ذلك كل التضحيات التي وصل الانسان بها الى القمر ، وهناك موضوع العمل الذي يتشرف به الانسان لأنه وسيلة لتحسين أوضاعه ولتطوير نفسه ، ويدحل تحت هذا الموضوع الانسجام في حب البشر بعضهم لبعض وللطبيعة التي تحتل في الديوان مكانا بارزا ، بالاضافة الى الفن الذي يعتبره الشاعر وسيلة لتغيير وجه الطبيعة فيسوق لنا الامثلة من فنون وحضارة المصريين القدماء واليونانيين الذين حققوا المعجزات بهذا الفن ، وينبه الشاعر في نهاية الديوان الى الحفاظ على المنجزات التي حققها انسان الحاضر وحمايتها من نزوات الشريرين من بني البشر فيذكر بالعهد النازي وجرائمه بحق الانسانية ، كما ينصح باستخدام هذه المنجزات لتحقيق منجزات أخرى تكون ذخرا لجيل المستقبل •





ولد جورج غوردن ، لورد بايرون ، في لندن في الثاني والعشرين من كانون الثاني سنة ١٧٨٨ • كان سليل اسرة عريقة تنتهي بنسبها الى نورمان بورنز • ولما كان بايرون شديد الفخر باصله ، فانه لم يفته ان يقول بضع كلمات في اسلافه •وكان احد فروع النورس بورنز قد هاجر من وطنه الأم في اسكندينافيا وجاء ليقيم في نورماندي ، ومن هناك عبر اثنان من العائلة الى انجلترا مع وليم الفاتح •

كان البايرونيون طوال تاريخ الملكية الانجليزية مخلصين أوفياء لها ، وبسبب بلائهم في الحروب الأهلية مع الملك ، عين جون بايرون ، اثر معركة نيوبوري ، بارون روشدال (٢٤ تشرين الأول سنة ١٦٤٣) •

جون ، جد الشاعر ، «جاك المشاكس» كما كان يسميه رجاله ، تتقاذفته عاصفة بعد عاصفة ، فتأتي له تجارب مثيرة من خلال أسفاره الكثيرة • وكان ابنه الأكبر ، جون بايرون ، من الرجال العصبي المزاج : تركت له زوجه التي تزوجها سنة ١٧٧٩ ، وماتت سنة ١٧٨٤ ، ابنتين ، بقيت منهما واحدة ، هي أوغستا • وبعد سنة واحدة من موت الزوجة الأولى ، تزوج الآنسة كاترين غوردن أوف جايت التي كانت من أصل اسكوتلندي : وفي سنة ١٧٨٨ ولدت جورج بايرون • وبعد سنتين بدد الزوج القسم الأكبر من ثروته ، فحملت الزوجة على الطلاق ورجعت الى أبردين ، حيث تلقى بايرون اليافع القسم الأول من تعليمه • ولتحسين صحته ،

بعد اصابته بالحمى القرمزية ، استقرت السيدة بايرون بالصبي ، صيف سنة ١٧٩٦ ، بعض الوقت في مرتفعات اسكوتلندا ، حيث ترك جمالها البري انطباعاً قوياً في ذهنه ·

وفي سنة ١٧٩٨ ، حصل عمه الكبير على لقب (لورد بايرون الخامس) ، ومات بلا وصية صريحة ، فورث شاعر المستقبل ، وهو في العاشرة من عمره اللقب وضياع نيوستيد ابي ، قرب نوتينكهام ، فاتخذت السيدة بايرون وابنها نيوستيد مقراً لهما ، ولم يلبثا أن انتقلا الى لندن · وهناك أرسل اللورد الشاب الى مدرسة خاصة في دولويش ، ثم الى هارو ، والى جامعة كامبردج بعد أربع سنوات · كان تلميذاً صخاباً ، ولكن وسائله الطريفة اكسبته عدداً من الأصدقاء ، وبالرغم من أن العرج الذي أصاب قدميه جعل المشي عسيراً عليه بعض العسر ، فقد كان يستمتع بصيد البر وصيد السمك ، والسباحة وبأنواع رياضية أخرى ·

رجع بايرون الى نيوستيد ابي سنة ١٨٠٨ ، وأنتج في السنة نفسها أول اثر له هو : ساعات الكسل ، وهي مجموعة أشعار متفاوتة القيمة ، انتقدها رئيس تحرير ادنبورغ ورفيو بقسوة ، فثار بايرون لنفسه بهجاء نفسي : « الشعراء الانجليز والنقاد الاسكتلنديون » · وفي سنة ١٨٠٩ بلغ سن الرشد واتخذ مقعده في مجلس اللوردات ، فقام مباشرة ، وبرفقة اللورد بروغتن ، برحلة طويلة الى الشرق · أبحر الى لندن أولا ، ومن هناك الى البرتغال واسبانيا ، دمي الى مالطا ، ثم قصد الى تركيا واليونان · وفي السنة التالية زار آسيا الصغرى · وفي صيف سنة ١٨١١ كان مرة ثانية في انجلترا ، حيث نشر المقطعين الأولين من أسفار تشايلد هارولد ، وصف شعري لأسفار الفتى « الرومانتيكي » الذي لم يشك أحد بأنه لا يعني الا بايرون نفسه · وسرعان ما انتشرت القصيدة ، واشتهر بايرون كأعظم شاعر في عصره · ثم اتبعت تشايلد هارولد بـ : جياؤر ، برايد أوف أبدوس ، الكورساير ، ولارا ، أساطير شعرية تمثل المشهد الذي كان سائداً في تركيا أو اليونان ، وقد رفع هذا بايرون الى مستوى عال في نظر الجمهور ·

سنة ١٨١٥ تزوج بايرون ، الذي أنفق ثروته في الأسفار ، من غنية

بالوراثة ، هي الآنسة ميلبانك ، ابنة أحد بارونات نورثمبرلاند • جرى الزواج في الثاني من كانون الثاني ، وولدت لهما ابنة في العاشر من كانون الأول من السنة نفسها • وبعد ذلك بمدة قصيرة ، ولأسباب لم تعرف تماماً ، هربت السيدة بايرون من بيت زوجها ، ثم انفصل الزوجان في كانون الثاني سنة ١٨١٦ •

وخلال سنة ألّف بايرون حصار كورنيث وبارزيما ، وثلاثاً وعشرين قصيدة أخذت موضوعاتها من العهد القديم • وكانت شهرته قد ازدادت في ذلك الحين • وفي ٢٥ من نيسان سنة ١٨١٦ أبحر بايرون مرة أخرى من انجلترا ، وهذه المرة لم يعد • مر ببلجيكا وألمانيا الغربية الى سويسرا • ونزل أثناء صيف ١٨١٦ في جنيف ، وأنفق بعض الوقت في أمكنة مختلفة من تلك المدينة بصحبة شللي • وألّف في بضعة أشهر من تلك الفترة النشيد الثالث من أسفار تشايلد هارولد ، وسجين شيلون ، والحلم ومانفريد • وفي تشرين الأول سنة ١٨١٦ ترك جنيف الى ايطاليا حيث قضى بضع سنوات ، متنقلا بين فينيسيا ، رافينا ، روما ، بيزا ، وجنوا • في روما أكمل أسفار تشايلد هارولد • وفي السنوات التالية القليلة كتب : بيبو ، مازيبا ، مأسبه ، مانفريد ، كاين ، ساردنا نابولوس ، وقصيدة دون جوان • وكانت مشاركته في حركة كاربوناري قد جعلته غير مرغوب فيه في ايطاليا ، فقرر أن يذهب الى اليونان ليساعد في قتالها للحصول على الاستقلال •

أبحر من جنوا في الثالث عشر من تموز سنة ١٨٢٣ ، نازلا في البداية ، في أوجست من أرغوستالي في جزيرة كيفالينيا • ووصل في الرابع من كانون الثاني سنة ١٨٢٤ الى ميسولونجي ، على الشاطيء الشمالي من خليج باتراس • استقبله اليونانيون بحماس عظيم • أصابته الحمى وهو ذاهب للقتال في صفوفهم • أضيفت هذه الى كيانه الممزق ، فكانت مقاومته ضعيفة • ومات بايرون في التاسع عشر من نيسان ، وهو في السادسة والثلاثين من العمر •

ســجين شــيلون

كتب بايـرون سجين شيلون في يومـين ، وهو في فندق قرية أوشي ، قـرب لوزان • وقد قام بعدة زيارات لقلعة شيلون ، التي تقع بين كـلارن وفيلنوف ، في أقصى الطرف الشرقي للبحيرة ، على بعد ميلين من الجنوب الشرقي لمونترو • مداخل الرون على يسارها ، وتقابلها مرتفعات ميري ، وسلسلة الألب فوق بوفيري وسانت جنجو • ومن تلـة قريبة وراءهـا سيل متدفق • والبحـيرة ، من تحتهـا ، تغسل جدرانها ، على عمق ثماني مئة قدم بالقيـاس الفرنسي • ويداخلها صفوف مـن الزنزانات ، كان يلقى فيها بالمصلحين الأوائـل ، وبالتالي سجناء الدولـة • وفي أحد السراديب ، عارضـة اسودت بمرور الزمـان ، كان يعلق عليهـا المحكومون بالاعـدام • القلعة ضخمـة ، جدرانهـا بيضاء ، تظهـر من فوق البحـيرة الى مسافـة بعيـــدة •

وكانت جنيف والمناطق الملحقة بها لا تزال ، في بداية القرن السادس عشر ، تحت حكم دوقات سافواي • استقلت جنيف سنة ١٥٢٤ ، وسنة ١٥٢٦ جرى تحالف بين اقليمي فريبورغ وبرن ، ولكن لم يعترف باستقلالها حتى سنة ١٦٠٣ • وقـد لعب بونيفار ، في الصراع الذي دار في القرن السادس عشر ، دوراً قيادياً ووقـع سنة ١٥٣٠ غدراً في يد الدوق شارل الثالث السافواي ، فألقي به بين جدران قلعة شيلون ، حتى أطلق سراحه البرتيون سنة ١٥٣٦ •

وقد خص بايرون نفسه بطل قصيدة بهذا التعليق :

لم أكن مطلعاً ، عندما كتبت هـذه القصيدة ، اطلاعـاً كافياً على تاريخ بونيفار ، ولا ألزمت نفسي أن أسعى الى تبجيل هذا الموضوع ، بتمجيد شجاعتـه ومناقبه • بل ان بعض الوصف لتلك الحياة ، كان مستمداً من لطف مواطني تلـك الجمهوريـة ، التي لا تـزال فخـورة بذكـرى رجـل كان من أنبـل من حملـوا للحريـة القـديمـة :

• فرانسواز بونيفار ، ابن لويس بونيفار ، ينتسب الى ميسيل وسيد لون •

ولد سنة ١٤٩٦ ، تعلم في تورين ، وتخلى له عمه ، جان ايمي بونيفار ، سنة ١٥١٠، عن بريوري سان فيكتور ، التي تمتد حتى جدران جنيف ، وتشكل اقطاعية كبيرة ٠

« هذا الرجل الكبير (استحق بونيفار هذا اللقب بنفسه القوية ، ونزاهة قلبه، ونبل مقاصده ، وصواب آرائه ، ومساعيه الشجاعة ، واتساع معارفه ، وحيوية تفكيره) ، هذا الرجل أثار اعجاب كل الذين يتأثرون بأعمال البطولة ، وملأ بالعرفان الحي قلوب الجنيفيين الذين يحبون جنيف ٠ ودائماً كان سنداً راسخاً لتأكيد حرية جمهوريتنا ، فلم يخف أبداً أن يفقد ملكه ، بل نسي راحته ، وازدرى الغنى ، ولم يدخر وسعاً لتوطيد سعادة البلاد ٠ لقد آثرها كما آثر مواطنيها ، خدمها ببسالة بطل ، وكتب تاريخه بصفاء قلب الفيلسوف ، وحماسة الوطني ٠

« قال في مستهل تاريخه عن جنيف ، بأنه : « أحس ، منذ أن أخذ بقراءة تاريخ الأوطان ، بالنزوع الداخلي الى الجمهوريات ، التي تقترن دائماً بالخير » ، هذا النزوع الى الحرية هو الذي جعله ، بلا شك ، يختار جنيف لتكون وطنه ٠

« كان بونيفار يافعاً ، حين جهر بالدفاع عن جنيف ضد دوق سافوي والايفيك » ٠

« سنة ١٥١٩ ، كان بونيفار ضحية وطنه : دخل دوق سافوي جنيف بخمس مئة رجل ، وأراد بونيفار أن يتحاشى حقد الدوق ، فانسحب الى فريبورغ ليتجنب اتباعه ، ولكنه خدع برجلين كانا مرافقين له ، فاقتيد بأوامر الأمير الى غرولي ، حيث سجن لمدة سنتين ٠ كان تعيساً خلال رحلاته ، الا أن تعاسته لم تخفف من حماسه لجنيف ، كان دائماً عدواً لدوداً لأولئك الذين يعادونها ٠ وفي سنة ١٥٣٠ لاقاه لصوص في جورا ، فسلبوه ، وألقوه بين يدي دوق سافوي ، فأودعه هذا الأمير قلعة شيلون ، وبقي فيها دون أن يستجوب حتى سنة ١٥٣٦ ، حيث أطلقه البرنيون ، الذين استولوا على باي دو فو ٠

« خرج بونيفار من الأسر ، ليجد جنيف محررة ، فبادرت الجمهورية ، اعترافاً بجميله ، الى مكافأته على ما قاساه في سبيلها ٠

استقبله وجهاء المدينة في شهر حزيران سنة ١٥٣٦ ، وقدموا له البيت الذي كان يسكنه الوكيل العام ، وعينوا له مئتي ريال ذهبي مرتباً ما دام مقيماً في جنيف ٠ وفي سنة ١٥٣٧ عين في مجلس المئتين ٠

« ولم تتوقف الافادة من بونيفار عند هذا الحد ، فبعد العمل على تحرير جنيف ، نجح في اعادة التسامح ، وحمل المجلس على منح رجال الكنيسة والفلاحين، وقتاً كافياً لبحث القضايا التي كسبوها •

« وكان بونيفار عالماً : ان مخطوطاته التي صارت في المكتبة العامة ، تبرهن أنه قرأ المؤلفات اللاتينية الكلاسيكية قراءة جيدة ، وأنه تعمق اللاهوت والتاريخ، كما أحب هذا الرجل الكثير العلوم ، ورأى أنها تستطيع أن تبني مجد جنيف ، ولم يترك شيئاً الا وقدمه لهذه المدينة الناشئة • وفي سنة ١٥٥١ ، أهدى مكتبته للجمهور وكانت بداية مكتبتنا العامة • وكانت تلك الكتب من أندر وأجود ما طبع في القرن الخامس عشر • وفي نفس السنة أعلـن هذا الوطني أن الجمهورية هي وريثته ، على شرط أن يستخدم ميراثه في المعهد الذي كان يؤسس أنذاك •

حكـم وولتـر سـكوت
عـلى قصيـدة سـجين شيلون

لم يكن هدف بايرون أن يرسم شخصية خاصة لـ : بونيفار ، بل أن هدف هذه القصيدة ، هو كما في وصف ستيرن التمجيدي للسجن ، أن يعتبر الأسر تجريدياً ، وأن يظهر تأثيره في تعطيل القوى العقلية تدريجياً ، كما أنه يشل القوى الجسدية ويخمدها ، حتى تصير الضحية ذات الحظ السيء ، مثلما صارت شخصية بونيفار ، جزءاً من زنزانتها ، وتتماثل مع قيودها • ولا نشك أن هذا التحول يقوم على الواقع • كان يحدث ذلك في الأراضي المنخفضة ، حيث كانت تفرض العزلة مدى الحياة للعقوبات الرئيسية ، وكانت تشاهد عليها أمثلة كثيرة ، اذ كانت تحضر الضحايا ، التي حكمت بقوانين تدعي أنها انسانية ، في أيام خاصة من السنة ، أمام أعين الناس الى مسرح أليم في ساحة عامة ، ليمنع الجرائم • وقلما شوهد منظر أخزى للانسانية من هذا العرض للمعاقب : شعر متلبد ، نظرات وملامح مضناة ، بعينين مبهورتين بضوء الشمس الذي لم يعد مألوفا للضحية ، وآذان تصم وتصعق بالتحول المفاجىء ، من صمت الزنزانة الى صخب الناس • ثم يقام التمسام فترة كتمثال فج ، مصاغ حسب التقليد الوهمي للبشرية ، أكثر مما

يمثل كائنات حية • ومن المؤكد أن يصبح الضحايا ، على مر الأيام ، أما مجانين ، وأما معتوهين ، اذ أن العقل أو الجسد ، يكون بحسب الحالة السائدة ، عندما يعطل التوازن الخفي الذي يربط بينهما •

ومما يسلم به طوعاً ، أن قوة هذه القصيدة أشد من أن تسر قارءها ، فزنزانة بونيفار ، كما في يوغولين ، موضوع شديد الكآبة ، الى حد يصعب على مقدرات الرسامين أو الشاعر ان يقللوا من رعبها • وطالعها أشد سوءاً من أن يعطي أملا انسانياً ، بله ملاذاً يركن اليه ، وان وصف العذاب ،وان كان الذي يعانيه من أصحاب المواهب والمناقب ، ليعطل القوى تماماً ، ويسلبها اذا ما تراكم • ومع هذا ، فان القصيدة كصورة ، مهما كانت الألوان قاتمة ، يمكن ان تنافس أي صورة من الصور التي رسمها بايرون ، اذ لا يمكن أن تقرأ دون أن تنفذ الى القلب ، وفقاً للصور التي وصف بها الضحية ، التي عاشت ذلك العذاب •

سونيتة ل : شيلون

يا روحَ الفكر المطلق السّرمديّة !
أيتها الحرية ، تالقي في الزنزانات ! فانت هناك ،
لأن مسكنك القلب ـ
القلب الذي لا يقيّده الا حبك وحده ،

عندما ابناؤك في الأسر يقعون ـ
في القيود والأقبية المظلمة يلقون ـ
فانّ بلادهم باستشهادهم تنتصر ،
وسمعةُ الحرية تجد أجنحةً في كلِ ريح •
شيلون ! سجنك مقدس
وارضك الحزينة محراب ، لأن بونيفار قد داسه ،

حتى تركت خطواته نفسها أثراً بالياً ،
كما لو أن رصيفك البارد غدا ترابا •
ليت تلك الآثار لا تمحّى !
لأنها تستغيث بالله من الطغيان !

سجن شيلون

- ١ -

لقد ابيضَّ شعري ، ولكن ليس بفعل السنين ،
لم يحدُث ذلك
في ليلة واحدة ،
مثلما يحدثُ لبعض الناس من خوفٍ مباغت :
واطرافي تقوست ، لا بجهدٍ اقوم به ،
بل صدئت من الاسترخاء الكريه ،
حيث تعاني فساد الزنزانة ،
ومصيري ليس الا مصير أولئك الذين
حرموا من الأرض الواسعة والسماء الفسيحة
وقطع عنهم الزاد ،
لم يكن هذا الا وفاءً بعهد أبي
أن اكابد القيود ، أن أغازل الموت ،
ذلك الأبُ الذي أحرقَ حيا
بعقيدةٍ لم يتخل عنها ،
وللسبب نفسه ألقي خلفه
في قبو لا يرى النور ،
سبعةً كنا آنذاك ـ فصرنا واحداً الآن ،

ستةٌ دون البلوغ ، وفي سنِ الرُشد واحد ،
مثلما بدأوا انتهوا ،
أباة واجهوا غيظ الاضطهاد ،
أحرق حيًا واحدٌ ، في المعركة صُرع اثنان ،
وبالدَّم ختمَ معتقدُهم ،
كما مات آبوهم ماتوا ،
لأن الله من خصومهم تبرّأ ،
وثلاثة أُلقوا في الزنزانة ،
فلم يبقَ منهم أخيرًا إلاّ هذا الحطام •

– ٢ –

سبعةُ أعمدةٍ من الطِّراز القوطي ،
في زنزانات شيلون العميقة المظلمة ،
سبعة أعمدةٍ ، مطحلبة ورمادية ،
معتمة مع بصيصٍ حبيسٍ فاه ،
بصيصُ شمسٍ ضلَّ طريقهَ ،
خلالَ الشقوق والصدوع ،
في الجدران الثخينة وظلّ هناك ،
يزحفُ فوق الأرض الرَّطبة ،
مثل خيطٍ من نور وراءَ سقوطٍ نيزك :
حلقةٌ في كلِ عمود ،
وفي كلِ حلقةٍ سلسلة ،
ذلك الحديدُ ينخر كالسرطان ،
إذ أنّه ترك في أطرافي آثاراً ،
ماظننتُها أن ستمحى ،

حتى فوجئتُ بهذا اليوم الجديد ،
اليوم الذي أوجعَ هذه العيون ،
التي لم ترَ الشمس تشرق
طيلة سنواتٍ لا أستطيعُ عدَّها ،
لأني فقدت عقودها الطويلة والثقيلة ،
لمّا سقط الأخُ الأخيرُ ميتاً ،
وأنا مضطجعٌ حياً إلى جانبه ٠

- ٣ -

كلُّ واحد منّا شدّوه الى عمود حجري ،
كنّا ثلاثة ـ إلا ان كلُّ شخص كان وحدَه ،
خطوة واحدة لا يمكن أن نتحرّك ،
ايٌ منّا لا يستطيع ان يرى وجه الآخر ،
الا بذلك البصيص الشاحب المزرق
الذي جعلنا نبدو غرباءَ في نظر بعضنا بعض ،
ومع أننا معاً في مكانٍ واحدٍ ـ فقد كنّا منفصلين ،
مقيّد والأيدي ، ولكننا بالقلب متواصلون ،
كان لنا بعضُ العزاء ، بالرغم من
ندرته في عناصر الأرض الطبيعيّة ،
ان نسمعَ كلامَ بعضنا بعض ،
ان يلتفتُ أحدُنا الى الآخر مسليّا
بشيء من أمل جديد ، او بخرافة قديمة ،
او بأغنية بطوليّة مشجّعة ،
ولكن حتى هذه الأشياء ابتردَتْ بطول الوقت ٠
أصواتنا اكتسبَت نبرة كئيبة ،

صـدى الزنـزانـة الحجـريـّـة ،
صـوتٌ مـزعـجٌ غـير مليء ولا حـرّ ،
يظنُّ انهـا اعتيـدت أن تـسـمع
من المـاضي السّحيـق ، أمّا بـالنسبـة لـي
فـلا ارى فيهـا مـا يشبـه أصـواتنـا •

– ٤ –

كنت اكبـرُ الثّـلاثـة منّـا ،
وعلـيّ أن اشـدّ عضـدَ الآخـرين ، أن أشجّعهم
عليّ أن أفعـل ذلك ـ وقد فعلت ما استطعت ـ
وكـلّ واحـد فعـلَ بحسب قـدرتـه •
الأصغرُ الذي كانأبي يُحبّه ،
لأنّه وُهب مـلامـحَ وجـه الأم ،
بعينـين كـأصفى مـا تكـون السّمـاء ـ
كـان يُثـير شفقتي على نحـو مـوجـع ،
وبحـق مـا كـانت مكـروبـة
أن ترى مثـلَ هـذا العصفور في مثل هـذا العشّ ،
إذ كـان جميـلاً كـالنّهـار ـ
(يوم كان جمالُ النّهار عندي يعـدل
جمالَه عند أفراخ العقاب ، وهي طليقة) ـ
نهـارٌ قطبيٌ ، لا يشهـدُ غروبَ
شمس حتى انقضـاء فصـل الصّيف ،
صيفٌ غـير نـائـم بضـوءٍ مستمـرّ ،
والثّلـج يكسـو ذريـّـة الشّمس :
ممّـا يجعـلُ النّهـارَ أبهى وأصفى مـا يكـون ،

في مرحه النفسي الطبيعي ،
ودموع لا تغني شيئا بدفع آذى الآخرين ،
تفيض كجدول يتدحرج من جبل ،
ما لم يستطع أن يخفف من الكرب
الذي يمقت أن يستعرضه دونه .

- ٥ -

وكان الآخر انقى ما يكون الفكر ،
إلا انه خلق لمنازلة الاقران ،
قوة في الهيكل ، وفي طبعه
بحيث يبارز العالم ويصمد .
حتى يهلك ، مبتهجا ، في
الصف الأول : ـ ولم يخلق ليهزل في السلاسل :
وان تذوى نفسه بقعقعتها ،
لقد رايتها تنحط صامتة ـ
وانني لأتوقع لنفسي مثل ذلك :
لولا انني كنت احملها على البقاء
لتحي موقف بقية هذا البيت الكريم .
لقد كان صياد التلال ،
يطارد فيها الإيل والذئب ،
وهذه الزنزانة ، بالنسبة اليه ، لم تكن الا هوة ،
وتقييد القدمين آقسى محنة .

- ٦ -

بحيرةُ ليمان تضطجعُ قربَ جدران شيلون :
وترسبُ تحتَها على عمق ألف قدم
مياهُها الضخمة تتجمع وتفترق ،
وحبالُ السِّبر كثيراً ما كانت تُرسلُ
من خلالِ فرجات شرفات حصن شيلون البيضاء ،
الذي يستديرُ من حوله الموجُ المرح :
وقد جعل جدار الزنزانة السَّميك والموجُ
القبرَ المظلمَ الذي نقبعُ فيه
تحتَ سطح البحيرة ـ مثلَ قبرِ الحيّ ،
نسمعُ الموجَ ، يترقرقُ فوق رؤوسنا ، ليلا ونهارا ،
كأنما يقرعُ علينا الأبواب ،
كنت أحسُّ رشاشَ المطر ،
يتسلّل خلالَ الحواجز عندما تعلو الرِّياح
وتُحلّقُ في السماء السعيدة ،
عندئذ يقتربُ الخطرُ المحدق ،
وأشعر أنّه يخيفُ ، غيرَ خائف ،
إذ كنت أستطيعُ أن أبتسمَ ، وأنا أنظرُ الى
الموت ، الذي يمكن أن يخلّصني مما أنا فيه ٠

- ٧ -

سبقَ ان قلت انّ اخي الاقربَ اليّ قد هزل ،
وقلت أنّ قلبَه القوي قد وهن
لقد أبعدَ عنه طعامه مشمئزا ،

ليس لأنّ الطعامُ كـان خشنـا وقـبّـا ،
فقـد تعـوّدنـا أن نـأكـلَ طعـام الصيّـد ،
دون أن نعـيرَ مثـلَ ذلـك أيّ اهتمـام :
الحليبُ الـذي كنا نشربه من العنز الجبليّـة
استُبدِلَ بمـاء الخنـدق من حـول الحصن ،
خبـزُنـا كـانتما عُجنَ بـدمـوع الأسـرى
طـوالَ بضعـة آلاف من السـنين
منـذ أن أخـذ الانسـانُ يزربُ بني جنسه
كمـا تزربُ البهـائـمُ في زرائبَ حديديـة ،
ولكـن مـاذا يعنـي ذلـك لنـا أولـه ؟
وهـذا الـذي يتعرّض للهلاك ليس قلبَه أو جسـدَه ،
انّ نفس أخي كـانت من الطّـراز
الـذي تنشّـأ بعنـايـة في قصر ،
لـم يعـد لهـا مـن الحـريّـة
أن تتـوقّلَ الجبـلَ وراء الهـواء الطّلـق •
ولكن مـا الـذي يدعُوني الى تأخير الحقيقة ؟ لقـد مـات •
وانّي لأنظـرُ اليـه ، ولا استطيـعُ أن أمسِكَ برأسه ،
ولا أن أصلَ يـدَه الميتـة ـ ولا أن أمـوتَ ـ
رغـم انّي حـاولت ، ولكن عبثـا حـاولت ،
أن امـزِقَ ، أن أعضّ وثـاقـي المـزدوج ،
لقـد مـات وانحلّت قيـودُه ،
وبحثـوا لـه قبـرا ضحـلاً
في أرض القبـو البـاردة ،
وقـد رجـوتهم أن يـواروا جثّتـه
تكـرّمـا في أرض يمكنُ أن تشرقَ
عليهـا الشمسُ ـ فكانت فكرةً حمقـاء ،

إنّ قلبَه الـذي ولـد حـراً لا يمكن ،
حتى في الموت ، أن يستريحَ في مثل هذه الزنزانة .
وكـان من الممكن أن أوفرَ على نفسي ذلك التضرعَ اللاّمجدي ــ
فقـد ضحكوا ببرود ، ووسـدوه هنـاك ،
دون أن يرفعـوا فـوق الأرض المستوية التي أحببنـا
فـوقها بعضَنا بعضا ، مـا يـدلُ عـلى قبره ،
وقيـوده التي فرغت التوتْ فـوق الأرض ،
مثـل مـا يخلّفـه القتيـلُ إلى جـانبـه !

- ٨ -

إنّه هو ، الأثيرُ والصفـوة ،
الأكثرُ تـدليـلاً منذ الساعة التي فيها ولد ،
صـورةُ أمـه بـالـوجـه الفـاتن ،
الطفـلُ المحبـوبُ من العـائلـة كلهـا ،
كـان نصبَ عيني أبيـه الشهيـد
ومـوضـعَ اهتمـامي الأخير ، الـذي فكرتُ
أن أوقف عليـه حيـاتي ، حتى أن يكـون أقـلَّ
تعـاسـةً ممّـا هـو فيه الآن ، أن يكـونَ حراً ذات يوم ،
هو الذي ، كَنفسِيَ ، حتى ذلك اليـوم ، الممن
شجـاعـةً طبيعيـة مستمـدة من قـوة خـارقـة ــ
هـو الذي نزل بـه بلاءٌ مفـاجىء ، ويوما بعـد يـوم
كـان يـذوى على سـاريتـه .
آوه ، يا الاهي ! إنّه لشيءٌ مرعب
أن أرى روحـا بشريـة تتخـذُ جنـاحـاً
في أي شكـل ، في أيـة حـالـة :

لقد أبصرتُها تندفع ملطخة بالدم ،
أبصرتُها على موج المحيط المتكسّر
تُصارعُ مرتفعةً بحركة متشنجة ،
لقد شاهدتُ المرضَ والهياه المروِّع
للبَطّاح الآثم بكل مخاوفه ،
موت أولئك كان مرعباً - ولكن موتَ الأخ الأصغر
لم يخالطه ما خالط موت أولئك - فقد كان محتوماً وبطيئاً :
لقد تلاشَى مطمئناً ، كان بالغَ الهدوء والوداعة ،
متّئداً قضى نحبَه ، وضعفُ محبوباً ،
أبداً لم يبكِ ، رغم إنّه حساسٌ ، ولطيف ،
وإنما حزن لمن خلّف وراءه ،
وجنتاه ، طوالَ هذه الفترة ، كانتا متوردتين
كما تكونُ أزهار الضريح التقليدية ،
وألوانُها الخفيفة شيئاً فشيئاً اضمحلّتْ
مثلما ترتحلُ ألوانُ قوسِ قزح ،
حينَ مراقبة ،
كثيراً ما كانت تضيءُ الزنزانة ،
لم يتفوه بكلمة ، ولم
يتأوه على مصيره المبكر ،
كلام قليلٌ عن مستقبلٍ أفضل ،
أملٌ ضئيل لا ينهض في نفسي ،
لقد كنتُ غارقاً في صمت - صمت
بفقد هذا الأخير ، مما هو أشدّ ،
والآهات التي رغبَ أن يكبتَها
وهو في أوهن ما يكون ،
راحت تنسحبُ بطيئةً ، ثم ازدادت وهناً على وهن :

كنتُ أتنصّت ، ولا اطيق أن أسمع ،
صرختُ ، فقد كنت مسعورا بالخوف ،
تيقّنتُ أن لا أملَ ، الاّ أن خوفي
لا يمتُّ الى مثل ذلك ،
لقد صحت ، وخيّل اليّ انّي سمعت صوتا ـ
جذبت قيدي بضربة قوية ،
واندفعتُ باتجاهه : ـ ولكنني لم أجده شيئا ،
بل وجدتُني أتحرك في هذه البقعة السوداء وحسب ،
وكل ما أنا فيه اني حيٌّ فقط ، وأني أجتذب الأنفاس
اللعينة من جو الزنزانة المرطبة ،
إن الحلقةَ الأخيرة ، الوحيدةَ ، المخيفة ،
بيني وبين حافة الأبدية ،
التي تشدُّني إلى بني جنسي الغائب ،
قد تحطّمت في هذا المكان المصيري •
واحدٌ لا يزال فوق الأرض ، وواحدٌ صار تحتها ـ
أخواي ـ كلاهما خمدت أنفاسُه :
أمسكتُ بتلك اليد التي لم تزل منبسطةً هامدة ،
واحزناه ! لقد ارتعدتْ يدي من برودتها ،
ولم أعد أجدُ قوة أحركها ، أو أكافح ،
كلّ ما اشعر به أني حيٌ فقط ـ
وانّه لاحساسٌ مرعب ، أن تُدرك
أنّ ذلك الذي تحبه قد فارق الحياة •

إنّني لا أعرفُ لماذا
لم أستطع أن أموت ،

لم يبقَ لي أمل دنيوي إلا الايمان ،
وذلك ما يمنعُ من موت طائش •

- ٩ -

وبعد هذا وذاك ماذا حدثَ لي

إنني بالضبط لم أعرفْ - اطلاقا لم أعلمْ -

فقد جاء فقدْ النور اولا ، والهواءِ ثانيا ،

والظلام ثالثا :

لم يعد لديّ إدراك ، ولا إحساس - لا شيء -

لقد صرتُ حجراً من تلك الحجارة ،

كنتُ ، وقلما تأكدتُ مما كنت ،

كصخرة ملساءَ بين ضباب ،

إذ أنّ كلّ شيء كان فارغا ، وباردا ، ورماديا ،

لم يكنْ ليلٌ ، ولم يكن نهار ،

بل لم يكن شيء حتى ولا ضوءُ الزنزانة ،

المقيت على بصري الكليل ،

لم يكن الا الفراغ يستغرق الفضاء ،

واستمرارٌ بلا مكان ،

فليس من نجومٍ ، ليس من مكانٍ ، ولا زمان ،

لا توقف ، لا تحرك ، لا صالح ، ولا فاسد ،

الا الصمت ، والنفث الجامد ،

الذي لا يدلُّ على حياةٍ ، ولا يؤكد موتا ،

بحرٌ من العطالة الراكدة ،

أعمى ، بلا حدودٍ ، أبكمُ ، ولا حركة !

- ١٠ -

شيءٌ من ضوءٍ انبثقَ فجأةً في رأسي ، ـ
كـأن زقزقـةَ عصفـور ،
توقّفت ، ثمّ عادت مرّة ثانيـة ،
أعـذبُ أغنيـةٍ سمعتهـا أذن قط
كـانت أذني سعيدة الى حدّ أنّ عينيّ
بكتـا لهـذه الغبطة المباغتة ،
إنهم لا يستطيعون أن يروا في هـذه اللحظة
أني أليفُ تعـاسـة ،
بعدئـذ وبتدريج بطيء رجعتْ
حواسي إلى دربهـا المألوف ،
فأبصرتُ جـدران الزنزانـة وأرضهـا
تُحـدق بي متمهلة كمـا كانت قبـلُ ،
أبصرتُ لمةً من شعاع الشمس
تدبّ في الزنزانة مثلما فعلتْ من قبل ،
فـاذا في الشقّ الذي تسرّبت منـه
ذلك العصفورُ يجثم ، حنوناً وأليفاً ،
وأشـدّ اطمئنانـاً مما لو كـان عـلى شجرة ،
عصفـورٌ فاتـنٌ ، بجناحين لازورديين ،
والأغنيةُ التي قالتْ ألفَ شـيء
بـدت كأنها قالتهـا لي كلّهـا .
إنني لـم أرَ مثلـه قط ،
ومـا رأيتُ ما يشبهه فيمـا بعـدُ :
لقـد لاح أنه مثلي يحتاج إلى رفيـق ،
إلا أنـه ليس بمعزول كليـة ،

وقد جاء ليحيني في وقت
لم يبقَ حيٌّ فيه يُحبني مرة أخرى ،
إنّ تحيته تلك من نافذة زنزانتي ،
قد أرجعتني الى الاحساس والتفكير .
لستُ أدري فيما إذا كان قد أطلق قريباً ،
أو انه قد حطم قفصه ليجثمُ فوق قفصي ،
بل كل ما أعرفه أني أسيرٌ حقاً ،
أيها العصفورُ الجميل ! إنني لا أستطيع أن أتطلع الى مثل جناحيك . !
او إذا كنت زائراً من الفردوس ،
قادماً بهيئة جناحين ،
لأني ـ ولتسامحني السماء على هذا الظن ! في البرهة
التي جعلتني فيها ابكي واضحك معا ـ
فكرتُ أن تكونَ روحَ أخي
هبطتْ عليّ من السماء :
ولم يلبثْ ذلك العصفورُ أن طار ،
وعندئذ أدركتُ أن باطلاً ما فكرت فيه ،
لأن أخي لا يذهبُ هكذا ،
ويتركني وحيداً مرتين ،
وحيداً كجثمان في أكفانه ،
وحيداً كغيمة منفردة ، ـ
غيمةٌ منفردةٌ في نهارٍ مشمس ،
بينما سائرُ السماء صافٍ ،
وهي كعبوسٍ في الجو ،
لا سببَ لوجوده
والسمواتُ كلها زرقاءُ ، والأرضُ مبتهجة .

- ١١ -

نوعٌ من التغييرِ حدثَ في مصيري ،
حرّاسي أخذوا يزدادون رأفـــةً ،
ولا أعرفُ مـا الذي جعلهـم كذلـك ،
فهـم متمرسون برؤيـة المِحَن ،
ولكـن هـذا هـو مـا حـدث : ـ بقي قيدي
الوعـرُ ، حلقــاته حلّت بعضَ الشيء ،
وبلغتُ مـن الحـرية أن أخطـو
في حجرتـي مـن طرفٍ إلى آخـر ،
صعـوداً ونزولاً ، ثـم بالعـرض ،
أن أدوس كل ناحيـة فيهـــا ،
أن أطـوفَ بالأعمدة واحداً بعـدَ الآخـر ،
منتهيـــاً إلى حيثُ بـدأتُ ،
متحاشياً فقط ، وأنـا أطأ الأرضَ ،
قبـريّ أخويّ اللذين بـلا علامـة ،
إذ أخشى إذا ما وضعتُ قدميّ بـلا انتبـاه
أن أنتهكَ حـرمة ذينك القبرين المتواضعين ،
وقـد انطلقتْ أنفاسي كثيفةً لاهثـة ،
وقلبي المجـروحُ سقط أعمى ومريضاً .

- ١٢ -

قدمـي أحدثَ تجويفاً في الجـدار ،
لا بقصـد أن أهـربَ منـه ،
لقـد دفنتُ كـلَّ شـيء
بذلـك الـذي أحبّني بشكـل بشري ،

والأرضُ كلها ، من الآن فصاعداً ، صارتْ لي سجناً واسعاً :
ليس لي من ولـد أو أب أو قـريب ،
ولا شـريكٌ لـي في تعـاستي ،
فكـرتُ في هـذا ، وكنتُ سـعيداً ،
لأن «التفكـيرَ فيـه جعلني مجنونـاً ،
غيرَ أنني ظللت أتطلع إلى الشفق
إلى التوافـذ المحددة ، أن ألقي نظـرةً
واحـدة إلى الجبـال العـاليـة ،
نظـرة مختلسـة مـن عـين متعبة •

-١٣-

لقـد ابصرتها ، إنها عـلى ما كانتْ عليـه ،
لـم تتغيّرْ في الشكل ، كما لم اتغـير انا ،
ابصرتُ قممهـا المكللة بالثلـج منـذ
آلاف السنين – والبحيرةُ الواسعة الممتدة تحتهـا
والرون الأزرق في ريعـانِ فيضانـه ،
وسـمعتُ السـيولَ تقفزُ وتندفـع
فـوق الصخـور المنخورة والشـجر المكسر ،
رأيتُ جدرانَ فيلنـوف البيضـاءَ عـن بعـد ،
والمـراكبُ الناصعـة البياض تتهادى نازلة ،
وجـزيـرةٌ صغـيرة ،
تبتسـمُ في وجهـي ،
صغـيرةٌ في الرؤية فقط ،
جزيرةٌ خضراءُ صغيرةٌ ، هكـذا تظهـر ،
عرضهـا قلما يزيـدُ عن عرض زنزانتي •

إلا أن فيهـا ثلاثَ شجراتٍ طويلـة ،
من فوقهـا يهبُّ نسيمُ الجبـــل ،
ومنهـــا يفيضُ المـــاء ،
وعليهـــا تنمـــو الأزهـــارُ اليـــانعة ،
بأنفاس وشكل لطيف .
الســمك يســبح بجانب جـدران القلعـــة ،
وكله ، مجتمعاً ومتفرقاً ، يبدو مبتهجـاً ،
النســرُ يركبُ الريـــحَ العاصفـــة ،
ظانـــاً أنهـا ليست بأسرعَ منـه ،
يخيلُ إليَّ أنـه إليَّ يطـير ،
فاندفعتْ دموعٌ جديدةٌ إلى عيني ،
شعرتُ بالقلـق ، ولكـم رغبتُ
لـو أنـي بقيت في قيـدي الحـديث ،
ولمـــا انحـــدرتُ إلى الأرض ،
سـقط عليَّ ظـلامُ زنزانتي الـرطب
كحمـلٍ ثقيـل ،
كـانتْ كقبـرٍ حفـرٍ جديـــداً
مطبـق فـوق مـن فكرنـــا بانتقاده ،
ومـع أن تلـكَ النظـرة ، كـانت شديدةَ الغـمّ
فكثيراً ما كـانت تحتـاجُ إلى مثـل هـذه الراحـة .

- ١٤ -

لعلهـا كـانت شهوراً ، أو سنوات ، أو أياماً ،
إنني لـم أحصِها ، ولـم ألقِ بـالاً إليها ،
إذ ليس من أملٍ يوقظُ عينيَّ ،
ويمسـح عنهمـا الغبـارَ المخيف ،

أخيراً ، جاء البشر ليطلقوني ،
لم أسأل لماذا ، ولم أحزر إلى أين ،
لقد استوى عندي ،
أن أظل مقيداً ، أو أن ينطلق سراحي ،
فقد تعلمت أن أحب اليأس ،
وهكذا كنت عندما حضروا آخر الأمر ،
والقيت جانباً كل قيودي ،
وتلك الجدران الثقيلة التي كانت لي
ملاذاً ـ كانت كل ما أملك !
وبعض ما أحسست به لما دخلوا
أنهم أتوا لينتزعوني من بيتي الثاني :
حيث كانت لي صداقة مع العناكب ،
إذ كنت أتأمل طريقتها الرتيب ،
وكنت أرى الفئران تلعب في نور القمر ،
فكيف يكون شعوري أقل من شعورها
ونحن معاً نزلاء مكان واحد ،
وكان لي ، وأنا الملك على كل جنس ،
المقدرة على القتل ـ أجل ، ما أغرب أن أقول هذا !
لقد تعلمنا أن نقيم معاً متوادعين ،
ونميت مع قيودي الحميمة ،
كثيراً من العلاقات المشتركة الطويلة
إذ من شأن شركة طويلة كهذه أن تجعل مناما نحن عليه : ـ
حتى أنني استعدت حريتي بالتنهد *

من الأدب الأمريكي

الحرف القرمزي

قصة: جين ستافورد
ترجمة: ابراهيم عيسى الشهابي

كنت أعرف منذ البداية ان فيرجيل هيد به مس من هوس مجنون ، ولكني لم اكن اعرف انه محتال الا بعد ان فات الأوان حين ورطني في خديعة طريفة كانت ستؤدي الى تغيير مسار حياتي كلها ، أي انني كنت ساقتله فاشنق او اسجن طيلة حياتي .

أصبح فيرجيل زميلي بشكل غير رسمي عندما وضع في مقعدي هدية كبيرة في عيد القديس فالنتين . لقد صدمت بهذه الهدية بادىء الأمر صدمة كبيرة لانها كانت سخرية مهينة صنعها هو بيديه ـ فهي عندما تفتحها تجد على كلا جانبيها مخطط حذاء ضخم كتب تحته « كل رجال الشرطة لهم أقدام ضخمة الا أن قدمي فاندربول قد ضربا فلقة » ووقعها بطريقة لا تدع مجالا للشك بأنه كان يحاول جرح مشاعري . فاحترت بادىء الامر في كيفيـة الرد عليه ، هل أكتب له رسـالة سامة افتتحها بـ « يا عزيزي » أوه ، يا ذا العيون الاربعة » أم اضربه على رأسه بهراوة هندية ؟ ثم اكتشفت أنه كتب الحروف التالية «S. W. A. K.» وهـي الحروف الاولى لعبارة « اختتم بقبلة » . ومن الطبيعي أن تدفعني مثل هـذه التفاهة الى كتابة الرسالة السامة أو الى الانقضاض عليه بالهراوة الهندية . غير أن الذي حدث في ذلك الحين انه لم يكن لي صديق . وبرغم الجهود التي بذلتها مع كل من أعرف ظلت هناك حقيقة مؤلمة هي أني لم أتلق ذلك العام سوى

هدية فيرجيل هذه الا اذا اعتبرت المنديل الورقي المليء بالحلوى البيتية والذي قدمته لي أختي الصغيرة تس هدية . وبالاضافة الى كوني وحيدة في العالم فقد تأثرت بفيرجيل لانه كان ماهرا كالقرد وهو يلعب على القضبان المتوازية (ناهيك عن الطريقة التي كان يسلخ بها القطط) ، كما سمعت أنه حصل في الحادية عشر من عمره على سن الحكمة ، وبدت لي هذه الاشاعة ممكنة لأن والده كان طبيب أسنان . وهكذا قررت لدى تأملي في الأمر ثانية أن فيرجيل خير من لا أحد بغض النظر عن اهانته لي وبالرغم من أنه يلبس نظارات (وهي في نظري وصمة لا يضاهيها عيب في العالم) ، فرميته بنظرة عبر الغرفة . كان ينظر من النافذةمكتئبا يفرقع أصابعه بلحن يشبه صوت مقص الحلاق . ولأجلب انتباهه فرقعت أصابعي بلحن يوافق لحن فرقعة أصابعه ، فالتفت الي وابتسم. كانت ابتسامته جميلة ، ساخرة ، وأحببت أنفه الافطس الانيق والطريقة التي يجعل فيها شعره كحافة النافذة في وسط جبينه . تابعنا المناجاة فيما بيننا حوالي دقيقة ، ثم سمعتنا الأنسة هولدرنس فرفعت رأسها من علبة هدية عيد فالنتين التي كانت تنبشها . وكانت عيناها النزقتان أبدا ترشق جنبات الغرفة بسهام غاضبة وهي تتوعد بصوت غاضب : « لن أتسامح ازاء أي تصرف طائش في عيد فالنتين ولا في غيره . من ذا الذي يحدث مثل تلك الضجة البربرية ؟ » ثم رفعت السوار الورقي الذي يقي اردان ثوبها القطني الرقيق وحملقت . فخيم صمت ثقيل خانق حبس الانفاس ، اذ شعر كل فرد انه متهم ومذنب . وأخيرا بعد أن فشلت في تمييز الوجوه التي تشعر بأنها ملومة اكثر من غيرها استسلمت مهددة: « اذا ما سمعت فرقعة أصابع في الصف ثانية فان الوغد الذي يقوم بذلك العمل سيرسل فورا الى السيد كولبي لينال جزاءه. ألم أقل لكم المرة تلو المرة أن أعمال الطيش لا تناسب الصف السادس ؟ » وكانت الانسة هولدرنس تكره الاطفال وتحب الكلمات القاسية . فذات مرة بعد أن جعلتني أغني سلما موسيقيا وضعت اصبعيها في أذنيها وقالت : « لم أسمع بحياتي نشازا كهذا . حاولي مرة أخرى يا أملي وحاولي الا تزعجي قناة أوستاش في اذني . » ومسايرة لها قرأت القاموس تلك الليلة ، وفي اليوم التالي سألتها عن معنى كلمة رق ولكنها فاقتني

ذكاء ودهاء فهنأتني على فضولي الفكري وطلبت مني أن أعود الى النص المفصل واقرأ التعريف بصوت عال أمام الطلبة . وهنا تملكت الحيرة الجميع بما فيهم الانسة هولدرنس .) فتبادلت النظرات مع فيرجيل وابتسمنا ابتسامة عريضة ساخرة . وعندما عادت الانسة هولدرنس الى الطلبة أخرج فيرجيل لسانه وضغط أنفه بابهامه بطريقة ساخرة . فأفسدت حركاته هذه كل من يجاورونه فدبت الفوضى وانتشرت في الصف قهقهة كالعاصفة . ولحسن الحظ كانت هدايا العيد قد وزعت كلها وقرع الجرس فامرتنا الانسة هولدرنس بالانصراف وأتبعتنا بنظرة حاقدة . وكان في مدرسة اللغة شخصية هزلية ضد المعلمين تتمتع بهيبة كبيرة ، مما جعلني كلما فكرت بهذه الشخصية ازداد ثقة بأنني ساحقق كسبا كبيراً باقتران اسمي بفيرجيل . كانت مكانتي في هذا الوقت متدنية جداً بسبب مشاجراتي العديدة بحيث لم أكن قادرة على رفعها وحدي فبدأت أتطلع فورا الى فيرجيل كمنقذ يمكنه انتشالي من التخزي الذي أنا فيه . ولم يخطر ببالي قط أن ذلك الصبي الخبيث قد وضع خطة بعيدة المدى لتحطيمي .

وعند الانصراف بينما كنا نلبس الخفوف طلب مني فيرجيل أن يصحبني الى البيت مبرهنا بذلك على جدية مقاصده وحسن نواياه . فهززت كتفي وقلت : « اعمل ما يروق لك . فالبلاد حرة . » ربما بدوت لا مبالية بيد أني كنت ملتهبة بذلك الشعور المحير الذي لا يوصف والذي كان يسحق كل الذين توددوا الي مذ كنت في الخامسة من عمري (كنت فتاة مولعة بالمصارعة الهندية ، مدمنة على حلف الايمان ، ولكني كنت سهلة الوقوع في الحب ، وكنت فيما بين فترات الحب سوداوية المزاج متشائمة) فعندما طلب فيرجيل اصطحابي الى البيت شعرت بحنجرتي تسخن وعيني تتوقدان ومعدتي تضطرب ودماغي ينبض كدماغ انغرسول (١) ، وأحسست ببعض عظامي تنفك من مفاصلها . وفيما نحن نغادر باحة المدرسة رآنا جرذ ذو ساقين ، وهو صديق سابق لي ، اذ كان في الواقع سلفا لفيرجيل ، وكنت ذات مرة قد وضعت خطة واياه أن نكبر معا برشاقة وجمال

(١) روبرت جرين (١٨٣٣ ــ ١٨٩٩) محام أمريكي كثير الجدال متوتر الاعصاب .

انه ديكي سكوت ، فزعق قائلا : «الاحمر والاصفر» فليقبل كل زميله ! ستندمان! فاندربول تقع في انشوطة الفخ لقد دار رأسها المجن · فوضع فيرجيل كتبه وعلبة طعامه على الجدار الحجري وقبل أن تقول « سكين » كان قد صنع كتلة من الثلج وضرب ديكي بها على دقنه ضربة جملته يتسمر في مكانه فاتحا فمه دهشةوعاجزا عن التفكير في الانتقام · وصاح عدد من الاطفال الذين كانوا يشهدون هـــذا الفصـــل « أحسنت يا سيـد ! وتدمي أنه زميلك ! » لم يكـن أي من الاطفـال يكره ديكي ويحمل في قلبه أية ضغينة عليه ـ بيد أنه من الضـروري ، بل من الواجب ، في مجتمعنا المتوحش أن يمتدح الذي يقذف الحجر الاول · أما أنا فكنت ممنونة لفيرجيل اذ دافع عن شرفي بهذه السرعة وهذه الشهامة وأحسست بـأن ثقتي بنفسي قد تعززت وكرامتي قد ردت بين المشاهدين · والواقع أن روبي ميللر التي لم تكلمني منذ اسبوعين بعد مشادة كلامية جرت بيني وبينها حول ملكية مفتـاح مزلاج (كان المفتاح لها ولكن كبريائي منعني من الاعتراف بذلك عندما وجدته) جاءت الي قائلة « هل لك أن تحضري حفل عيد ميلادي في الحادي والعشرين من يوليو /تموز/ ؟ أنني سأرتدي جوارب حريرية · »

مشيت وفيرجيل بصمت مطبق · وكنا أحيانا نسير جامدين من غير اتفاق مسطوق ، واحيانا نخرج عن الطريق لنغوص في الثلج حتى الركب · واخيرا بدأنا نقفز قفزات واسعة من شق الى شق في الطريق الجانبي · لم يكن أحد في بيتنا، وكنت مسرورة لذلك لأنني أردت أن يتم لقاؤنا الاول دون تدخل أمي (التي كانت تتحامل على الاطفال تحاملا جنونيا لاعتقادها بأنهم يحبون أن توجه اليهم أسئلة كهذه · هل اتخذ أهلك الجسر الجديد الذي يحظى باقبال الناس جميعا؟» أو « ما رأي أمك بالاقلاع عن الذهاب الى دينفر بالمواصلات الداخلية والباصات؟») أو دون تدخل جاك أوستيلا اللذين يحبان استثارتي بالتعليق على من يتوددون الي · قدمت الى فيرجيل شطيرة من الزبدة والمخلل وصلصـة المايونيز ، وقال فيرجيل انهـا لأشهى من وجبة فراريـج محمرة · فطلبت منه أن يتناول المـزيد ـ فهذه هي الشطيرة المألوفة التي تقدم بعد الانصراف من المدرسة في كل بيت من حي آدمز منذ أن وجدت فيه ـ لكنه قال انه لم يأكل شطيرة كهذه مـــن قبل ،

وتساءل ان كان يستطيع الحصول على واحدة أخرى . « معذرة عن الحياة يا فتاتي ، هل لي بثانية ؟ » وكان يفتتح كلامه دائما بعبارة « معذرة عن الحياة ... » ورغم عدم فهمي لها فقد بدت لي رياضية مرحة ، وسرعان ما أشعتها في أسرتي . وبعد انتهائنا من الطعام ذهبنا الى غرفة المعيشة وبدأفيرجيل يطرح علي بعض الاحاجي التي تعلمها من والده الذي كان محبوبا جدا باعتباره عضوا في الفرقة الكوميدية التي تقدم عروضها في جمعية البر والاحسان. واحدى هذه الاحجيات : « ما هو الاسود والابيض وكله احمر ؟ » لم يكن الجواب بالطبع « الصحيفة » بل « حمار وحش محمرا خجلا » وأحجية أخرى : « لماذا يبلغ طول يد تمثال الحرية احدى عشرة بوصة ؟ » والجواب هو « لو كان طولها اثنتا عشرة بوصة لاصبحت قدماً » وعلمني العديد من الحوارات التي يجريها السيدتامبو والسيد بونز ، وقررنا عندما يتحسن الجو ويصبح أكثر دفئا القيام بعرض في مرآب والده . وقال ان لدى والده آخر مجموعة تجميل ــ مواد ماكياج ، انوف كاذبة ، سوالف مضحكة . ثم تحدثنا عم سنفعله عندما نكبر ، وكان توافقنا رومانسيا أن تكون أمنيتي أن أصبح عازفة أورغون في دار سينما، وأمنية فيرجيل أن يصبح حاجبا في نفس الدار ووضعنا خطة لمتابعة حرفتنا في مدينة كبيرة مثل أوماها أو شيكاغو . وكان بيني وبين فيرجيل أمور مشتركة كثيرة ، فكلانا يمشي في نومه ، وكثيرا ما كنا نمشي حتى نكاد نقع من النافذة أو نتدحرج على السلم ، وكلانا يحب الاحاجي والالغاز ولعب الورق ، أما الشيئان الوحيدان اللذان كنا نكرههما معا هما دروس يوم الأحد الدينية ، ووظائف الجغرافيا . ثم قال هذا الصبي الفصيح الصريح . « لتسقط صادرات ملايواركيبيلاجو الرئيسية من المواد الخام. ولتسقط الغوتا بيرشا(٢) ــ لاتحمليني أنفجر ضحكاً . «فقلت لمقلدة الانسة هولدرتس » أخبر الصف بكل ما تعرفه عن الهوتنتوت . » فنهض فيرجيل ووقف على رأسه واضعا قدميه على الجدار ، وقال وهو في هذا الوضع المقلوب :

---

(٢) مادة شبيهة بالمطاط تستخرج من بعض الاشجار الماليزية .

«يأكل الهوتنتوت الفوتايرشا من مخال فوتايرشية ويعلمون جداتهم كيفيشرقون البيض » »

دخل في هذه اللحظة الكلب « ريدي » ونظر طويلا الى فيرجيل ثم تثاءب وخرج ، ثم دخلت القطة « مف » لتلقي نظرة عاطفة على فيرجيل . فعدل فيرجيل نفسه ولوح بيديه بجنون مهددا « مف » التي خرجت من الغرفة متهادية ملوحة بذيلها اشمئزازا . وقال فيرجيل معلقا « لا اكره في الدنيا أكثر من أن ينظر اليّ حيوان بفضول . وخاصة الأبقار . معذرة عن الحياة ، فاذا نظرت اليّ بقرة لكمتها على أنفها . وتابع حديثه واصفا كيف يثبت زعامته التي لا تنازع عندما يقوم بزيارة لمزرعة الماشية الخاصة بعمه في المنحدر الغربي ، وكيف أنه حشر بقرة اسمها هيلدى في الزريبة أكثر من مرة ، وكيف لقن جحشا كان ينظر اليه نظرة بلهاء درسا لن ينساه . فانتابتني قشعريرة اذ تخيلت هذا المصارع وهو يزرع المراعي بلكم الأبقار التي تنظر اليه . وعندما قال « أنا الرجل الوحيد الذي يستطيع اخراج حمير السيد هودج عن طورها واطعام نواظرها » شعرت بالاعجاب يغمرني فقلت « أيها الصبي ، لم أسمع قط برجل قادر على ذلك سواك» فوعد بأن يأخذني في أقرب فرصة الى كوخ السيد هودج الذي يعج بالجرذان والواقع على الهضبة ليريني كيف يجعل الجحاش « ترى النجوم بدلا من أن تراني » . كنت في الواقع أحب تلك الحيوانات ، وخاصة پرل وبرنس . وكنت كلماوفرت وجاك ربع دولار نستأجرهما من السيد هودج ونركبهما ونطوف بهما المدينة . والآن في غمرة الذهول الاعمى قبلت دعوة فيرجيل لارى كيف يسيء معاملتهما.

قام فيرجيل يستطلع غرفة المعيشة فرأى الانجيل على طاولة المكتبة فامسكه ثم أخذ يتفحص سيف الحرب الأهلية الذي كان ملكاً لأحد أقربائي لأمي ، فاستله من غمده ورازه ثم قال : « سينفعنا يوماً . » صمت قليلا ثم أردف : « معذرة عن الحياة يا فتاتي ، هل لي بتناول شطيرة أخرى من تلك الشطائر اللذيذة الحادة ؟ » وبينا هو يأكل الشطيرة قدم الكلب ريدي من المطبخ وبدأ يرقبه بعينين جائعتين وقلب كسير ، لكن فيرجيل صفعه على أنفه قائلا :

« لقد سمعتني أيها الوغد الذي لا خير فيــــه · اياك أن تنظر الي والى شطيرتي بعينيك المتدحرجتين · » فبدا ريدي ، أكثر المخلوقات وداعة في العالم ، وكأنه سيبكي · وعندما ضحكت، متحلية بذلك عنكلبي الجميل بسبب حبي لهذا الزميل المشاغب ، انكمش الكلب وانسل خارجا من الغرفة مهيض الجانب وقضى تلك الامسية مضطجعا تحت خزانة الاواني الصينية في غرفة الطعام واضعاً رأسه بين يديــــه ·

اعتذر فيرجيل عن الحياة المرة تلو المرة وطلب المزيد من الشطائر · وبعد أن شبع في النهاية عدنا الى غرفة المعيشة حيث قص علي حكاية حزينــــة تشرح السبب الذي جعله جائعا هكذا · قال انهم لا يملكون في البيت شيئا يؤكل سوى الفطائر · فأمه تصنع منها الملايين يوم الاحد ،حيث تكفي لاسبوع كامل · وعليهم أن يفطروا يوميا من هذه الفطائر مع شراب القيقب وتسميها أمــــه « فطائر محمصة » وفي العشاء تقدم لهم فطائر مطلية بصلصة البندورة وتسميها«فطائر باللحم » أو « فطائر مشوية » ناهيك بالفطائر المحبية التي تحشوها بالسلمون والبازلاء ، انها مريعــــة · وقال ان أمــــه معجبــــة بطعــــام أحد المصحات بالمدينة · لا يصنعون فيها طعاما الا من حبوب ويقدمون لمرضاهم المخبولين قائمة طويلة مذهلة بأسماء أطعمة مثل « كستليتة العنب » و « شرائح القمح » · وكانت أمه بين الفينة والاخرى تأكل من هذا الطعام في المصحة هذه مع احدى صديقات جدته · فتكونت لدي فكرة سيئة عن السيدة ميد فتصورتها مريضة وعلى درجة من القسوة والظلم بحيث تفرض على جميع أسرتها نظامها الغذائي الخاص بها· ولكني تبينت بعد هنيهة كذب رواية فيرجيل عندما ادعى أن سبب اقتصار الطعام عندهم على الفطائر هو انشغال أمه في الخفافيش التي تملكهــــا في برج جرس الكنيسة · فهي تقضي كل وقتها تجمع جرار القشدة الباردة من الازقة ومن على المزبلة لتحبس فيها خفافيشها وتحكم سدها وترسلها الى أختها التوأم العالــة داندليون في مدينة بواسيه · هل كان يظنني بلهاء حقا لاصدق وجود مثل هذا الاسم ؟! وهذا ما أعنيه بأن فيرجيل به مس من جنون · فقد أخبرني مرة أن مجرما هاربا من مدينة كانن اسمه « بن اللحية الحمراء » قد اختطفه ، وقال

ان هذا المجرم الذي قتل المئات واقعد عديدين آخرين بمسدسه قد قيد يديه وأخذه الى كوخ في الجبل وأبقاه هناك ثلاثة أيام • وفي اليوم الثالث بعد أن غط المجرم في النوم استطاع فيرجيل أن يزحف الى مكان الخضار ، وأكل ثلاثة من رؤوس الثوم الكبيرة، ثم عاد زاحفاً الى حيث يرقد ذو اللحية الحمراء شاخراً وبدأ يتنفس في وجهه حتى ضج المختطف برائحة نفس فيرجيل الكريهة ففك قيده وأطلق سراحه • فعاد الى البيت ماشياً في الظلام قاطعاً مسافة اثنين وعشرين ميلا في ليلة قارسة وصلت فيها درجة الحرارة الى (١٧) تحت الصفر • وعندما سألته لماذا لم يرسل أهله من يبحث عنه قال ، « من عادتي أن أخرج ثلاثة او اربعة أيام دفعة واحدة دون علمهم فلا يأبهون أعني انهم اذا ما ابدوا اهتماماً بالامر اخبرهم الى أين يذهبون - اذهب لصيد الغزلان كما ترين ، ففي السنة الماضية اصطدت غزالا عند نهر الجليد ولكني أعطيته لمهربين أعرفهم • وبين الحين والاخر استقل القطار الى دينفر وانزل في شارع لاديمير العب البليارد ليومين أو ثلاثة • »

غادر فيرجيل المنزل قبل أن يعود أحد بزمن طويل غير ان اثاره كانت بادية هنا وهناك • فقد ترك طبعة قدميه على الجدار الابيض عندما وقف على رأسه ، وما زال الكلب ريدي مقعيا مكانه حزينا مما جعل أمي تعتقد أنه مريض وأوشكت على استدعاء الطبيب البيطري •

من الطبيعي الا احتمل اللوم على ذلك كله وكان علي أن اكشف حقيقة الامر • فعندما أعلمت أمي بسبب حزن ريدي صدمت بادىء الامر صدمة عقدت لسانها ، ولكنها قالت بعدئذ بهدوء ظاهر التكلف : « يا أملي ، لن يكون في هذه الصداقة خير • هل فهمت كلماتي ؟ » ليتني فهمت • حاولت اصلاح الامر مع ريدي ولكن جاك كشر قائلا : « ابتعدي عنه • » أما ستيلا فقد بكت متوسلة الى أمها أن تبعدني الى مكان ما يحول دون رؤيتي لمثل هذا الخسيس الذي يعذب خير صديق للانسان •

لقد نلت جزائي ، بيد أنه لم يكن في نيتي التخلي عن فيرجيل • لذلك

أصبحنا نأكل الشطائر في بيته • وكانت الشطائر كشطائرنا من زبدة ومخلل ومايونيز ـ ولم ألحظ أبدا في بيته فطيرة من التي حدثتني عنها ، بالاضافة الى أن رائحة مطبخ أمه كانت شهية • كنت محقة في شيء واحد هو أنه بالرغم من رثاء أهلي لتحالفي مع فيرجيل فان بقية الاطفال كانوا ينظرون اليه بعين الحسد اذ كنا دائماً نتهامس ونتبادل الرسائل في المدرسة ، وكنا نرفض اللعب أو حتى التحدث مع أي شخص اخر ، فمثلا عرض علي ديكي سكوت ذات يوم سهمية (١) كهدية فرفضتها باباء ـ كان من المحتمل أن أقبلها لولا أن ديكي ذاته أخبرني صدفة وبغباء انها زائفة •

وكنت أجتمع بفيرجيل مساء كل يوم ما عدا أيام الباليه ، وكنا أحيانا نتزلج وأحياناً نكتب قوائم (بأنواع السيارات ، أو بالكلمات المؤلفة من ثلاثة حروف أو بالافلام التي شاهدناها •) ولكن في أكثر الاحيان كنا نجلس في غرفة والده نتجاذب أطراف الحديث • لقد أحببت هذه الغرفة الصغيرة المزدحمة والتي تفوح منها رائحة السجائر ودهان الاثاث وتمنيت لو كان لوالدي غرفة كهذه • وكانت تتدلى على الجدران كل أنواع الوثائق والدبلومات وشهادات العضوية في جمعية أطباء الاسنان والجمعيات الاجتماعية والدينية • وكان فيها عباءة من النوع الذي يلبسه الامريكان الاسبان وعليها طائر وافعى ، وكان فيها فأس هندية ومجموعة من المعادن ولباس رأس هندي ادعى فيرجيل انه كان للملك فيليب • وعلى المقعد ذي الغطاء السحاب والطاقات المحشوة حشوا لم تعد تتسع بعده لشيء • آلة كاتبة ضخمة لها ثمانية صفوف : ثلاثة للحروف العليا وثلاثة للحروف السفلى وصفان للعلامات • وعندما كنا نستعملها (نكتب أسماءنا ، ونكتب فلتسقط الانسة هولدرنس) كان صوتها كصوت جرار صغير وجرسها كجرس سيارة الترولي • وأثناء جلوسنا على الكنبات الجلدية كان كلب فيرجيل، وهو صوت سيده ، يرمقنا باستمرار وهو يرقد على فرو من جلد غزال • بحثنا مشاريعنا العديدة . فقد خططنا لرحلة في الصيف في عربة تقودها الخيول الى

(١) نوع من النبات

منجم يعرف فيرجيل أن كمية من القطع النقدية مدفونة فيه • وتطلب ذلك اعداد قائمة بالاشياء التي سنأخذها ، وكتبنا طلبا مطولا الى مخزن مونتغمري ــ وقال فيرجيل لا بد من تدبير المبلغ اللازم لتغطية هذا الطلب بأي شكل • ثم كان أمامنا أيضا عرض المنشدين الذي سنشارك فيه ، فكان علينا أن نحفظ أدوارنا •

أما الخطة الاكثر الحاحا والتي كان علينا بحثها واعدادها في الحال فهي كتابة عريضة ضد وظائف الجغرافيا التي حطمت حياتنا وحياة كل تلميذ في الصف السادس ، فقد قامت الانسة هولدرنس وعجائز أخريات بجولة حول العالم قبل ثلاثة آلاف سنة على الأقل وما زالت تتباهى بحقول الرز وعربات الجنريكيشا اليابانية واليانغتشي وساعة بج بن • وكانت دائماً توزع علينا بطاقات عليها صور الجمال والمصائد النرويجية ومتحف فكتوريا والبرت ، وترينا كذلك زجاجة صغيرة فيها ماء من نهر الاردن ، وترينا حصاة عادية أتت بها من مكان مجاور لتاج محل - وفي كل ليلة مباركة من ليالي الدنيا كان علينا أن نحفظ شيئاًمن الجغرافيا غبيا ــ كالانهار الرئيسية في آسيا، وعواصم جزر اليونان ، والسلاسل الجبلية في أوربا ، والنصب التذكارية المشهورة في روما ــ وفي اليوم التالي تقوم الانسة هولدرنس باختبارنا كتابيا او شفهيا باخراج طفل مسكين ليسمع الدرس أمام الطلبة ، وحيل الي والى فيرجيل أن هذا الطفل المسكين لن يتعدانا نحن الاثنين • وكان علينا أن نصنع خرائط طبيعية من طحين وملح • وفي مساء كل يوم جمعة أثناء الحصة الاخيرة عندما نكون قد جننا مللا وتململا تطلب الينا أن نرسم خريطة للولايات المتحدة من الذاكرة • ورغم ذلك فانني لا أعرف حتى هذا اليوم أين تقع ديلاوار ، هل هي على يمين ماري لاند أم على يسارها ، ولم أستطع حتى الآن ايجاد مكان لفيرمونت • ولتقل أن عقلي ضيقاً ومحدوداً •

وفي احدى أمسيات يوم الجمعة طلبت الينا أننحفظ جميع محافظاتانكلترا حتى يوم الاحد • فقررت وفيرجيل أن الكيل قد طفح وان ساعة العمل قد دقت• وكنت قد صممت الخروج على العادة ذاك المساء والانصراف الى البيت مباشرة لانني ربحت صبيحة ذلك اليوم في اجتماع عام حرفا مدرسياً كجائزة لي على

القراءة الاضافية ، وعزمت على اخاطته على ردن ثوبي الميدي فور وصولي الى البيت ، غير أن فيرجيل قال : « معذرة عن الحياة يا فتاتي ، الا تشعرين مع الصف ؟ هل تعلمين أن تفاهة الجغرافيا هذه ستبقينا في الصف السادس ثماني سنوات أخرى ؟ » وقال انه ليس لدينا وقت نضيعه ، فقد افقدتنا الانسة هولدرنس صوابنا (ألم أسمع الصف كله يئن ؟) ولهذا لن نجد صعوبة في الحصول على تواقيعهم على عريضتنا • اذن يجب أن نكتبها هذا المساء ونقضي يوم غد نطوف من بيت الى بيت نجمع التواقيع • وأردف قائلا : « بالحبر » فهي عريضة رسمية ليس حولها « اذا » ولا (لكن) • وهكذا صحبته الى بيته منقادة له كعادتي •

ولا بد لي هنا من ذكر شيء لا علاقة له بثورة الصف السادس في كارليل هل بل لأبين مدى المقتومية التي يقدر عليها فيرجيل • عندما وصلنا بيته لم تكن أمه هناك، وكان عليه أن يعد الشطائر بنفسه، ولما لم يجد زبدة الفول السوداني طلب الي الا أنظر لأنه سيقدم لي مفاجأة • وقدم لي في الواقع مفاجأة هي أنه صنع الشطائر من شوربة خضار الكامبل ، نعم من شوربة الخضـار ، ولا أمزح • أكلت الشطائر ولم أعرف أبدا مم صنعت • لم يكن طعمها سيئا ولكنه مضحك، لذا استدرت خلسة ورفعت الشريحة العلوية من الخبز فوجدت فيها فاصولياء • ثم رأيت العلبة الفارغة على الرف •

وبعد تناول الشطائر وانتهائنا من لعبة شامستاسام نزلنا الى غرفة والده لنعمل • كان من بين شهادات الدكتور ميد المبروزة شهادة منح أرض واسعة لعم فيرجيل الاكبر موقعة من ابراهام لنكولن • وقال فيرجيل بعد أن أنزلها وسلمني اياها انها تساوي بضعة ملايين من الدولارات • (ولو كانت قيمة الاشياء في بيت ميد هي ما أعطاهـا لها فيرجيـل لكان بامكـان الدكتـور ميد أن يتقاعـد ويشتري تي • بوت دوم •) وتابع فيرجيل قوله بأننا سوف نستخدم هذه الشهادة نموذجا لعريضتنا لأن فيها نغمة القوة والعظمة، ونحن من الان فصاعدا أقوياء وعظماء• وبدأ فيرجيل يطبع على الآلة الكاتبة وأنا أملي عليه شارحة شهادة منح الارض• وكان عملنا مرهقاً اذ كان كل حرف يلتصـق بالاسطوانة وكان حرف S لا ينطبع

أبدا مما جعلنا نحيره فيما بعد · ولكننا ارتحنا للنتائج بعد انجاز مهمتنا رغم وجود أخطاء كثيرة · وكان نص العريضة ، بل الاعلان ، كالآتي .

الصف السادس من مدرسة آدمز في كارليل هل
الى كل من ستؤول اليهم هذه الهبات
حيث انه يوجد لمادة الجغرافيا أعداء
قد صدر في الثاني من آذار عام ١٩٢٦
قانون يوقف وظائف الجغرافيا ·
والموقعون أدناه لن يقوموا بعد الان
بتنفيذ اية وظيفة من وظائف الجغرافيا
لأنه ليس من العدل أن تعطى بمثل هذه الكثرة ·

وتركنا هنا فراغا للتوقيع ، ثم كتبنا :

والآن ، الآن ، يمنحكم المشرف العام لهذا الصف
الحق المذيل بالتواقيع في ان « لا وظائف جغرافيا بعد الآن »
ويسري مفعول هذا الحق الموصوف اعلاه على ورثتكم
مع كل ما يترتب على ذلك من حقوق ·
وبناء عليه أنا   قد جعلت هذه الاحرف
حقا مسجلا وذيلتها بتوقيعي ·

وكان بعد عبارة « وبناء عليه أنا ····· اسم ابراهام لنكولن ، فتجادلنا حول ما سنكتب مكانه · وتوصلنا الى أنه من الخطأ كتابة كلمة « نحن » والتوقيع باسمينا · وأخيرا قال فيرجيل بشهامة ، « لا بد أن يوضع اسمك فقط لأنك حصلت على حرف مدرسي مما يعطيك مكانة لا أملكها أنا ·» وقال ، « لا بد أن تسلمي العريضة بنفسك الى الآنسة هولدرتس · » وأقترح ان أحمل معي سيف الحرب الاهلية لا لأخيف الآنسة ولكن لأجسد فكرة الأهلية ، كما رفض أسفاً

استخدام لباس الرأس الخاص بالملك فيليب باعتباره غير مناسب لزماننا • ثم قال « ولد ، يا ولد ، هل أرى فيك « براون فيس » وأنت تدخلين الغرفة متقلدة سيفا وتتقدمين من الآنسة قائلة « مدام ، اسمحي لي أن اقدم لك هذه الهدية وتسلميها العريضة ! »

تسللت ومضة خوف الى عقلي المخبول فقلت له « وماذا سيحدث لوأرسلتني الى السيد كولبي وطردت من المدرسة ؟ » فرد بحزم « سترسل اذن كل الصف • ستكون العريضة مذيلة بتواقيعهم جميعاً • معذرة عن الحياة يا فتاتي ، انك لن تجيبي مهما كانت الظروف ، والا فأنت تعرفين احساسي نحو الجبناء • فانا لا أرغب في خوض معركة حامية مع جبان • فاحمر وجهي خجلا وقلت على الفور اني لم أكن خائفة بالطبع ، فما الذي أخشاه ؟ فكما قال فيرجيل اذا ما أرسل شخص الى السيد كولبي فلسوف نذهب جميعا • وعلى أية حال ليس للانسة هولدرنس حق في معاقبتنا طالما تحمينا حرية الكلام • وبعد أن طمأنني فيرجيل واكد أن لي قلباً كبيراً ، ابتسم ابتسامته العوجاء وبدأ يتصفح العريضة مضيفاً حروف الـ (S) والـ (O) المحذوفة • وبعد انتهائه من ذلك ناولني ريشة الكتابة وقال « ضعي توقيعك (جون هانكوك) (١) هنا على السطر المنقط • » وعندما وقعت مرت الريشة على الورقة مرتين فرسمت فوق توقيعي شكلا يشبه سحابة ماطرة ، فشعرت بالذعر والاهتزاز بآن واحد ، وشعرت في معدتي باحساس من الفرحة والخوف • لم أكن متاكدة من أن حرية الكلام ستغطي عماننا وتحميه، ولم أكن متاكدة من أن عريضة كهذه لم تكن مخالفة للقانون • ولكي أطرد من ذهني أية هواجس تتعلق بنتائج مغامرتنا أخرجت حرفي الأحمر C من حقيبة الكتب ووضعته على ردني • فقال فيرجيل « اسمعي يا املي ، أتعرفين ••• ؟ لم لا تخيطي هذا الحرف في مكان مختلف من المكان المالوف ؟ فلتكوني مختلفة عن العامة ؟ » فقلت له « مثلا ، على ظهري ؟ كالمصارعة ؟ » فأجاب « لا • كنت أفكر في شيء كالجوارب • نعم على جوربك • » فتساءلت بدهشة على جوربي ؟ ! هل جننت ؟ » بيد أني حبذت الفكرة رغم استغرابي لها ووضعت الحرف على سبيل

(١) أحد رجالات الدولة الثوريين في أمريكا (١٧٣٧ ـ ١٧٩٣)

التجربة على الجانب الخارجي من ساقي اليمنى في منتصف الساق • وبدا لون الحرف أحمر صارخا على أرضية جوربي البحري الازرق الذي يصل حتى الركبة، فبدا الحرف كعلامة مميزة لقطيع من البقر • فقال فيرجيل منتقدا « أعلى •••• أيوه ••• هناك تماما • أيه ••• ذلك هو المكان المناسب • »

ثم بدأت أشك في الأمر عندما أمعنت النظر في موضع الحرف ، اذ تبين لي انه سيكون أكثر وضوحا وبروزا عـــلى ردني • ولكن فيرجيل تحداني واستقر الرأي على الموضع الذي اختاره • ذهبت الى البيت وأخطت الحرف القرمزي على جوربي • وعنـدما دخلت ذلـك المساء غرفـة الطعـام ورآني أهلي احتجوا عليّ احتجاجا صارخا • فقالت أمي وقد كانت نشيطة في لجنة الآباء والمعلمين « ماذا يا املي ؟ هل تعتقدين انك جئت أمرا حسنا في حين تلطفت الانسة هولدرنس وقدمت لك ذلك الحرف ؟ » فتساءلت هازئة « أكانت الآنسة هولدرنس لطيفـة ؟! ما علاقة تلك العجوز الشمطاء بهذا ؟ أعتقد أنها قرأت كل تلك الكتب وكتبت كل تلك التقارير • ولتعلموا أني حصلت على هذا الحرف بجهدي • وعلى آية حال ، المدرسة هي التي منحتني اياه • »

فردت أمي متجاوزة النقطة التي أثرتها كعادتهـــا « حسنا اذن ، كانت المدرسة قد تلطفت ومنحتك هذا الحرف • ولكن يا أملي لم أنت دائماً مشاكسة ؟ » فأجاب جاك الذي بدأ يوبخني منذ أزعج فيرجيل الكلب ريدي « لأنها غنمة سـوداء نذلة حقيرة • » فعلقت تس بصوتها الشبيه بصوت القطة مقلدة صوت الغنم « باء ••• باء ••• غنمـة سوداء ••• أملي غنمة سـوداء ••• » وعادت تبقبـق في الحليب الذي كانت تشربه • فانتهرتها قائلة « اطبقي فمك أيتها التؤلولة الصغيرة القـذرة • » فارتعبت وسكتت • وقالت سـتيلا المنافقة والتي تقف دائمـاً مع القوي « الآنسـة هولدرنس ليست عجوزاً شمطاء • انهـا سيدة ، ولن تكوني مثلها ولو بعد مليون سنة •» فرددت بقرف « سيدة ! ومن قال أني ساكون سيدة، ومثلها؟ لقد جعلتني أتقزز• » وأصدرت صوت تقيؤ ثم قلت «أسرع ياجيسون(٢)، أحضر الطشت • هيا • لقد تأخرت • هات الممسحة •»

(٢) خادم

فوضع والدي منديل المائدة ونظر الي وقد برزت ذقنه الى الامام وقال غاضبا « والان أصغ الي يا املي فاندربول - كفانا ما عملت من خدع • لا أريد أن أسمع شتائم وأنا أجلس على مائدة العشاء ، ولا أريد مشاحنات • أنا رجل كادح وعندما أعود الى البيت أكون متعبا وأحتاج الى الراحة والسلام والهدوء بدلا من هذا الازعاج الفوضوي الذي تثيرينه باستمرار •»

اغرورقت عيناي بالدموع بسبب الهجمة الظالمة التي شنها علي والدي- فهل هناك في تاريخ العالم من أسيء فهمه بهذا الشكل المحزن مثلما أسيء فهمي أنا ؟ ثم قلت بصوت متهدج « أنا لم أبدأ هـذا الازعاج • هم كلهـم بدأوا يتهجمون علي فيما يخصني شخصيا • فالى جهنم • »

فنهض والدي من كرسيه مهددا وصارخا « ماذا قلت عـن الشتائم ؟ » ازرق وجهي غضبا واتسعت عيناي وانطبقت قبضتاي وسيطر الشيطـان عـلى لساني فانطلق يابذأ لغة سوقية يمكن أن يتصورها انسان محقرة كل من كان يجلس الى المائدة وكل المعلمين والمعلمات في كارليل هل ، وأعمامـي وعماتـي وأبناء أعمامي ، والقاضي باي ، أخلص أصدقاء أبي • أما رد الفعل فكان كرد الفعل المألوف على نوبات غضبي : صمت مروع ، جامـد ، مطبق • وبعد أن انتهيت قال جاك مرتعبا « يا باي ــ كي ــ بيي ! شيء رائع ! » فالقيت بكأس الماء التي كانت أمامي في وجهه وخرجت من الغرفة أضرب الأرض بقدمي ضرباً •

كانت تلك المباراة آخر ما قيل حول حرفي المدرسي • وعندمـا دخلت ستيلا الغرفة التي أشاركها اياها تألمت جدا اذ وجدت اني فرضت عليها الاجتياز خط الطباشير الذي رسمته في منتصف الغرفة قاسمة اياهـا فيما بيننا ، وألا تكلمني • ولو كلمتني كلمة واحدة لسلخت جلدها عن جسمها •

وفي اليوم التالي أدت عاصفة ثلجية عنيفة الى تعويق جولتي وفيرجيل من بيت الى بيت لجمع التواقيع على العريضة ، ذلك لان معظم الناس سيتواجدون في بيوتهم بسبب العاصفة التي جعلت الجو مكربا • وهـذا يعني أننا سنجد كل الذين نريدهم (وانهم سيتبرمون بطول بقائنا بحيث سيبتهجون لرحيلتـا)

ويعني كذلك تواجد عدد كبير من الامهات اللائي يحشرن أنوفهن فيستفسرن عن مهمتنا وعن طبيعة الورقة التي معنا ، ويحاولن ابعادنا عن مهمتنا بدعوتنا الى المشاركة بعمل البشار والتالي (شراب مسكر) • لم تكن تحترم ذكاء هؤلاء المتطفلات كثيرا ولكننا لم نشأ المجازفة بالافصاح عن غايتنا خشية أن تذهب احداهن الى الآنسة هولدرنس فتفرط المسبحة • لذا كان علينا أن نطيل إقامتنا في بعض البيوت قليلا ونتظاهر بأننا نقوم بزيارة اجتماعية لا غير • فمكثنامثلا في بيت فاليري بيميس حوالي ساعة وأمها تريها مناظر بلوستون وجراندكانيون بالفانوس السحري •

ومما أدهشنا كثيراً وخيب أملنا اكتشافنا أن العديد من أبناء صفنا هم من أنصار الآنسة هولدرنس (فايستيل مثلا قالت انها تحب معلمتنا لأن رائحتها زكية) وأكثر من ذلك ، تبين لنا أن الهلع من وظائف الجغرافيا ليس عاما • ووجدنا في الواقع ستة أو سبعة أغبياء ادعوا محبة مادة الجغرافيا أكثر من أي مادة أخرى ورفضوا توقيع العريضة • وهناك من رفض التوقيع لسبب آخرمثل روي ميللر التي اعترفت بأنها تتفق معنا ولكنها حفظت أسماء المحافظات الانجليزية فلا تريد أن تضيع جهدها هباء • لقد أزعجنا هذا الانقسام ولكن الامر سيان اذ استطعنا في آخر النهار الحصول على أكثرية من سبعة عشر اسما• وعندما غادرنا آخر بيت كان الظلام قد خيم ومصابيح الشوارع قد أضيئت • وتحت ضوء أحد المصابيح قرب صندوقبريد وقفنا في الثلج العاصف حيث وضع فيرجيل العريضة بوقار في مغلف طويل وناولني اياه بوقار وقال برزانة «معذرة عن الحياة يا فتاتي ، ربما يدخلنا هذا الى قامة الشهرة •• حظ سعيد • قالهذا وانطلق نحو بيته يحاذيه ظله الطويل والرفيع بشكل درامي •

وعندما اصطف تلاميذ الصف السادس صبيحة يوم الاثنين كان يتشاهم اضطراب كبير خفي وكان كل فرد ينظر الي" وقد فغر البعض أفواههم دهشة عندما رأوا شارة الشرف على ساقي ، ومرت همسات قلق حول سيف الحرب الاهلية الذي كان مخبأ تحت معطفي ولكنه لم يكن مخفيا تماما • فهمس احدهم فيأذني « أرجوك يا املي أن تشطبي اسمي • وقال آخر « اسمي ، ان كنت تريدين

قتلها ، فأنا بريء معا ستفعلين ٠ » فنظرت اليه بغضب ، بيد أني لم أشعر بالغضب بل شعرت بالخوف والبلاهة لأنني لم أر فوجيل بين الطلبة ٠

استمرت تعليقات الاستهجان وعدم التصديق والحوف الخافتة أثناء دخولنا الى المبنى وأثناء تعليقنا لمعاطفنا ٠ وحتى بعد أن قلنا « صباح الخير يا آنسة هولدرنس » وجلسنا في مقاعدنا ما زال يسمع صوت همهمة وحفيف كحفيف العشب في يوم قائظ ٠ فقالت الآنسة هولدرنس مصفقة بيديها « هدوء من فضلكم ٠ ما معنى هذا الهرج الذي يصم الآذان ؟ » فساد على الفور صمت قصير ، ثم رفع جوني ثاتشر الذي لم يوقع على العريضة اصبعاً وتنحنح ثم قال « لدى أملي شيء تريد أن تريه لك يا آنسة ٠ » فقالت الآنسة هولدرنس انني أرى سيف املي ٠ » كنت قد حاولت اخفاءه تحت المقعد ولكنه برز في الممرين على كلا الطرفين ٠ وأردفت الآنسة قائلة » وأعتقد اننا جميعا سنتجاهله ٠ فنحن لا نعلم لماذا أتت به الى المدرسة ولا يهمنا أن نعرف ٠ » فقال جوني ثاتشر « لا ٠ أنا لا أعني السيف ٠ لديها شيء آخر تريد اطلاعك عليه ٠ شيء يتعلق بوظائف الجغرافيا ٠ فأجابت الآنسة هولدرنس مفرقعة أصابعها ومغمضة عينيها اغماضة تبرم « حسنا جدا يا املي ٠ أرني اياه ٠ فلا نستطيع قضاء اليوم كله منشغلين في حيل املي فاندربول التي تلعبها لتجلب الانتباه الى نفسها ٠ هيا يا املي ، تعالي ٠٠٠٠ بسرعة ٠٠٠ بسرعة ٠ » فتلعثمت قائلة ليس عندي أي شيء ٠ فقال جوني « بل لديك ٠ » فبدأ الكل يشرثرون مما جعل الانسة هولدرنس تضرب طاولتها بمسطرتها وتقول « لدي ما يبرر عقابكم جميعا في هذا الصف ٠ يا املي ، أرني ذلك الشيء في الحال ٠ » فتقدمت اليها كارهة مضطربة ووضعت العريضة على الطاولة أمامها ٠ فرمقتني بنظرة سوداء ثم فضت المغلف ٠ وبدأ لونها يحمر وهي تحرك شفتيها قارئة العريضة حتى بدت حمراء كالتفاحة ٠ ثم صاحت في وجهي « هكذا اذن ، الانسة املي فاندربول موجهة عامة لهذا الصف ٠ لم أكن أدري ان انتخابات جرت وتم اختيارها لهذا المنصب ٠ » فضحك الجميع ضحكة مكبوتة ٠ فقلت « أنا ٠٠٠٠ ولكن الانسة هولدرنس رفعت يدها اشارة بالصمت وقالت « سأرى الآن ٠ » وبدأت أسماء الموقعين على العريضة مع الاسماء المسجلة في جدول

الصف • توقفت قليلا ، فنبضت القلوب بعمق • ثم قالت « روبي ، استيل ، هومر ، جوني، ماجوري ، فيرجيل_ هؤلاء الذين ما زالوا مخلصين لمدرسة كارليل هل جراند ولم يذعنوا لهذه المشرفة العامة الفريدة من نوعها • فهنيئا لكم أيها الاطفال • » فصرخت متدهشة « فيرجيل ! ولكن فيرجيل •••• » ثم أمسكت عن الكلام كي لا أكون نمامة حتى ضد هذا الثعلب المخادع• فقالت الانسةهولدرنس ما بال فيرجيل ؟ اني آسفة لغيابه اليوم ، فأنا اود أن اعرف مدى تقديري لرفضه التوقيع على هذه العصابة المثيرة للغضب• ياللعار يا املي فاندربول ،ياللعار•» ثم استعرضتني بنظراتهـــا مـــن رأسي الى قدمي باشمئزاز كما لو كنت حشرة زاحفة أو ظربان • وفجأة رأت الحرف المدرسي على جوربي • ففغرت فاهـــا وانعقد لسانهـــا دهشة ، ثم قالت « روبي ، تسلمي مسؤولية الصف • فلي مع أملي شأن في مكتب السيد كولبي • »

كان ذلك أطول ميل مشيته في حياتي• مرّت بذهني وأنا أسير صورةحزينة يسودها الحسد ، صورة الاطفال الذين تركتهموراء الباب المغلق يمعمون بالرخاء والاحترامفيحين أكون أنا غارقةفي العمل مع مجموعة بناتينفي اصلاحية الاحداث• فتوترت حواسي وتوفزت • وأصبحت رائحة قشور شجر الصنوبر أقوى من أي وقت مضى • وكانت رائحة الماكينو الرطب والعفوف (وهي مصنوعـــة مـــن القوتابيرشا ، وقد أثارت في صدري حنينا للصادرات الرئيسية لملايواركيبيلاجو)، وأصوات المعلمين والمعلمات ، وخبط الاقدام والكرات في الصالة الرياضية تحتنا وصياح الاطفال الشبيه بأصوات المزامير في غرفة روضة الاطفال ، كلها كانت كأغنية وداع عالية • وكانت يد الانسة هولدرنس وهي تمسك بذراعيككلابة معدنية قاسية •

أما السيد كولبي فكان عجوزا مصابا بأزمة في رئتيـــه • له أنف مخطط بعروق أرجوانية ، وله غرة شعر مستعار شقراء غامقة • ساقاه قصيرتان جدا بيد أن له كتفين عريضتين قويتين فكان يبدومن وراء مقعدهكمارد أزرق العينين، ولكن عينيه منحرفتان مما أضفى عليه شكلا هزليا وجعل نظراته مضحكة كأنــه يحاول فهم نكتة ولكنه لم يستوعبها تماما • وكان يلعب بفتاحة رسائل حـــادة

عندما دخلنا مكتبه ، وكان ينقر بسبابته على طرف الفتاحة الحاد وهو يدور نصف دورة في كرسيه الدوار • دعا الانسة هولدرنس للجلوس وأشار بفتاحة الرسائل الى المكان الذي يجب أن أقف فيه وهو أمام طاولة مكتبه تماماً • وأثناء قيام الانسة هولدرنس بسرد جرائمي المخزية استدار السيد كولبي عدة مرات دورة كاملة حتى أصبح ظهره الينا ليسعل ويحشرج • وكانت حشرجته كالضحكة المختنقة • وعندما انحنى فوق مكتبه لينظر الى ساقي المشينة أصيب بنوبة اضطرته الى اخفاء وجهه بمنديله • وعندما قرأ العريضة حسبت أنه سينفجر • وبعد انتهاء الآنسة هولدرنس من عرض قصيتي طلب اليها السيد كولبي أن تعود الى صفها وقال انه سيقوم شخصيا بمعالجة القضية معي •

وبعد انصراف الانسة هولدرنس قال لي « والآن يا املي ، لا شك أن جنحتك هذه خطيرة • وبالمناسبة ، لم احضرت معك سيفا الى المدرسة ؟ »

ـ انه سيف الحرب الأهلية ، وغير ••••••• أعني أنه سيف حرب أهلية ، وبما أن العريضة أمر من أمور الحرب الاهلية •••• »

ـ « أمر من أمور الحرب الأهلية ؟ أي أمر ؟ »

ـ « أمر ما ••• لا غير • لا أعرف ماذا تسميه • بيد أن اسمي موجود مكان اسم ابراهام لنكولن • »

فاستدار في كرسيه وحشرج حيناً من الوقت ثم قال « اسم املي فانربول مكان اسم ايب النبيل ! القصية تزداد غرابة • أعترف بأن الامر قد اختلط علي • فأنا عاجز عن الربط بين السيف والعريضة ووضعك الحرف المدرسي على جوربك الامر الذي يعني كما قالت الانسة هولدرنس تمريغ علم البلاد المنجم في التراب • فهل لك أن تساعديني على حل هذا اللغز ؟ »

كان صوت السيد كولبي عطوفاً رغم حزمه • وكانت عيناه المضحكتان عذبتين • ومع أن قلبي كان يخفق كالرعد ، وبرغم احساسي بأن ساقي مكبلتان، شعرت بالشوق الى الادلاء بالحقيقة كلها • ولكن ذلك سيورط فيجيل في القضية- لذلك قلت كما يقول المجرمون المجانين عادة « لا أعرف لم فعلت هذا • »

أمسك السيد كولبي بالمريضة ثانية فاعتقدت أنه سينفجر غضباً هذه المرة • القى برأسه الى الوراء حتى خيل لي أن غرة شعره المستعار ستقع ، وسعل وحشرج وغرغر بشكل مخيف ، ثم قال بصوت أجش :

ستكونين سبب موتي • وظننت أني فعلا ساكون • ثم أخذ يتلمس وعيناه مغرورقتان بالدمع باحثا عن زجاجة الحبوب وابريق الماء • وبعد أن تناول جرعة الدواء وسوّى نفسه في كرسيه ووضع نظارته على عينيه ألقى عليّ محاضرة موجزة متزنة في قيمة الجغرافيا وفي خطورة خطيئة العصيان وفي النصح بعدم حمل السلاح وغباء الادعاء بالقوة ، وفي عدم لياقة وضع شارة الشرف على الساق• وأخيرا طلب اليّ أن أعود الى غرفتي واعتذر للآنسة هولدرنس ثم انصرف الى البيت بقية النهار واشرح لأمي سبب طردي • وعندما أغلقت الباب خلفي سمعته وقد انتابته نوبة أخرى وتيقنت اني سأشنق ان مات بسبب هذه النوبة •

ظللت أعاني طيلة الاسبوع من خزي مزدوج • فقد جعلتني الآنسة هولدرنس أتخلف في المدرسة كل يوم لاكتب قوائم بالانهار والمدن والصادرات الرئيسية • وكان علي أن أعود الى البيت بعد ذلك وأحبس نفسي في غرفتي حتى العشاء • وقاطعني جاك وستيلا فلم يكلماني أبدا • ولم يسمح لي بوضع الحرف حتى في مكانه المناسب طيلة اسبوعين • كما ازدادت وظائف الجغرافيا على الصف السادس مما جعل التلاميذ جميعا يقاطعونني • فكنت أزحف بينهم ككلب مريض• فتمنيت الموت •

في البداية وقف كل الضعفاء والمحبولين مع فيرجيل رغم علمهم التام بأني كنت قادرة على زجه في القضية لو وشيت به • كانوا يعلمون أن مسؤولية فيرجيل بالنسبة للمريضة لاتقل عن مسؤوليتي ، لكنهم لم يكونوا على علم بأنه هو الذي أغواني لأخيط حرف ال C على جوربي الأمر المشين جداً لكارليل هل المزيزة ، والذي اعتبر بنظرهم جريمتي الأساسية • وتمتع فيرجيل خلال اسبوعي الخجر هذين بشعبية واسعة وعلمت انه قد خطب لروبي ميللر • فتظاهرت بتجاهله تماماً • وفي اليوم الاول الذي سمح لي بوضع الحرف في مكانه ، كشف فيرجيل الغبي حقيقة الامر • هكذا أخبرتني روبي ميللر أثناء ساعة الغداء • قالت انها كانت تتبادل البطاقات

من صناديق الصودا مع فيرجيل أثناء فرصة الصباح عندما رأتني أضع الحرف مكانه ثانية فسألته عن السبب الذي دعاني الى ارتكاب تلك الفعلة المريعة،وقالت مستغربة « من يفكر بذلك ؟ » فقال لها فيرجيل سأدلك على شخص لا تحطربباله مثل هذه الفعلة ــ انها فاندرلوب • انها غبية جدا أنا الذي قلت لها أن تحيط الحرف على ساقها • فانتشر الخبر بسرعة ، ومرت الهمسات أثناء حصة « بالمر ميثود » وكتب الطلبة الخبر على قصاصات تبادلوها تحت بند « الاحداث الجارية» وما أن حلت فترة المساء حتى كنت أتربع في قلوب الجميع ، وكان فيرجيل منبوذا تماما • فتوافد اليّ الناس فرادى وجماعات يهنئونني على نبلي ، وصافحني بعضهم بحرارة • فتقبلتمنهم التهاني وقد علت شفتي ابتسامة شاحبة فيها مسحة من مرارة التضحية ، وشكرتهم على دعواتهم العديدة الى بيوتهم واعتذرت عن قبولها متذرعة بأني ُسأعود الى البيت لأقرأ الانجيل •

مكثت وحيدة طيلة ذلك اليوم فقط • وفي اليوم التالي غصت في دوامة المجتمع • أما فيرجيل فقد نبذ كلية • فأشفقت عليه وقتئذ ، بيد أننا في الواقع عدنا بعد شهرين رفيقين مرحين ، ولكني كنت حريصة الا يخدعني ثانية • كانت قبضتي عليه حديدية ، فلم يعد يجرؤ على العودة الى الاعيبه رغم انزلاقه مرة واحدة فقط لقنته أثرها درسا لم ينسه أبدا • كان ذلك ونحن عائدين يوما الى البيت في فصل الربيع عندما تطف ورقة من شجرة ليلك وقال لي « ان قسمتها نصفين أعطيك ربما(١) » وما أسهل أن يقسم المرء ورقةليلك • فالضلع الاوسط واضح تماما والورقة طرية ، فأنجزت المهمة في ثانية وقلت له « حسناً أين ربحي ؟ » فقسم فيرجيل أحد النصفين وأعطاني جزءا قائلا « اليك ربحك • » واتبع ذلك بضحكة ساخرة • فنظرت اليه شزرا وانصرفت • فتبعني راكضا متوسلا راجيا الصفح ، مذكرا اياي بالاوقات الجميلة التي قضيناها معا • فتجاهلته وتابعت السير حتى قطعت مجموعتي بناء• ثم وقفت عند فسحةوصعدت جلموداً وطلبت اليه أن يجثو على الأرض • وعندما أمليت القانون كما فعل موسى على جبل سيناء • منذ ذلك الحين أصبح فيرجيل ميد أكثر رفاقي المرحين طوعا وانقيادا •

---

(١) فهمت أملي انه سيعطيها ربع دولار •

علم الحقد

قصة : ميخائيل شولوخوف
ترجمة : هاشم حمادي

الأشجار في الحرب ، كما الناس ، لكل منها مصيره • لقد رأيت رقعة كبيرة من الغابة ، قطعت بنيران مدفعيتنا • كان الألمان ، الذين دحروا من قرية س قد تمركزوا فيها منذ عهد قريب ، ظنا منهم أن بقاءهم فيها سوف يطول ، بيد أن الموت حصدهم ، وحصد الأشجار معهم • فتحت جذوع أشجار الصنوبر الجريحة كان يرقد الجنود الألمان الموتى • وفي الغشار الأخضر كانت تتفسخ أجسادهم الممزقة إرباً ، ولم يتمكن الأريج القطراني لأشجار الصنوبر ، التي هرستها القذائف ، من تلطيف رائحة الجثث المتفسخة ، الكريهة والخانقة • كان يبدو وكأن الأرض بالحواف السمراء الملفوحة والصلبة لحفر القذائف ، هي التي تنشر رائحة القبور هذه •

كان الموت يسود بعظمة وبصمت على هذا المسرح ، الذي صنعته وحفرته قذائفنا ، فقط في منتصف المرج كانت لا تزال تقوم شجرة بتولا ، نجت بأعجوبة ، فكان الهواء يهز أغصانها الجريحة ، ويدوي في أوراقها الفتية ، المصقولة واللزجة •

كنا نسير عبر هذا المرج ، وبلطف لمس جندي الارتباط ، الذي يسير أمامي ، بيده جذع شجرة البتولا ، وسألها بدهشة صادقة وحنونة :

ـ كيف نجوت يا عزيزتي ؟

ولكن اذا كانت القذيفة تميت شجرة الصنوبر وهي تسقط وكأنها قد حصدت،

ولا تترك في المقطع سوى الرأس الأبري ، الذي ينـزف القطران ، فالأمر يختلف بالنسبة لشجرة البلوط ٠

ففي الربيع الماضي سقطت قذيفة ألمانية على جذع شجرة بلوط عجوز ، كانت تنمو على ضفةأحد الأنهار، فأودى الثقبالممزق والمتشقق بحياة نصف الشجرة،ولكن النصف الثاني ، الذي انحنى بفعل التمزق نحو المـاء ، عاد الى الحياة في الربيـع ، واكتسى بالأوراق الفتية ، وحتى هـذا اليوم ٠ قد تكـون الأغصان الدنيا لشجـرة البلوط المشوهة ، تسبح في الماء الجاري ، بينما لا تزال أغصانها العليا تمد نحـو الشمس أوراقها الرشيقة المتراصة ٠

كان الملازم غيراسيموف الطويل، والمحدودب الظهر قليلاً بكتفيهالعريضتين، المرفوعتين ، كجناحي الصقر ، يجلس عند مدخل الملجأ ، يتحدث عن معركة اليوم ، عن هجوم العدو المدرع ، الذي صدته الكتيبة بنجاح ٠

كان وجه الملازم النحيف هادئاً ، لا حماسة فيه تقريباً ، وكانت عيناه الملتهبتان تحدقان بارهاق ٠ وكان يتحدث بصوت فظ مرتج ، وهو يشابك أصابع يديه الضخمة والمعقدة ٠ وبشكل غريب لم تكن هذه الحركة تتلاءم مع قامته العملاقة ، ومع وجهه الحيـوي الشـجاع ، فهي تعبـر ببلاغة عـن المصاب الصـامت ، أو عن التفكـير العميـق والثقيـل ٠

وفجأة سكت ، وتغير وجهه خلال لحظة ، فقد شحب خداه السمراوان ، واختبأت الغمازتان ، وهما تتدحرجان تحت العظمين الوجنيين ، أما عيناه ، اللتان كانتا تحدقان باهتمام نحو الأمام ، فقـد اندلع فيهما حقد شـره ، لا ينطفيء ، وبشـكل لا شعوري التفتّ الى الجهة ، التي يلتهمها بنظره ، فرأيت ثلاثة من الأسرى الألمان، يسيرون في الغابة ، قرب خط دفاعنا الأول ، ومن ورائهم حارسهم ، جنـدي الجيش الأحمر ، في قميص صيفي ، أصبح أبيض باهتاً بسبب الشمس ، وعمرة موضوعـة على القذال ٠

كان الجندي يسير ببطء ، وفي يديه كانت البندقية تتأرجح باتزان ، فيلمـع

حد الحربة تحت أشعة الشمس ، وببطء أيضاً كان الأسرى الألمان يسيرون متثاقلين ، ينقلون ، بدون رغبة ، أقدامهم ، في الأحذية القصيرة ، الملطخة بالطين الأصفر ·

وحين أصبح الألماني ، الذي يسير في المقدمة ، وهو رجل تقدمت به السن ، ذو خدين غائرين ، تكاثف فيهما الشعر الكستنائي القصير ، على سوية الملجأ ، ألقى باتجاهنا نظرة ذئبية مقطبة ، ثم التفت وراح يصحح وضع الخوذة المتدلية من النطاق ، وحينذاك قفز الملازم غيراسيموف بعصبية ، وصرخ بجندي الجيش الأحمر ، بصوت حاد ، كما النباح !

ـ هل أنت معهم في نزهة ؟ أسرع ، خذهم بسرعة ، أقول لك ·

وكان يبدو أنه يريد أن يضيف شيئاً آخر ، ولكن كاد يختنق من فرط الاضطراب ، فدار بحدة على عقبيه ، ثم ركض بسرعة ، عبر الدرجات المؤدية الى الملجأ · وقد أجاب الموجه السياسي ، الذي كان موجوداً ، على دهشتي ، بصوت منخفض :

ـ لا يمكن عمل أي شيء ، انها الأعصاب ، لقد كان أسيراً لدى الألمان ، الا تعرف ؟ تحدث معه بطريقة ما · لقد عانى الكثير هناك ، وبعد ذلك لم يعد يطيق رؤية الهتلريين الأحياء ، الأحياء بالذات ، أما الأموات فانه ينظر اليهم بشكل طبيعي ، بل أقول : بلذة ، ولكن ما ان يرى الأسرى منهم حتى يغمض عينيه ويجلس شاحباً ، مبللاً بالعرق ، أو يبتعد ·

واقترب الموجه السياسي مني ثم انتقل الى الكلام همساً : لقد قدر لي أن أشترك معه في الهجوم مرتين ، ان لديه قوة هائلة كما الحصان ، آه لو رأيته ··· لقد رأيت أنا الكثير ، ولكن استخدامه للحربة ولمؤخرة البندقية ، هل تعرف ، انه لشيء مخيف ·

أثناء الليل أطلقت المدفعية الالمانية الثقيلة نارا مخيفة · فعلى فترات زمنية منتظمة كانت تصل من بعيد أصوات القصف ، وبعد عدة ثوان كان يتردد فوق

رؤوسنا في السماء المرصعة بالنجوم الصياح الحديدي للقذيفة ، وكان هذا الصوت الذي يعوي يزداد قوة ويمتد ، ومن ثم تندلع ألسنة اللهب الصفراء ، ويتردد الانفجار القوي ، من خلفنا ، باتجاه الطريق ، الذي عبرته خلال النهار سيارات كانت تنقل الذخيرة الى خط الجبهة .

وفي الفترات الفاصلة بين كل قصف وآخر ، وحينما كان الهدوء يسود الغابة ، كنت تسمع غناء البعوض الخفيف ، ويتردد نقيق الضفادع التي أزعجها دوي الانفجارات في المستنقع المجاور .

كنا نرقد تحت شجيرة جوز ، وكان الملازم غيراسيموف يتحدث بتؤدة عن نفسه ، وهو يطرد البعوض بغصن صغير . وها أنا ذا أنقل هذه القصة ، بالشكل الذي تمكنت فيه من حفظها .

ـ قبل الحرب كنت أعمل ميكانيكيا في أحد مصانع سيبيريا الغربية . وقد دعيت الى الجيش في التاسع من تموز من العام الماضي ، وأسرتي مؤلفة من زوجة وطفلين وأب عجوز ، وعند الوداع بكت زوجتي كما ينبغي وأوصتني قائلة : « دافع عن الوطن وعنا بقوة . اذا كانت هناك حاجة فهب حياتك ، المهم أن يكون النصر لنا » . وأذكر أنني ضحكت آنذاك وقلت لها : « من أنت بالنسبة لي ، زوجة ، أم محرض منزلي ؟.. انني كبير ، أما فيما يتعلق بالنصر ، فاننا سننتزعه من الفاشيين ، كوني مطمئنة » .

أما والدي فهو بالطبع أكثر صلابة ، ولكن الموضوع لم يمر بدون أمر . « يا فيكتور ، ان اسم غيراسيموف ليس اسماً بسيطاً . انك عامل أباً عن جد ، فجدك كان يعمل عند سترونوغوف ، منذ مئات السنين وأسرتنا تصنع الحديد للوطن ، يجب أن تكون في هذه الحرب حديديا . ان السلطة قد جعلتك قبل الحرب قائد احتياط فيجب عليك أن تضرب العدو بقوة » .

« سيتم ذلك يا والدي » .

وفي الطريق الى المحطة عرجت على فرع الحزب . وقد كان الامين انسانا

جافا وعقلانيا ... وفكرت ، اذا كانت زوجتي وأبي قد حرضاني ، فان هذا لن يتركني انصرف ، فقد يطلع علي بحديث قد يستغرق نصف ساعة . انه سيطلع به من كل بد : ولكن حدث المكس تماما . فقد قال لي : « اجلس يافيراسيموف ، دعنا نجلس قبل الطريق دقيقة ، حسب العادة القديمة » .

جلست واياه فترة قصيرة ونحن صامتان ، ومن ثم نهض . ورأيت وكأن نظارته قد تعرقت ... وفكرت ، ما لهذه الغرائب ! أما أمين الفرع فقد قال : « كل شيء واضح ومفهوم أيها الرفيق غيراسيموف . انني مازلت أذكرك بأذنيك الطويلتين . حينما كنت ترتدي ربطة عنق الطليعي ، وأذكرك من ثم عضوا في الكمسمول ، وأعرفك كملتزم طوال عشر سنوات . أذهب واضرب الانذال بدون شفقة ، ان المنظمة الحزبية تعقد عليك أملها » . ولأول مرة في حياتي تبادلت القبل مع أمين الفرع ، والشيطان وحده يعرف لماذا لم يبد لي آنذاك جافا كما في الماضي ...

وقد شعرت بالحرارة من مشاعره هذه لدرجة أنني خرجت من الفرع فرحا ومتأثرا .

كما استعادت زوجتي مرحها . انكم تعرفون أن أية زوجة لا تشعر بالحبور ، اذ تودع زوجها الى الجبهة ، وزوجتي ، طبعا أربكتها المصيبة ، وكانت تريد أن تقول لي شيئا ما هاما ، ولكن كل الافكار طارت من رأسها . وهكذا تحرك القطار ، وهي لا تزال تسير الى جانب عربتي ، وتقبض بيدها بقوة على يدي ، وتقول بسرعة : « فيتيا ، حافظ على نفسك ، حاذر أن تصاب بالرشح في الجبهة » فقلت لها . « أبدا يا ناديا ، أبدا لن أصاب بالرشح ، ان المناخ هناك ممتاز ، ومعتدل جدا » . وقد شعرت بالمرارة وأنا أفارقها ، وبالسعادة وأنا أسمع كلماتها الحبيبة والفذية ، وبالكراهية تجاه الالمان ، وفكرت ، حسنا ، لقد اعتدى علينا جيراننا الغادرون ، والآن اصمدوا . سنلقنكم درسا لن تنسوه .

وصمت غيراسيموف عدة دقائق ، وأصغى الى تبادل نيران الرشاشات ، الذي اندلع فجأة في الخط الأمامي ، وعندما توقف الرمي فجأة ، كما بدأ فجأة ، تابع يقول :

ـ قبل الحرب كانت تصل الى معملنا آليات من المانيا ، وعند التركيب كنت ألمس كل قطعة خمس مرات · وأتفحصها من جميع الجهات · وأنا أفكر . هذه الآليات تصنعها أيدٍ ماهرة · وكنت قد قرأت مؤلفات الكتاب الألمان واحببتها ، واعتدت على النظر الى الشعب الالماني بنوع من الاحترام صحيح أنني كنت في بعض الاحيان أشعر بالأسى لأن مثل هذا الشعب الذكي والمحب للعمل يصبر على النظام الهتلري القذر ، ولكن ذلك كان في النهايـة قضيته الخاصة · وفيما بعد بدأت الحرب في أوروبا الغربية ··

وهكذا كنت ذاهبا الى الجبهة وأنا أفكر : ان العتاد عند الالمان قوي ، والجيش أيضا · ليأخذني الشيطان ، ان من المتعة الصراع مع مثل هذا العدو ، وتحطيم خاصرتيه ·،ونحن لم نكن جاهزين لاستقبال عام واحد وأربعين · وأعترف أنني لم أكن أنتظر من هذا العدو نزاهة خاصة ، وأية نزاهة هناك ، طالما أنك تجابه الفاشية ، ولكنني لم أفكر أبدا ·· أنني سأضطر لمجابهة مثل هذا العدو اللئيم ـ جيش هتلر ، ولكن عن هذا فيما بعد ·

في نهاية تموز وصلت وحدتنا الى الجبهة · ودخلنا المعركة في صباح السابع والعشرين ، وفي البداية شعرنا ببعض الخوف · وقد تغلبوا علينـا بقوادفهم النارية ، ولكننا أتقنا كل شيء عند المساء ، ولقناهم درسا لن ينسوه ، وأخرجناهم من احدى القرى · وفي هذه المعركة أسرنا حوالي خمسة عشر منهم · وما زلت أذكر كيف أحضروهم مذعورين شاحبين ، وكان عناصري قد هدأت نفوسهم بعد المعركة · وراح كل منهم يحضر للأسرى كل ما يستطيع فهـذا حساء الملفوف ، وذاك التبغ أو السجائر ، وآخر يقدم لهم الشاي · ويربتون على ظهورهم ·

ولكن أحد الجنود النظاميين نظر الى هذا المشهد المؤثر بامعان ، وقال . « انكم تدللون هؤلاء « الاصدقاء » كثيرا · كلهم هنا هكذا ولكن لو نظرتم الى أعمالهم وراء خط الجبهة ، وكيف يعاملون أسرانا والسكان الآمنين » · قال ذلك، وكأنه يروم ثبط حماسنا ، ثم خرج ·

وبعد فترة قصيرة انتقلنا الى الهجوم ، وحينذاك رأينا ما فيه الكفاية ···

قرى أحرقت حتى الرماد • مئات النساء والاطفال والشيوخ الذين أعدموا رميا بالرصاص، الجثث المشوهة لجنود الجيش الاحمر ، الذين وقعوا في الاسر ،النساء والفتيات ، والفتيات «المراهقات ، اللواتي اغتصبن وقتلن بوحشية •••

وبشكل خاص بقيت احداهن في ذاكرتي : كانت في الحادية عشرة مـــن عمرها ، وكما يبدو كانت في طريقها الى المدرسة ، حـين قبض عليها الالمـــان فاغتصبوها ثم قتلوها • كانت ترقد بين أوراق البطاطا المدعوكة ، فتاة صغيرة، لا تزال طفلة ، ومن حولها تبعثرت الكتب والدفاتر المدرسية المضرجة بالدم ••• وكان وجهها قد قطع بفأس بشكل مخيف ، وفي يدها كانت تقبض على الحقيبـة المدرسية المفتوحة ، وبعد أن غطينا جسدها بغطاء الخيمة وقفنا صامتين • ومن ثم تفرق المقاتلون بصمت ، أمـــا أنا فبقيت واقفاً ، وانا أتمتم بتأثر بالغ : « باركوف ، بالافينكين • الجغرافيا الطبيعية • للدراسة الاعدادية والثانوية » هذا ما قرأته على أحد الكتب ، الملقاة هناك ، في العشب ، وهذا الكتاب معروف لدي ، فابنتي أيضا تدرس في الصف الاعدادي •

كان ذلك غير بعيد عن روجين ، وبالقرب من سكفيرا في الخندق عثرنا على مكان الاعدام ، حيث عذب جنود الجيش الاحمر ، الذين وقعوا في الأسر •

هل قدر لكم أن تكونوا في محـــلات بيع اللحوم ؟ هكـــذا كان يبدو المكان تقريبا ••• فمن على أغصان الاشجار ، النامية على جانبي الخندق كانت تتدلى الجثث ، بدون أيدٍ وبدون أقـدام ، والجلد منزوع حتى الوسط ••• وثمـة كومة من ثماني جثث كانت ترقد على حدة في قعر الخندق • وهناك كان من الصعب معرفة صاحب هذا العضو من ذاك ، كانت ثمة كومة من قطع اللحم الكبيرة ، وفي الأعلى ــ كانت ترقد ثماني عمرات صفت الواحدة بعد الاخرى، كثمانية صحون •

هل تظنون أن بوسع الكلمات وصف كل ما قدر لنا أن نرى ؟ مستحيل ! لا توجد مثل هذه الكلمات • بل يجب أن ترى ذلك بنفسك • ولكن يكفي الحديث عن ذلك :

وصمت الملازم غراسيموف لفترة طويلة •

وسألته :

— هل التدخين مسموح هنا ؟

فأجاب بصوت مبحوح :

— مسموح ، على أن تكون السيجارة مخفية .

وتابع بعد أن أخذ نفساً :

— لقد توحشنا اذ رأينا ذلك كله ، فقد أدركنا كلنا اننا لا نتعامل مع بشر ، وقد تبين أنهم بنفس الدقة ، التي كانوا يصنعون فيها الآلات والماكنات ، يقتلون الآن أهلنا ويغتصبونهم ويعدمونهم . وبعد ذلك انسحبنا من جديد ،ولكننا قاتلنا كما الشياطين .

وفي سريتي كان كل المقاتلين ، تقريبا ، من سيبيريا . ولكننا دافعنا عن الارض الاوكرانية دفاع المستميت . كثيرون من السيبيريين استشهدوا فيأوكرانيا. ولكننا تركنا فيها عددا أكبر من الفاشيست . نعم لقد كنا ننسحب ، ولكننا كنا ننسحب بعد صدام ضار .

وبعد أن أخذ نفسا عميقا من سيجارته تابع الملازم غيراسيموف بصوت آخر ، حنون الى حد ما :

— الارض في أوكرانيا جيدة ، والطبيعة هناك رائعة وكانت كل قرية تبدو لنا قريبة منا ، ولعل ذلك يعود الى أننا كنا لا نضن بدمنا فتريقه هناك . والدم، كما يقال ، يزيد في وشائج القربى ... وحين كنا نغادر قرية ما ، كان فؤادنا ينفطر من الالم ، كأنه ملعون كنا نشعر بالاسف ، بالاسف المؤلم . نتراجعودون أن ينظر أحدنا الى وجه الآخر .

... ولم افكر آنئذاك أنه سيقدر لي أن أقع في أسر الالمان . ولكن هذا ما حدث . ففي أيلول جرحت لأول مرة ، وفي عام ٤١ جرحت ثانية في المعركة على مشارف دينيسوفكا ، في ضواحي بالكافا ، ووقعت في الاسر .

فقد اخترقت الدبابات الالمانية في جناحنا الايسر ، ومن ورائها تدفقت قوات المشاة • وبدأنا نخرج من الحصار ونحن نقاتل • وفي ذلك اليوم تكبدت سريتي خسائر فادحة • وقد صددنا هجوم العدو المدرع مرتين • وأحرقنا وأصبنا ست دبابات ، وآلية مدرعة واحدة ، وتركنا حوالي مئة وعشرين هتلريا يرقدون في حقل الذرة الصفراء • ومن ثم قام العدو باستدعاء بطاريات الهاون ، فاضطررنا الى التخلي عن المرتفع ، الذي تمسكنا به منذ الظهر وحتى الساعة الرابعة صباحا • ومنذ الصباح كان الطقس حارا • ولم تكن في السماء غيمة واحدة ، وكانت الشمس تلفح بشدة ، لدرجة أنه لم يكن هناك مجال للتنفس• وكانت الألغام كثيفة للغاية ، وأذكر أن السرية كانت عطشى ، لدرجة أن شفاه المقاتلين اسودت بسبب العطش ، أما أنا فكنت أصدر الاوامر بصوت أجش • وكنا نركض عبر وهدة ، حين انفجر أحد الألغام أمامي • ويخيل الي أنني تمكنت من رؤية عمود التراب والغبار الاسود ، وهذا كل شيء • فقد اخترقت احدى شظايا اللغم خوذتي ، أما الثانية فقد أصابت كتفي اليمنى •

لست أدري كم مضى علي من الزمن وأنا راقد بدون وعي ، ولكني استيقظت على وقع أقدام ما • وحين رفعت رأسي قليلا • رأيت أنني أرقد في مكان آخر ، غير المكان الذي سقطت فيه • ولم أعثر على قميصي على جسدي ، وكان أحد ما قد ضمد لي كتفي على عجل ، وحتى الخوذة لم تكن على رأسي • وثمة أحد ما ضمد لي رأسي ، ولكن الضماد لم يكن مربوطا ، فقد كان طرفه يتدلى على صدري • وللحال خيل الي أن عناصري أنقذوني ، وضمدوني على جناح السرعة ، وكنت آمل أن أجدهم ، حين رفعت رأسي بصعوبة • ولكن الذين ركضوا نحوي لم يكونوا عناصري ، بل الالمان • وقع أقدامهم هو الذي أعاد لي وعيي • لقد رأيتهم بوضوح تام ، كما في السينما الجيدة ، ورحت أبحث بيدي من حولي ، ولكني لم أعثر على أي سلاح : لا مسدس ، ولا بندقية ، ولا حتى رمانة ، فقد نزع أحد عناصري السلاح مني •

وفكرت « ها هو الموت » • بماذا فكرت أيضا في تلك اللحظة ؟ اذا كنت بحاجة الى ذلك لروايتك القادمة فاكتب من عندك شيئاً ما ، أما أنا فلم أستطع

آنذاك التفكير في شيء • فقد كان الالمان على مقربة مني ، ولم أكن أريد الموت راقدا ببساطة لم أكن أريد ، لم أستطع الموت راقدا ، هل تفهمون ذلك ؟ فجمعت كل قواي ثم وقفت على ركبتي ، ويداي تلامسان الارض ، وحين اقتربوا مني كنت قد وقفت على قدمي • كنت واقفا ، وأنا أتارجح ، واشعر بالخوف من أن أقع من جديد فيجهزون علي وأنا راقد ، لست أذكر أي وجه • كانوا يقفون من حولي يتحدثون عن شيء ما ، ويضحكون • وقلت لهم : « هيا اقتلوني أيها الانذال ، اقتلوني والا وقعت الان » •وضربني أحدهم بكعب البندقية على رقبتي، فوقعت ، ولكنني نهضت في الحال ، فضحكوا ، وحرك أحدهم يده وكأنه يقول : سر الى الامام • وسرت • كان وجهي مغطى بالدم الجاف ، ومن الجرح في رأسي كان الدم لا يزال يسيل ، حارا ولزجا ، وكانت كتفي تؤلمني ، ولم أكناستطيع رفع يدي اليمنى • وأذكر أنني شعرت برغبةعارمة في أن أرقد ولا أذهب الى أي مكان ، ومع ذلك فقد تابعت سيري ••

كلا ، لم كن أريد الموت ، والادهى من ذلك ، أن أبقى في الأسر • وبجهد كبير كنت أسير متغلبا على الدوخة وعلى الاقياء ، اذن فأنا ما زلت حيا ، قادراعلى النشاط • آه كم قاسيت من العطش ، فقد جف كل ما في فمي ، وطوال الوقت ، الذي كانت تسير فيه قدماي كانت ستارة سوداء تتمايل أمام عيني • لقد كنت بدون وعي تقريبا ، ولكنني كنت أسير وأنا أفكر : « ما أن أروي غليلي ،وآخذ قسطا من الراحة حتى أهرب » •

جمعونا نحن الاسرى في طرف الاجمة في صف واحد ، وكانوا كلهم من عناصر الوحدة المجاورة، ومن فوجنا لم أر سوى جنديين من السريةالثالثة•وكان معظم الاسرى جرحى • وبلغة روسية رديئة سأل الملازم الالماني ان كان بينا قوميساريون وقادة • ولكن الجميع ظلوا صامتين وعند ذاك سأل من جديد : « القوميساريون والضباط خطوتان الى الامام » ولكن أحدا لم يخرج من الصف•

وبعد ذلك فتشونا بسرعة ثم استولوا على حافظات النقود وعلى كل الاشياء الخاصة • لم أضع بطاقتي الحزبية في الحافظة أبدا ، فقد كنت أخشى عليها من الضياع ، فكنت أضعها في جيبة البنطال الداخلية ، ولذا فلم يعثروا عليها عند التفتيش • ان الانسان كائن مدهش : فقد كنت على يقين من أنه لا تفصل بيني وبين الموت سوى شعرة • وأنهم اذا لم يقتلوني عند محاولة الهرب ، فانهم على كل حال سيقتلونني في الطريق ، لأن كمية الدم الكبيرة ، التي فقدتها جعلتني بالكاد أستطيع مجاراة الاخرين في السير ، ولكن عندما انتهى التفتيش • وظلت البطاقة الحزبية معي ، شعرت بالابتهاج ، لدرجة أنني نسيت العطش •

أوقفونا في صف المسير ثم ساقونا نحو الغرب ، وعلى جانبي الطريق كانت ثمة حراسة مشددة ، وعشر دراجات نارية ألمانية • كانوا يسوقوننا بخطوات سريعة ، وبدأت قواي تقترب من النهاية • وقد سقطت مرتين ثم نهضت ، وتابعت السير ، لأنني كنت أدرك أنني اذا ما بقيت مستلقيا دقيقة واحدة ، واذا مامر الطابور ، فانهم سيطلقون النار علي في مكاني • هذا ماحدث بالنسبة للرقيب، الذي كان يسير أمامي • فقد كان جريحا في رجله ، فكان يسير بصعوبة ، يئن ، وأحيانا ، يصرخ من الألم • وبعد أن قطعنا حوالي كيلو متر قال بصوت عال :

ــ كلا ، لا أستطيع • وداعا أيها الرفاق ، وجلس في منتصف الطريق • حاولوا رفعه ، وايقافه على قدميه • ولكنه سقط على الارض من جديد • وكما في الحلم أتذكر وجهه الاصفر الشاب ، وحاجبيه العابسين ، وعينيه المبللتين بالدموع ••• ومر الطابور • وبقي في الخلف • والتفت فرأيت كيف اقتربت احدى الدراجات منه ، ودون أن يترجل راكبها منها ، أخرج المسدس ثم قربه من اذن الرقيب وأطلق النار • وقبل أن نصل الى النهر كان الفاشيون قد أطلقوا النار على بضعة جنود آخرين •

وما أن رأيت النهر والجسر المتهدم والشاحنة ، التي توقفت على جانبه ، حتى سقطت ووجهي نحو الاسفل · هل فقدت الوعي ؟ كلا لم أفقده · كنت أرقد متمددا بكل قامتي ، وكان فمي مليئا بالغبار ، وكانت أسناني تصطك بسبب حمقي ، فكان الرمل يتكسر بينها ، ولكنني لم أستطع النهوض ، وكان زملائي يمرون من جانبي · وبصوت منخفض قال لي أحدهم « انهض والا قتلوك» ورحت بأصابعي أضغط على فمي وعلى عيني ، لكي يساعدني الألم في النهوض ···كان الطابور قد مر ، وسمعت حفيف عجلات الدراجة النارية وهي تقترب مني · ومع ذلك فقد نهضت · ودون أن أنظر الى راكبها ، سرت مترنحا كما المخمور حتى لحقت بالطابور ، ثم انضممت الى الصفوف الاخيرة · وكانت الدبابات والسيارات الالمانية · التي عبرت النهر قد عكرت مياهه · ولكننا شربناها ، تلك المياه الرمادية الدافئة المكرة ، ولكنها كانت بالنسبة لنا أحلى من أفضل مياه الينابيع، بللت رأسي وكتفي · وقد أنعشني ذلك كثيرا وعادت الي قواي · وأصبحت قادرا على السير وكلي أمل أن لا أقع وأن لا أبقى راقدا في الطريق ···

وما أن ابتعدنا عن النهر حتى التقينا بطابور من الدبابات المتوسطة الالمانية · كانت تقترب باتجاهنا · وحين أدرك قائد الدبابات الاولى أننا أسرى ، دفع بدبابته بسرعتها القصوى ، مخترقة طابورنا · وقد عجن الجنزير الصفوف الاولى وهرسها وكان حراسنا المشاة وسائقو الدراجات يراقبون هذا المشهد وهم يضحكون ، وراحوا يصرخون بشيء ما للرؤوس البارزة من الابراج ويلوحون بأيديهم ·

ومن جديد عادوا فجمعونا ثم ساقونا على جانب الطريق · يا لهم من أناس مرحين ···

وفي ذلك المساء ، وفي أثناء الليل لم احاول الهرب ، لأنني كنت أدرك أنني غير قادر على ذلك ، فقد كنت ضعيفا بسبب كمية الدم الكبيرة التي فقدتها ، ثم إن الحراسة كانت مشددة ، وكل محاولة للهرب كان من شأنها أن تنتهي ـ على الأرجح ـ بالفشل · ولكن كم لعنت نفسي فيما بعد ، لأنني لم أقم بتلك المحاولة·

وعند الصباح ساقونا عبر احدى القرى ، التي ترابط فيها وحدة ألمانية واندلق المشاة الى الشارع للتفرج علينا • وقد أجبرنا حراسنا على الجري بسرعة عبر القرية كلها • كانت ثمة حاجة لأن نهان في أعين الوحدة الالمانية التي تقترب من الجبهة • وهكذا جرينا• ومن كان يقع او يتأخر كانوا يطلقون عليه النار فورا • وعند المساء وجدنا أنفسنا في معسكر أسرى الحرب •

كانت باحة محطة الجرارات والسيارات محاطة بالاسلاك الشائكة • وفي الداخل كان الاسرى يقفون كتفا الى كتف • وقد سلمونا الى حراس المعسكر ، الذين أدخلونا الى ما وراء السياج بأعقاب البنادق • اذا قلت إن ذلك المعسكر كان جحيما فانني لا أكون قد قلت شيئا • فلم يكن ثمة من مرحاض • فكان الناس يتغوطون هنا ، وهنا كانوا يقفون ويستلقون في الاوساخ وفي الطين الكريه الرائحة ، وكان الضعفاء جدا لا ينهضون أبدا • كانوا يقسمون لنا الماء والطعام مرة واحدة في اليوم • قدح من الماء وحفنة من الذرة النيئة أو عباد الشمس العفن ، ولا شيء آخر ، وفي بعض الايام كانوا ينسون أن يقدموا لنا أي شيء •

وبعد يومين هطل مطر غزير • وانتشرت الاوساخ في المعسكر • لدرجة أننا كنا نتسكع فيها حتى الركب • وفي الصباح بدأ البخار يتصاعد من الناس المبللين ، كما يتصاعد من الخيول ، أما المطر فظل يهطل دون توقف ••• وفي كل ليلة كان يموت عدة عشرات من الناس ، ويوما بعد يوم كان النحال يدب فينا بسبب الجوع • ومما زاد الطين بلة بالنسبة لي ــ جراحي •

وفي اليوم السادس شعرت أن الألم في كتفي ورأسي قد ازداد • فقد بدأ التقيح • ثم ظهرت رائحة كريهة • وبالقرب من المعسكر كانت توجد اسطبلات الكلخوز ، كان يرقد فيهـا الجنود ذوو الجراح الخطيرة ، وعند الصباح سألت ضابط صف من الحراس السماح لي بالذهاب الى الطبيب ، الذي كان موجودا، حسب ما قيل لي ، عند الجرحى ، كان صف الضابط يتحدث الروسية جيدا •

فقال لي : « اذهب أيها الروسي الى طبيبك ، فهو سيقدم لك المساعدة على جناح السرعة » ..

ولم أدرك تهكمه اذ ذاك ، واتجهت فرحا نحو الاسطبل .

وعند المدخل استقبلني الطبيب العسكري من الدرجة الثالثة . كان ذلك انسانا قد انتهى ، نحيلا مرهقا ، نصف مجنون بسبب كل ما قدر له أن يعاني. كان الجرحى يفترشون الروث ، ويختنقون مـــن الرائحة العفنـــة ، التي تملأ الاسطبل ، وكانت جراح معظمهم ملأى بالديدان ، أما أولئك الجرحى ، الذين كانوا يستطيعون ، فقد كانوا ينتشلونها من الجراح بأصابعهم أو بواسطة العيدان ... وهناك كانت ترقد كومة من الاسرى الموتى ، لم يخرجوها بعد .

وسألني الطبيب . « هل رأيتم ؟ أي شيء يمكن أن أقدمه لكم ؟ اذ ليس لدي أي ضماد ، ليس لدي شيء ، اذهبوا من هنا من أجل الله ، اذهبوا ، أما ضمادكم هذا فانزعوه وصبوا الروث على الجراح ، هاك عند الباب روث طري » .

وهكذا فعلت . وعند المدخل استقبلني صف الضابط بابتسامة عريضة : « كيف الحال ؟ ان لدى جنودكم طبيبا جيدا ، هل قدم لكم المساعدة ؟ » كنت أريد أن أمر من جانبه صامتا ، ولكنه ضربني بقبضته في وجهي ، وصرخ « لا تريد أن تجيب ، أيها الدابة ؟ ! » . وقعت على الارض ، فراح يرفسني بقدمه في صدري وعلى رأسي . وظل يضربني حتى تعب . لن أنسى ذلك الفاشي حتى الموت ، كلا لن أنساه . فهو قد ضربني بعد ذلك أكثر من مرة . فكان حين يراني من خلال السياج يأمرني بالخروج ويبدأ يضربني بصمت وبتركيز ...

هل تسألون كيف بقيت حيا بعد ذلك كله ؟

قبل الحرب ، حينما لم أكن ميكانيكيا بعد ، وحين كنت أعمل حمالا على نهر كاما . كنت أحمل كيسين من الملح دفعة واحدة ، وفي كل منهما مئة كيلو غرام . كنت قويا ، ثم إن جسمي كان سليما ، ولكن الشيء الاساسي أنني لم أكن أريد

أن أموت ، فارادة المقاومة كانت قوية • كان علي أن أعود الى صف المناضلين من أجل الوطن ، وقد عدت لكي أنتقم من الاعداء حتى النهاية •

ومن هذا المعسكر ، الذي كان نوعا من معسكرات الفرز ، نقلت الى معسكر آخر ، يقع على بعد مئة كيلومتر من الاول • وهنا كان كل شيء قد نظم بنفس الطريقة في معسكر الفرز : أعمدة عالية ، تمتد منها الاسلاك الشائكة ، ولم يكن ثمة من غطاء فوق الرأس ، لا شيء ، وكان الطعام هو هو ، ولكنهم نادرا ما كانوا يقدمون بدل الذرة النيئة قدحاً من الحبوب المعفنة المسلوقة ، أو يجرون الى المعسكر جثث الخيول التي نفقت ، تاركين الحرية للأسرى في اقتسام هذه الغنيمة ، ولكي لا نموت من الجوع كنا نأكل ، ونموت بالمئات ••• ومما زاد الطين بلة أن البرد حل في شهر تشرين الاول ، وظل المطر يهطل بدون توقف بالاضافة الى الصقيع عند الصباح ، كنا نعاني من البرد بشكل قاس • وقد حالفني الحظ فأخذت من الجندي الميت قميصه ومعطفه ، ولكن حتى ذلك لم ينقذني من البرد ، أما بالنسبة للجوع فكنا قد ألفناه •

كان يحرسنا جنود سمنوا بفضل النهب ، وكانوا كلهم من حيث الشخصية قد صنعوا على قالب واحد • وكان حراسنا كلهم من السفلة الراسخين في اللؤم ، كانوا يتسلون ـ مثلا ـ على النحو التالي في الصباح كان يقترب من السياج عريف ما ويقول بواسطة المترجم :

« الآن توزيع الطعام • سيتم التوزيع من الجانب الأيسر » •

ويذهب العريف ، وعند الجانب الأيسر يزدحم كل من لديه القدرة على الوقوف على قدميه • تنتظر ساعة ، اثنتين ، ثلاث ، مئات الهياكل العظمية الحية ، المرتجفة تقف في الزمهرير ••• تقف وتنتظر •

وفجأة ، وعلى الجانب المقابل يظهر الحراس بسرعة ، يلقون من خلال الاسلاك لحم الخيول المقطع • ويندفع الجمهور كله ، يسوقه الجوع ، الى هناك ، وبالقرب من القطع الملطخة بالأقذار ، يبدأ الشجار •••

ويضحك الحراس ملء حناجرهم . ومن ثم تتردد رشقة طويلة من الرشاش، فيكون صداها الصرخات والأنين ،ويجري الأسرى نحو الجانب الأيسر من السياج ، وعلى الارض يبقى الموتى والجرحى .. ويقترب الملازم قائد المعسكر ومعه المترجم من الاسلاك ، ويقول ، وهو بالكاد يكبت ضحكه

عند توزيع الطعام حدث اخلال بالنظام مشين . اذا ما تكرر ذلك ، فانني سآمر برميكم بالرصاص أيها الخنازير الروس ، بدون شفقة ، ليؤخذ الجرحى والموتى » . ومن وراءقائد المعسكر يتزاحم الجنود الهتلريون وهم يكادون يموتون من الضحك ، فقد أعجبتهم حيلة قائدهم « الظريفة » .

وبصمت كنا نخرج الموتى من المعسكر ، فندفنهم في الخندق القريب ... كانوا يقتلوننافي هذا المعسكر بالقضبات بالعصي وبكعب البنادق . كانوايضربوننا للاشيء ، من الملل ، وبقصد التسلية . ولم تشف جراحي ، بل تفتحت من جديد بسبب الرطوبة الدائمة والضرب ، على الأرجح ، فكان الألم لا يطاق ، ومع ذلك فقد بقيت حيا ، ولم أفقد الأمل في النجاة ... كنا ننام في الاوساخ ولم يكن ثمة من فراش من القش ، ولا أي شيء . نجتمع في كومة ثم نرقد . وطوال الليـل كانت تجري ضوضاء هادئة ، فكان الذين يرقدون في الاسفل ، حيث الاوساخ ، يتجمدون ، ويتجمد أولئك الراقدون في الاعلى لم يكن ذلك نوما ، بل عذابا مريرا.

هكذا مرت الايام ، كما في الحلم الثقيل . ويوما بعد آخر كنت أزدادنحولا، وكان باستطاعة الطفل أن يرميني أرضا ، وفي بعض الاحيان كنت أنظر بهلع الى يدي الجافتين ، المحاطتين بالجلد وحده وأفكر . « كيف لي بالخروج من هنا ؟ .. حينذاك لعنت نفسي لأنني لم أحاول الهرب في الأيام الأولى ، لو أنهم قتلونـي آنذاك ، لما تعذبت بهذا الشكل الرهيب .

وحل الشتاء . فكنا ننام على الأرض المتجمدة ، بعد أن ننظفها من الثلج . وبالتدريج بدأ عددنا في المعسكر بالتناقص ... وأخيرا قيل لنا أننا سنرسل الى العمل بعد عدة أيام. ودبت فينا الحياة كلنا . فقد راود الأمل، ولو كان ضعيفا، كلا منا بأن الفرصة قد تسنح ويتمكن من الهرب .

كانت تلك الليلة هادئة ، ولكنها صقيعية ، وقبيل الفجر سمعنـــا قصف المدافع • ودبت الحركة من حولي • وعندما تردد القصف من جديد قال أحدهـم بصوت قوي :

ــ يا رفاق ، ان قواتنا تهاجم •

وحينذاك حدث ما لا يمكن تصوره كل من في المعسكر وقف على قدميه ، كما لو أنهم تلقوا ايعازا بذلك ، وقد وقف حتى أولئك الذين لم ينهضوا منذ عدة أيام • وتردد في كل مكانهمس حار وبكاء مكبوت•• وبالقرب مني أجهش أحدهم بالبكاء بمرارة كما النساء ••• وأنا أيضا ••• وأنا أيضاــ قالالملازمغيراسيموف بصوت سريع ومتقطع ، ثم سكت للحظة ، وبعد أن تمالك نفسه عاد فتابع بهدوء : « كانت دموعي تتدحرج على خدي ، وتتجمد في الزمهرير• وأنشد أحدنا أغنيةوطنية بصوت منخفض ، وانضممنا اليه بصوت حاد • وفتح الحراس النار علينا من الرشاشات والبنادق الآلية ، وتردد الايعاز « انبطاح » • انبطحت ، دافنا جسمي في الثلج وأنا أبكي كالطفل • ولكن تلك لم تكن دموع الفرح فقط ، بل والتيه بشعبنا • كان بامكان الفاشيين قتلنا نحن المجردين من السلاح ، والضعفاء بسبب الجوع ، كانوا يستطيعون تعذيبنا ، ولكنهم كانوا عاجزين عن تحطيم روحنا ، ولن يستطيعوا ذلك أبدا ، لقد أخطأوا بنا ، أقول بصراحة •

لم أتمكن في تلك الليلة مـــن الاستماع الى قصة الملازم غيراسيموف حتى النهاية • فقد طلبوه على جناح السرعة الى قيادة الوحدة • ولكننا التقينا بعدعدة أيام • كانت الحفرة تفوح برائحة قطران الصنوبر والعفن • كان الملازم يجلس على المقعد ، منحنيا ، واضعا كفيه الملاقتين بأصابعه المتشابكة على ركبتيه •وحين كنت أنظر اليه أفكر ، عن غير قصد ، انه هناك ، في معسكر المعتقلين قد اعتاد أن يجلس هكذا مشابكا أصابعه ، صامتا طوال ساعات ، وغارقا في التفكير الثقيـل وغير المجدي ••

ــ تسألون كيف تمكنت من الهرب ؟ سأحدثكم الآن • بعد فترة قصيرة مـــن سماعنا قصف المدفعية الليلي أرسلونا الى العمل في بناء التحصينات وقد حلالدفء

حل الصقيع • وهطلت الامطار ، كانوا يسوقوننا الى شمال المعسكر ، ومن جديد حدث ما حدث في البداية كان الناس المرهقون يتساقطون ، فيطلقون عليهم النار ويلقونهم على الطريق •••

حتى أن الملازم أطلق النار على أحدهم لأنه التقط من الارض حبة بطاطا متجمدة • كنا نسير عبر حقل بطاطا • فقد التقط الرقيب ، وكنيته غونتشر ، لم أعد أذكر الاسم ، التقط تلك الحبة اللعينة وأراد أن يخبئها ، وقد لاحظ الملازم ذلك ، ودون أن يقول شيئا اقترب من غونتشر وأطلق النار على مؤخرة رأسه • وأوقفوا الطابور في صف ، وقال الملازم وهو يشير بيديه من حوله : كل هذاملك الدولة الالمانية • وكل من تسول له نفسه منكم أخذ شيء ، سيقتل » •

وفي القرية ، التي مررنا عبرها ، رأتنا النسوة ، فرحن يرمين لنا قطع الخبز والبطاطا المشوية • وقد تمكن بعضنا من التقاط بعضها ، ولكن الباقين لم يتمكنوا• فقد فتح الحراس النار باتجاه النوافذ ، وأمرونا بأن نسرع في سيرنا • بيد أن الأولاد ، وهم لا يعرفون الخوف أسرعوا فسبقونا بعدة أحياء ثم وضعوا الخبزعلى قارعة الطريق • فكنا نلتقطه • وكان نصيبي حبة بطاطا كبيرة مسلوقة • وقد تقاسمتها مناصفة مع جاري ، وأكلناها بقشرها • وطوال حياتي لم أذق بطاطا أكثر لذة منها •

كنا نبني التحصينات في الغابة • وقد شدد الالمان من الحراسة • ثم وزعوا علينا الرفوش كلا لم أكن أريد بناء التحصينات لهم ، بل كنت أريد تهديمها •

وفي ذلك اليوم ، وقبيل المساء اتخذت قراري النهائي : فخرجت من الحفرة، التي حفرناها • واخذت الرفش بيدي اليسرى ثم اقتربت من الحارس ••• وقبل ذلك كنت قد شاهدت الحرس الباقين عند الخندق ، ولم يكن ثمة أحد آخر من الحرس المكلفين بحراسة فئتنا بالقرب منا •

ـ لقد انكسر رفشي •• هاكم انظروا ـ كنت أتمتم وأنا أقترب من الجندي، وخلال لحظة قصيرة خطر لي أنه اذا لم تكفني القوة ، ولم أتمكن من القضاء عليه

من الضربة الاولى ، فقد انتهيت • ويبدو أن الحارس قد لاحظ شيئاً ما في تعبير وجهي ، فحرك كتفه ، محاولا نزع نطاق البندقية ، وحينذاك ضربته بالرفش على وجهه • لم أستطع ضربه على رأسه ، فقد كانت هناك الخوذة • وقد كانت قواي كافية ، فقد تكوم على الارض • دون أن يصرخ •

كانت في يدي بندقية وثلاثة أمشاط • هل أجري ! ولكنني تبينت انني غير قادر على الجري • لا أقوى وكفى • توقفت ، أخذت نفسا ، ثم عدت الى الجري من جديد • ومن وراء الوادي كانت الغابة أكثر كثافة ، فرحت أجري الى هناك• لست أذكر كم مرة سقطت ثم نهضت فسقطت من جديد ••• ولكنني كنت أبتعد كل دقيقة أكثر فأكثر • وحين كنت أسير وأنا بالكاد أتنفس من التعب والارهاق، في الغابة ، على الجانب الآخر من الهضبة ترددت من ورائي رشقات الرشاشات • وسمعت الصراخ ، ولم يكن من السهل اذ ذاك القبض علي •

كان الغسق يقترب • ولكن لو تمكن الاعداء من العثور على أثري والاقتراب اذن لاحتفظت بالطلقة الاخيرة لنفسي • وقد أنعشتني هذه الفكرة فسرت بهدوء وحــــذر •

قضيت الليل في الغابة • وعلى مسافة نصف كيلو متر كانت ثمة قريــة ، ولكنني خفت من الذهاب الى هناك • خشية أن ألتقي بالأعداء •

وفي اليوم التالي عثر الانصار علي ، وقد قضيت في الحفرة عندهم حوالي الاسبوعين ، فجمعت بعض القوة• وفي البداية كانوا ينظرون الي بشيء من الشك، على الرغم من أنني انتزعت من تحت بطانة المعطف البطاقة الحزبية ، التي كنت قد أخطتها هنا كيفما اتفق ، وأريتهم اياها • وفيما بعد ، وحين أصبحت أشترك في عملياتهم تغيرت معاملتهم لي • وهناك فتحت حسابي مع الفاشيين ، ولا أزال أحافظ عليه حتى الان ، وقد أصبح الرقم يقارب من المائة •

وفي كانون الثاني عبر بي الأنصار خط الجبهة • بقيت في المستشفى حوالي الشهر ، انتزعوا شظية اللغم من كتفي ، أما الروماتيزم ، وغير ذلك من الامراض

الاخرى ، التي حصلت عليها في المعسكر فسأتداوى منها بعد الحرب • ومن المستشفى أرسلوني الى البيت للنقاهة • بقيت في المنزل اسبوعا ، ولم أستطع البقاء أكثر ، بدأت أشعر بالحنين ، فمكاني مهما كان الامر ، هنا حتى النهاية •

ودعته عند مدخل الحفرة • وبتفكير قال لي الملازم فيراسيموف وهو يحدق في الطريق الضيق ، الذي انسكبت عليه أشعة الشمس :

وتعلمنا أن نحارب كما يجب ، وأن نكره ، وأن نحب، فعلى مثل هذا المحك ، كما الحرب ، تشحذ المشاعر كلها • كان يبدو أن من المستحيل وضع الحب والحقد الى جانب بعضهما ، وهناك مثل يقول : « في عربة واحدة لايمكن ربط البغل والايل الخائف » أما لدينا فقد ربطا ، وهما يشدان بشكل جيد • انني أكره الفاشيين بشدة بسبب كل ما جروه على وطني وعلي شخصيا • وفي الوقت نفسه أحب شعبي حبا جما • ولا أريد له ان يرزأ فيماني تحت النير الفاشي •• هذا هو مايجعلني ، بل ما يجعلنا كلنا ، نحارب بهذه الوحشية ، هذان الشعوران بالذات ، المجسدان في العمل ، هما اللذان سيقودان لنا النصر • واذا كان حب الوطن محفوظا في أفئدتنا وسيظل محفوظا طالما أن هذه الافئدة تدق ، فاننا نحمل الحقد دائما على أطراف البنادق • اعذروني اذا كان قولي هذا معقدا ، ولكن هذا ما أفكر بـه ـ اختتم الملازم فيراسيموف قصته ، وابتسم لأول مرة - مذ تعارفنا ، ابتسامة طبيعية ، لطيفة وصبيانية •

ولأول مرة لاحظت أن فودي هذا الملازم ، ذي الاثنين والثلاثين عاما ، والذي حطمته المعاناة والحرمان ، ولكنه بقي قويا وراسخا كما شجرة البلوط ، أبيضان من الشيب ، وكان هذا الشيب ، الذي تحقق بعد الألم الكبير ، صافيا ، لدرجة أن خيط المنكبوت الأبيض ، الملتصق بصرة الملازم ، اختفى اذ لامس أحد الفودين ، ولم يعد بالامكان تمييزها ، مهما حاولت •

١٩٤٢

الرواية والسرد

بقلم : فرانك كرمود
ترجمة : محيي الدين صبحي

بامكاننا توفير كثير من العناء على أنفسنا اذا قبلنا أن الرواية نثر سردي تخييلي ذو طول معين ، مما يسمح بمقدار عظيم من التنويع بين الروايات ولكن من الواضح أن الناس يبتغون توسيع الرواية ، ويتفحصونها بطرق متفاوتة ، وهذا يمكنهم من توجيه ملاحظات على غرار « هذه في الحقيقة ليست رواية » أو « أين ذهب الروائيون كلهم ؟ » . وفي وسع الناس أن يحددوا الرواية بدقة أكثر مما تسمح به صيغتي البسيطة ؛ لكن المشكلة انهم بعملهم هذا يمثلون العرضي على أنه جوهري ، وهذا هو السبب في أن موت الرواية غالبا ما يعلن على الملأ ، وينظر الى الخصائص المرحلية والمحلية على أنها متطلبات عامة . ويزيد الصعوبة سوءاً رغبة من يفهمون ذلك في اعفاء أنفسهم من الروايات التي تعرض مثل تلك القيود ؛ فهم لا يرغبون فقط ـ ورغبتهم هذه مفهومة ـ في كتابة رواياتمتحللة من تلك القيود المحلية والمرحليـة التي ينظر اليها خطأ على أنهـا عناصر جوهرية في هذا النوع ، كما أنهم لا يبتغون بشكل معقول أن يتفحصوا الرواية ومن اي نوع بالفعل هي ، وماذا يدور في عقل من يقرؤها ، وانما هم ـ لسوء الحظ ـ يؤكدون أن أحدث ما يقومون به يميزها تمييزاً قاطعاً عن أي شيء تم من قبل. وهكذا يمكن لكلا الطرفين التأكيد على أن الرواية القديمة ماتت ، وان كان أحدهما

يبتهج والآخر يأسي • ان الرواية الجديدة مستقلة وقاتلة لأبويها ويقوي هـذه المضاهاة الأوديبية العمى الذي أنزله الابن بنفسه ـ كما قد يزعم البعض •

اذا وجدنا الصبر للنظر في الصعوبة عن كثب فقد نجد أن الشبه العائلي يستمر ، كما هو الحال بين لايوس وأوديب ، فكلاهما أعرج ، وكلاهما ضللته النبوءة ، كما تزوجا كلاهما من المرأة ذاتها • قد تصاب الروايات ، قديمها وجديدها ، بعاهات ولادية ، وقد تأخذ النبوءات مأخذاً جد حرفي ، وقد تنشيء علاقة حميمة مع القارىء • الفروق قائمة بطبيعة الحال ، ولو أن التعليقات والاعلانات تضخمها • فبعض العادات القديمة انقطعت • كالافتراض القديم بأن الرواية يجب أن تهتم بصحة تمثيل الشخصية والبيئة، وتهتم بالنظم الاجتماعية والاخلاقية التي تتعالى عليها ـ فهذا كله موضع تساؤل • والنتيجة هي غربة محققة عما اعتدنا معرفته بأنه الواقع ؛ ونتيجة أبعد يمكن الدفاع عنها بأنها ذات امكانات مفيدة ، هي استعمال التخييل وسيلة للبحث في طبيعة الرواية • ومع أن هذا ليس جديداً فقد تم الاعتراف به على نطاق واسع ، ولكننا اذا تقبلنا الجدة الى هذا الحد فيجب أن نضيف فورا أن أيا من هذه الأمور الجديدة لم يكن بعيدا عن أنظار القص الطويل في الماضي ؛ فما نتعلمه عن السرد قد يكون بمعنى ما جديدا • وان كان السرد في جوهره على الدوام ما نتعلم الان أن نظنه ، بقدر ما يكون ظننا صحيحا ، وان وجدت أسباب مقنعة لأن بدت الجوانب التي تهمنا أقل أهمية ، وكانت مدار استقصاءات أقل أو لم يتعرض لها أحد بتاتا •

لذلك نشك أن كنا نحتاج الى الحديث عن فاصل عظيم ـ حاجز تاريخي ـ بين القديم والجديد ، من المؤكد وجود فوارق في التشديد على ما ينبغي ان نقرأ، مثلما توجد في أساليب السرد ذاتها إعادات في ترتيب الأهمية والتشديد ، ولعل هذا يجب أن يعزى ـ كما يزعم النقاد الميتافيزيقيون ـ الى تحول كبير في بنى تفكيرنا ، ومع أن هذا قد يكون سببا كافيا لتغيير اهتماماتنا فلا يظهر أن موضوع تلك الاهتمامات ـ الذي هو السرد ـ يحاكي التحول •

قارن بالمشكلة السابقة مشكلة تاريخية أقدم • يذكر والتركير في كتابه

« الملحمة والرومانس » أن خضوع الملحمة للرومانس كان حادثاً دهرياً « كان تغير المزاج والاسلوب الذي مثله ظهور الرومانسات الفرنسية وموضتها تغيراًشمل العالم كله ومضى الى أبعد من مجال الأدب وتاريخ الأدب » (١) • والمؤلف يتحدث عما سمي فيما بعد « عصر النهضة في القرن الثاني عشر ، والذي لم يكن الانتقال من « نوع الشعر القوي » (٢) الى نوع آخر أكثر صقلا وغموضا ، وأقل بطولية• وفيما يتعلق بالتغيرات الأكبر في المجتمع فهو لا يكتفي بتحريها في الشعر والخطابة ، وانما في أنواع جديدة من رواية القصص التي « تحتوي على اخفاق الأساليب السابقة في التفكير والتخيل » (٣) • (الاخفاق) في هذا المقام كلمة قوية جدا ، و (التمييز) تقوم مقامها بكل تأكيد • ولا بد من القول أن اعادة تفحص طبيعة أداة وتصميمها ــ وهي هنا الرواية ــ يمكن أن يتعلق بأنواع أخرى من التغير الثقافي ، كما يقترح كير ، وان كان هذا مهما ضمن تاريخ السرد القصصي ولو كمثال على حالة يغدو فيها من الممكن والمرغوب التفكير في طبيعة السرد لا كما تعطى وتدل على نفسها ، بل كشيء يتعرض لتطورات شديدة التفاوت • يقول كير: « لم يطرأ بعد ذلك أي تغيير في أشكال الرواية أشد أهمية من ثورة القرن الثاني عشر ••• فقد وضعت بشكل نهائي خاتمة للقيود المحلية والمرحلية القديمة المفروضة على السرد » (٤) •

ربما كان هذا غلوا ، كما أن كلمة « خاتمة » قوية جدا • وبامكاننا أن نضيف الى سلطة كير أفكار يوجين فيناڤر الذي يتحدث عن أمور مشابهة في كتابه المعجب نشوء الرومانس » • انظر أولا الى أنواع الصعوبات التي تواجهها في « أغنية رولان » : مشاهدها المتمايزة المتقطعة ، وفقدان « الروابط والنقلات الزمانية والعقلية » (٥) • فيبدو من المستحيل الحديث عن أنها تملك بنية شاملة أو جملا سردية ، لأن هذا يتضمن سببية وترابطا وجملا اضافية ــ لا هذه الجمل المتتابعة دون ربط ، الأمر ذاته ينطبق على الأقسام اللاحقة : يموت رولاند ثلاث مرات ، كل مرة بطريقة مختلفة ، كأنه في قصة يقلم روب غرييه ، ويصر فيناڤر على أننا اذا حاولنا أن ننضد هذه الأقسام وكأنها زمانياً متلاحقة فسوف نشوه العمل الذي سيظهر أقل أهمية مما لو أننا بسطناه على سطح مستو

من الزمان والسببية ، ومن ناحية أخرى فان للرومانس سردا مستمرا من هـذا النوع ، ولكن المشكلات التي يطرحها صعبة كذلك ·· بل غـير مشروحـة لشدة صعوبتها · ويبدو أن الكتاب يتعمدون أن يطلبوا من قرائهم أن يعملوا بجد عند قراءة نصوصهم ، وأن يخلعوا معاني عليها (٦) · فعمل القارىء كعمل الكاتب ، انه الكشف المطرد عن المغازي غير المباشرة ، وفي القص يكون عمل القارىء قراءة الاشارات بما هو غير سردي · فالحقيقة هنا تعرف وتستثمر فيما يبدو طريقة غريبة · وقد يكون تماسك السرد القصصي من النوع الذي يخيب بعض التوقعات الثقافية ·

أما التعقيدات عند كريتيان دي تروي فهي أنه يتهم الى اليوم « بخروق في التماسك » (٧) · وقصته من هزيل مغيظة بشكل خاص ، وقد حل الثقات أشكالها باختراع سلسلة ملاحقات : سـلاح خارق ، ضربات حظ محزنـة ، أرض يباب ، الشفاء ، لكن هذا التسلسل والنموذج البدئي الاسطوري الذي تكتشفه في مؤلفات وستون ، لا يحدث في كريتيان ولا نص قبلة · (هذه هي حماستنا للتنظيم ، فحين حل اليوت لغز هذه الاسطورة « في الارض الخراب » أعاد نقاده بلورتها) ، على أن كريتيان لم يهدف الى هذا النوع من التماسك ، وتقديمه اعتداء عـلى نصه ـ بأن ننقل الى تفسير السرد قيودا غير ملائمة ، فما سعى الى تقديمه هـو ما أسماه فينافر « نمط من التشديدات غير المعلولة » (٨) ، وهي التسمية التي تبناها عن كلينث بروكس ، فهو لم يفترض أن كل الروايات الجيدة لا بد أن تكون من النوع الذي يمكن القول عنه ان كل شيء فيه « في محله تماما » (٩) فهذه مسلمة يصعب التمسك بها ؛ وان عاد الى النمو في القرن الثالث عشر ما يسميه فينافر « قيود التصميم » (١٠) ـ أي متطلبات التسلسل والخاتمة ·

وتغيب عن كريتيان صفات معينة يمكن على نطاق ضيق أن تربطهابالقصص المحكمة الصنع : الختام ، الشخصية ، احالة صحيحة الى مجموعة آراء عن الواقع· ان جزءاً من الرفض الحديث لهذه الصفات عبارة عن إعادة اكتشاف لخصائص السرد المعروف في القرن الثاني عشر : الصفـات التي يدعوها فينافر « ضفر الحبـال »

وتعدد الاصوات، ومقاومة الخاتمة ، ونواحي أخرى من مختلف توقعات التشديدات. واذن فما تكتشفه من الاصغاء الى كير وفينافر من اغنية رولان وكريتيان هـو أن الاكتشافات في طبيعة السرد وامكاناته يمكن أو يجب أن يجري حين نقوم باعادة تقويم لقطاع أوسع من المشهد الثقافي ، وان كانت الاكتشافات ذاتها تدور حول السرد ، وليس لها بالضرورة طابع يربطها ربطا واضحا بالتغيرات المرافقة لها. كما أنها لا تشكل تطورا لا يمكن التراجع عنه ، وهذا هو السبب في أن الكتابين يحفلان بارهاصات من ابحاث يقوم بها معاصرونا . كما نلاحظ أيضا الرغبة في العودة الى فرض قيود محلية ومرحلية . ان السرد سابق على كل ذلك ، وعلينا أن نفهم كيف يعمل دون مطابقته مع البيانات المحلية والانتقالية أريد الآن أن أتحدث قليلا عن رواية واحدة . ولأسباب أبينها فيما بعد ستكون الرواية قصة بوليسية . فقد بدأ هذا الضرب من القص يتطور في القـرن التاسع عشر ، وبلـغ في القرن العشرين درجة عالية من التخصص ، لذلك فهو مثل حسن على المبالغة في تطور أحد عناصر السرد على حساب العناصر الأخرى : فمن الممكن رواية قصـة بطريقة يكون هدف القارىء الرئيسي فيها أن يكتشف عن طريق تفسير الاشارات الجواب على مشكلة طرحت في البداية ويمكن أن تكون جميع الاعتبارات الاخرى تابعة لما سأسميه الفعالية التأويلية . ومن الواضح أن هذا التشديد يتطلب أن يكون عرض المعلومات ضمن سرد متتابع بدرجة تفوق ما في القصص الأخرى (وان كانت كلها لها جوانب تأويلية) بحيث يدفعنا هذا التتابع الى التساؤل « كيف أتت الأمور في محلها » وكيف « انكشف كل شيء » ؟ كما أن هذه المعلومات تقوم على حادثة ، في العادة ، تكون جريمة قتل ، سبقت السرد الذي يقدم الاشارات . ومن الواضح أنه توجد اختلالات في السرد أكثر تقليدية (ولو أن القراء سرعان ما يكتسبون الكفاءة اللازمة لتلبية المطاليب الجديدة) . وقد اخترت لهذا النوع قطعة معترفا بها اعترافا كلاسيا : « آخر قضية لترنت » ، وليس لدينا دراسة مفصلة لمثل هذه الكتب ، ويعود السبب جزئياً الى أن البعض لا يجدونها تستحق الدراسة، والجزء الآخر يعود الى وجود حظر على رواية ما يجري في النهاية ، وهذا الحظر اذا روعي يكبل التعليق ، لكنه يناسب استقصائي لأن أقوى القيود المحلية والمرحلية

ينص على أن الرواية يجب أن تنتهي ، أو تتظاهر بذلك أو يعين نقطة يخيب عندها التوقعات بأنها ستنتهي • لا بد من خاتمة أو تلميح اليها على الاقل • والحظر يقدس الخاتمة ، ويوحي بأن اعطاء الحل الذي يأتي في النهاية هو التخلي عن كل شيء ؛ الى مثل هذا التشدد يبلغ التحصص التأويلي • ولكن انتهاك الحظر في السياق الحالي ضروري ومرغوب ••

تعنى القصص البوليسية أكثر من بقية القصص بتوضيح سلسلة من الحوادث التي تعلق قبل بدئها أو بعده بقليل • ويطلب من السرد بصورته النموذجية أن يقدم عن طريق مختلف الاشارات الملغزة جميع البينات المتعلقة بالطابع الحقيقي لتلك الحوادث المبكرة التي يطلب من المحقق والقارىء أن يعيد بناءها ،والاشارات متعددة الانواع • فبعض المعلومات تنقل مجرد نقل ، وبعضها الاخر تبدو بسيطة لكنها ليست كذلك • وبالرغم من أن الكثير يظهر وكأن له علاقة بالمشكلة فانه لا علاقة له ، أو يكون له علاقة ولكن لا يبدو عليه ذلك • وبطبيعة الحال لا بد من تقديم نوع آخر من المعلومات، وهو النوع الذي يدفع السرد قدما ، فيوسس المحيط أو يشخص التحري ـ بوصفه كاهنا او مدرسا ، أو واحدا من سكان البلاد ، أو عجوز غريبة الاطوار ـ أو يشرح في كره الكثيرين للفقيد ، وغير ذلك • قدتكون هذه المعلومات غير مناسبة أو لا تكون للمشروع التأويلي الذي يشرع به القارىء، كما يمكنها أن تخفي اشارات أو تقدم اشارات زائفة • ولكنها بكل تأكيد تصرف القارىء عن مهمته التأويلية ، ما دامت تستحوذ على انتباهه • كما أن التداخل بين السرد وعمليات التأويل معقد بحيث أن المعلومات التي لا علاقة لها بالحوادث السابقة على السرد يمكنها أن تلفت انتباه القارىء فتغير مضمون الكتاب كله • وعلى كل فمن الناحية المثالية تظل نفرز البينة التأويلية عن غيرها من المعلومات، وتواظب على ذلك بالحاح يفوق ما نضطر اليه في أنواع أخرى من الروايات • اذ مع أن لجميع الروايات مضمونا تأويليا ، فان القصة البوليسية وحدها تعطيه مكان الصدارة •

في « آخر قضية لترنت » نجد العنوان ذاته ملغزا . فلا نكتشف لماذا تكون

هده أخر قضية الا في المقطع الختامي • والجملة الاولى في الكتاب هي : « بين ما يهم وبين ما يبدو أنه يهم ، كيف للعالم الذي نعرف أن يحكم حكما عاقلا ؟ » • ان هذا لغموض عجيب • لكن الراوي يشرحه على هذا النحو : رجال الاقتصاد الفاحشو الثراء ، مثل ماندرسون الضحية في هذا الكتاب ، أشخاص بالغو الاهمية في أسواق المال الدولية ، ولو لم يكن لهم أي تأثير في العالم الذي ينتج الثروات العملية • (لاحظ أيضا التوريط الزائف في قوله « العالم الذي نعرف » ممايوحي أن قراءتنا ستكون مسيرة دائما بماعمليه الراوي) • وبطبيعة الحال تشير الكلمات الى الصعوبة من الناحية التأويلية بأن تميز في الصفحات اللاحقة مايهم وما لايهم • وجدير بالذكر أنه لا يهم أن كان هذا الغموض مقصودا أم لا • فالقاعدة المهمة والمهملة في قراءة القصص انه حين يثار نوع معين من الانتباه فاننا نقرأ طبقا للقيم الملائمة لذلك النوع من الانتباه سواء أوجدت سلسلة من الاشارات التي تستفزنا أو لم توجد ، وقد نقرر أن لا نكون مطواعين فنجتنب تلك القيودالمحلية والمرحلية •

وجد المليونير ميتا على أرض بيته (١١) • أطلق عليه الرصاص في عينه • لم يوجد سلاح ، وكان على رسغه خمشات • وقد ألبس على عجل خليطا من ثياب النهار والليل ، وقد فقد طقم أسنانه ، ولم تكن ساعته في الجيب المخصص لها ، وكانت أنشوطة حذائه سيئة العقد • ومع ذلك فقد كان مشهورا بأناقته ، ومن الواضح أنه ارتدى بعض ثيابه أثناء فراغه ، وقد فرق شعره • وجد ترنت بين أحذية ماندرسون الجيدة حذاء ملويا قليلا كأنما دست فيه قدم كبيرة جدا • مما مكنه ، بعد تردد ، من أن يشك في مارلو السكرتير الانكليزي لماندرسون ، كما وجد أن مسدس مارلو قد استعمل في القتل وبصمات الاصابع على طقم أسنان ماندرسون وفي أمكنة أخرى ، ومع كل ذلك كان لدى مارلو حجة دامغة في الليل ساق سيارته الى ساوثمبتون في شغل لمندرسون • فاستخلص ترينت بحق أن الوفاة حدثت في وقت أبكر بكثير مما افترض ــ فقد أورد الكاتب غموض البينة عند هذه النقطة بصورة تدعو الى الشك ــ وأن مارلو في الليلة السابقة نقل الجثة الى حيث وجدت، فدخل الى البيت منتعلا حذاء ماندرسون ، وقام بتقليد جريء لرئيسه ــ حتى

انه تحدث مع زوجة ماندرسون ورئيس خدمه ـ وبعد أن زرع الاشارات التي توحي بأن رئيسه توفي في الصباح التالي سافر الى ساوثمبتون • كتب ترنت كل ذلك وأخذ الوثيقة الى الارملة الشابة التي عطف عليها لكنه شك في صلتها بمارلو، وربما في الاشتراك بالجريمة ، ثم ترك لهـــا أن تقرر ما اذا كان ينبغي كشف الوثائــع •

هذا هو أول « قص زائف » في الكتاب • وقد التقط الكاتب كل اشـــار تقريبا ، بما في ذلك ما لم أشر اليه ، بطريقة مرضية • ويمضي بعض الوقتحون أن يحدث شيء الى أن يقابل ترنت أرملة ماندرسون ثانية ، فيتأكد من غلطه فيما يتعلق بصلتها مع مارلو ، ويقترح عليها الزواج • يواجه مارلو القادر على تقديم توضيح لسلوكه ليلة الجريمة ؛ فقد كان ضحية مكيدة شيطانية من ماندرسون (يؤكدها كلام كثير عن دهاء المليونير وغيرته) لكي ينتقم من عاشق زوجتـــه المفترض بأن يرسله في رحلة مع مبلغ كبير من المال والجواهر • فاذا أطلـــق ماندرسون النار على نفسه اتهم مارلو بقتل سيده والفرار بالسلب • من حسن الحظ أن مارلو كان لاعب شطرنج ماهراً مثلما هو ممثل بارع ؛ فقد رأى مكيدة ماندرسون في اللحظة الحرجـة ، وفسر تفسيراً صحيحاً بعض الظواهر الشاذة في سلوكه ، فعاد بالسيارة ليجد ماندرسون ميتاً قرب النقطة التي فارقه عندهـا ، ولما كان يعتقد بأن من المستحيل عليه اثبات براءته بطريقة اخرى ، فقد سلك تماماً كما استنتج ترينت ، سحب الجثة الى البيت ، واستبدل مسدسه في غرفته ، ومثل التمثيلية في البيت ، قبل رحيله الى ساوثمبتون •

صار الوضع الآن أن الشرطة تقبلت التوضيح بأن ماندرسون قتل على يدي مبعوثي اتحاد أمريكي قاومه أندرسون ، في حين أن ترينت مايزال يعتقد أن انتحاره جزء من خطته للانتقام غير أن هذا مجرد قص زائف آخر ، وما يلبث أن يأتي مستر كوبلز الموثوق من قبل ترينت ، وعم السيدة ماندرسون ليكشف أنه كان الى جانب ماندرسون حين وجه المسدس الى رأسه ، وباندفاعـه الى الامـام وامساكه بالسلاح أطلق الرصاص عرضاً على رجل الاقتصاد • بالمناسبة هذا الحادث لم

يمر دون سابق انذار ، فقد هيء له باشارات خفية في الصفحات الافتتاحية ، ولم يلاحظها ترينت ولا نحن ، أن ترينت لن يخبر الشرطة ، لكنه ييأس من العقل البشري ، مما يدفعه الى أن يجعل هذه القضية آخر قضاياه ·

لو أن ترينت ركز على كوبلز الانتباه الذي ركزه على مارلو لما فاتته هذه الاشارات ، وسبب اغفاله لها بسيط : كوبلز ، انكليزي ، شريف ، ومن أهل الطاقة المتوسطة ، وترينت يفتخر بنفسه في معرفته للقيمة الحقيقية للناس ، وان كانوا لايحظون بتقديره الا اذا استجابوا لتلك المواصفات ، فلا يجوز أن يكونوا رجال شرطة ولا خدماً ولا أمريكان · والشخصيات التي يظن أنها عاجزة عن ارتكاب الشر هم السيدة ماندرسون ومارلو وكوبلز ، ومن ناحية أخرى تجد أن ماندرسون فاحش الثراء ، شديد التقوى ، عديم الرأفة ، وليس انكليزيا · ان الشرطة بطريقة ما على حق ، فالقاتل أمريكي ، الا انه ماندرسون نفسه وليس قتلة من اتحاد العمل ·

ان مهمة الكاتب بطبيعة الحال أن يخدعنا عن اشاراته ، ولكن من المهم لكي يقوم بذلك أن يقدم معلومات لا تعطلنا عن متابعته· فمن المهم أن يكون ماندرسون غيوراً ، متآمراً ، مستغلا للفقراء ، وأن ينعكس ذلك على أمته · ويلاحظ مستر كوبلز في هذه الايام التي لم يسبق لها مثيل أن « التفاوت بين مركبات المجتمع المادية والخلقية » ظاهر بشكل خاص في الولايات المتحدة ، ولكي يلقي الكتاب الشك على اتحاد العمل الامريكي يدعو القارىء طوعا أو كرها الى القيام باستنتاجات بناء على أسس جديدة تماما ، فيذكرنا بأن الشهوة للمال ، والخلق الجامد ، والاضطراب الاجتماعي ، والتأمل الأحمق ، والغرور النابوليوني والجنون العرضي ، صفات أمريكية نموذجية ، ولا يقنع مارلو غروره القومي بل يغامر بتفسير قومي · فقد نظر في نسب ماندرسون فوجد أن أجداده كان لهم نساء هنديات · يقول : « توجد نسبة كبيرة من دم سكان البلاد القدماء في أنساب الشعب الامريكي » · وحظوه أنه كان تحت الانطباع بأن اكتشافه لهذه اللوثة الهندية قلب ماندرسون ضده · غير أن التهمة تظل صحيحة ، حتى ولو لم يكن مختجلا من دمه الاصلي ،

ما دام في وسع كوبلس أن يتحدث عن « مزاجه الموروث بشكل ظاهر من الغـيرة الشكاكة » ومن حسن حظ السيدة ماندرسون أنها تزوجت من ترينت ٠

أهدى بنتلي كتابه لتشسترتون الذي كان يعتقد أن المتمولين اليهود أشعلوا حرب البوير ليعلموا الناشئة كيف يذبح أحدهم الآخر ٠ قد لا يؤكد التاريخ ذلك ، ولكن اذا أضفنا ذلك الى ما هو معروف من النزعات الاستعمارية عند الانكليز في العهد الادواردي أمكننا أن نرى شيئاً من الشوفينية في الحكايـة ، وان كان من المفترض أن بنتلي قصد أن تظـل غـير واضحة ، غـير أن وضع الاشـارات يقودنا حتمـاً الى الاسـتنتاج بـأن لهـذه الروايـة مغزى ثقافيـاً اذا حاولنا ايجاد وصف شكلي للنص أمكن أن ندرج المغزى تحت عنوان ، « أسطورة أمريكا في أوائل القرن العشرين » ٠ وقد استلزمت معالجة المواد التأويليـــة اعداد مادة أخرى يُمكن أن تستنتج منها منظومة ايديولوجية : الامريكي بالنسبة للانكليزي مثل الحد الاول بالنسبة للحد الثاني في كل عضو من هذه السلسلة: غني ــ غير غني ، غير مثقف ــ مثقف ، قاس ــ رقيق ، مستغل ــ أبوي ، بليد ــ حساس ، وهكذا نزولا الى الملون ــ الأبيض ٠ وهكذا فان التأويلي يفرخ الثقافي٠

كذلك فانه يفرخ الرمزي ٠ فترينت مثـلا يحل الاحجية حلا جزئيـا فقـط (فالحل الكامل يتطلب معونة كوبلز العجوز ــ الاسم الحي لتريسياس) ، وهو يخلف رجلا يبلغ من الكبر أنه يصلح لأن يكون والد زوجته ، وبالتالي والـد ترينت نفسه ، ولا ريب في وجود تبديل كبير بطبيعة الحال ، غـير أن الاسطورة أوديبية ٠ وهكذا نرى أن رواية بنتلي ، ولو أنها في بدايها لعبة تأويلية ، تقدم حتماً معلومات تمكننا ــ ان لم نكـن مسايرين ــ أن نشـرع مستقلين عن مقاصد الكاتب أو ارشاداته لأنـه ليس مصدر الرسالة ولا حجـة في قراءتهـا ٠ جميع الأقاصيص مثل هذه ، سواء أكانت توجيهية أو دفتر حالات المرضى لمحلل ، أو رفا في مكتبة ٠ ومن الجلي أن النوع الذي يقدمه بنتلي تسيطر عليه المعلومات التأويلية ، غير أن تقديمها بصورة قصصية يشغل منظومات أخرى للقراءة أو التأويل ٠ وللوثوق بالحكاية عواقب غير منظورة ، كما قـد يعلم جميع قراء « دراسات في الادب الكلاسي الاميركي » ٠ ولعل الامكانات المتضاعفـة التـي

لا يعرف غورها ، والتي تلازم السرد » بحجم معين » تكشف من نفسها بهـذا النوع من التفحص ، مهما كان النص محدوداً من الناحية النوعيـة ، ومقاوماً لتعدد المغازي ٠

لنتابع هـذا المثال البالغ الاهمية في التطور التأويلي ٠ يقـال في رفض الرواية القديمة ان بعض صانعي الرواية الجديدة الواعين قد أولوا الرواية البوليسية عناية خاصة ، وعللوا ذلك بأنهم لا يثقون « بالتعمق » ٠ فهم يعتبرون الرواية التقليدية بالتعاقب الوهمي الدقيق التطوير فيها ، وبتشخيصها الشكلي ، نوعا من أنواع الحياة لذلك فهم يعجبون بالرواية البوليسية التي يسيطر فيها الجانب التأويلي على حساب « العمق » ، والتي لا تحفل بالشخصية ، والتي يوجد فيها بالضرورة عدد من الالغاز المتعاقبة التي تكبح التدفـق الزمني وتشوشه لأنها تتعلق بسلسلة من الحـوادث المبكرة والمتفاوتـة ٠ كما أن وجـود اشارات غامضـة أمر بالـغ الأهمية خاصـة اذا أقلعت عـن فكـرة أن هذه الاشـارات ـ ـ وفي هذا تغيير رئيسي ـ يجب أن تنغلق على بعضها وبعض بدقة كبيرة ، وتخلت عن محاولة وضع خاتمة تأويلية تامة (فكل النهايات السائبة ترتبط معا) ٠

ولو رجعنا الى ١٩٤٢ لوجدنا ريموند كوينو في تعليق له على روايتـه « بيرو ، يا حبيبي » يتحدث عن « القصة البوليسية المثالية التي لا يحجب فيهـا فقط العنصر الاجرامي ويطل غير معروف ، بل يغيب فيها أيضاً عن المرء ان كان فيها جريمة ومن هو التحري » ٠

بعد احدى عشرة سنة نشر الان روب غرييه أول رواية من روايات الموجة الجديدة ، « المحايات » ، والتي تشكل اقتراباً من ذلك المثل الأعلى ٠ فالتحري عنده أكثر امعانا في الخطأ من ترنت ، ثم يتضح أن الجريمة التي يحقق فيهـا لم ترتكب بعد ـ ان لم نسرف في التعبير ـ وأنها حين ترتكب يكون القاتل هو التحري والاس ، ويكون الضحية أباه ـ على أبعد احتمال ، ولمـا كان والاس مفتوناً بامـرأة نتبين أنها امـرأة أبيه ، ولما كـان يلقي ألغازاً مثل : أي حيـوان يكون كذا وكذا في الصباح ، وفي الظهر ٠٠ الخ ، ولما كان يبحث عن ممحاتين

ماركة « أوديب » ـ فقد ورث صفات ترينت الأوديبية ؛ وان كان يعيش في نوع آخر من السرد مختلف عن المذكور ، فهنا تجد الحوادث والشخصيات مزدوجة ، والأشياء ـ بما فيها البندورة ـ موصوفة بتفصيل مهلوس وان كان فيه دلالة تأويلية غامضة جدا ، ومع أنه زائف بداته فانه ليس مجرد قمر زائف • فترينت يعيش دون متاعب في كتاب يزدوج به جريان الزمان ، أما والاس فيغرق فيه يائساً • وترينت يسيطر على معظم الانشمارات ، في حين أن الانشمارات تتحكم في والاس • كذلك فان المحاكيات في شغل شاغل طول الوقت ، تمحو الرواية الخاتمة حسب تعبير بارث • « تتم وفق الطريقة المتبعة » فيبدو أن الروايات تمحو نفسها بدلا من أن تشيد حقيقة واقعية ثابتة • وتوجد علاقات وأصداء داخلية ليس لها مغزى خارج النص ، ولا تشير الى معنى خارجي ، ويبدو أن الكتاب يحاول أن يفصل نفسه عن كل ما يقع خارجا عنه •

ثم انتشرت هذه البدعة رواية ميشيل بوتور « استعمال الزمان » كتبت بعد ذلك بسنوات قليلة ، وهي أيضاً بطريقتها الغريبة المعقدة وغير المنلقة قصة بوليسية ، شاب فرنسي يقضي سنة في مدينة بلستون الانكليزية النائية ، فيجد نفسه حانقاً عليها ، وبعد سبعة أشهر من السلبية يستجمع قواه ليهزم المدينة فيما تبقى له من الشهور الخمسة بأن يعيد اقتناص الزمن الضائع ، فيكتب تقريراً عن تلك الشهور الضائعة • ان جريان الزمان المزدوج يغدو مضطرباً حقاً • ففي فصل بعنوان « ماي ريفيل » يستعيد مباشرة أحداث تشرين الأول ، وفي حزيران تختلط أحداث حزيران بأحداث تشرين الثاني ، وهكذا يزداد التعقيد حتى يسرد في ايلول أحداث أيلول وتموز وآذار وآب وشباط كلها معا ، لأنه لا يكتفي بتذكر الماضي فقط بل يعيد قراءة مخطوطه مذعورا • يصبح الكاتب الكاتب الشاب نفسه بخرائط المدينة بشكل مستمر ـ اذ أن المدينة سحرية بمتاهاتها ، وأمتع ما في قصصه قصة (جريمة قتل في بلستون وجريمة قتل بلستون) وهي قصة ذات طبوغرافية بالغة • اذ أن ريفيل يقابل مؤلفه ويكشف عن هويته ، وهذا عمل طائش يؤدي الى الاعتداء على حياة المؤلف •

ان « جريمة قتل في بلستون » قصة ملغزة محكمة الصنع ، حسب كل التقديرات ، كما نجد ، مئات الالغاز من كل الانواع ، وان كانت لا تقوم بوظيفتها بشكل تقليدي ، ففي وسعنا أن نرى كيف يصوغها ريفيل بتعاقب تأويلي ، بل اننا نقوم نحن بتأليفها ، ولكن لا يمكن حلها ، انها تظل قابعة في ماضي المخطوط : فنافذة قابيل في الكاتدرائية القديمة لا توحي فقط بقتل الاخ بل بأول مدينة وبيلستون أيضا ـ الا انها ناقصة ، مثل الرواية ذاتها وبقية الاعمال الفنية فيها ، ان لها علاقة ـ ولكن كيف ؟ ـ ببقية المدن الوارد ذكرها: بطرا ، بعلبك ، روما المحترقة ، ومتاهة كنوسوس • وبالطريقة ذاتها نجد أريادن الاسطورية تتبطن الفتاة روز ، ولكن بشكل غير تام ، كذلك فان تيسيوس (توأم أسطوري لأوديب) يتبطن الكاتب ولكن بشكل غير تام • فالكتاب يتحول حتما الى موسوعة : الكاتدرائية القديمة تقدم نظرة نظامية الى العالم ؛ والكاتدرائية الجديدة بنقوشها الدقيقة من نبات وحيوان وبترتيبها الحديث الملائم للمخلوقات النباتية والحيوانية ، تقدم نظرة الى العالم تناسب القرن التاسع عشر • وجريمة القتل تحدث فيها ، أما الانتقام فيأتي أخيرا من خلال الضوء الاحمر في نافذة قابيل في الكاتدرائية القديمة • غير أن هذا كله والعديد من الاشارات التي تلائم التأويل زائفة ، فكل شيء يبقى بلا اغلاق ، بلا اتمام ، ونحن نراقب ريفيل يخفق في محاولته لدمج كل شيء في وحدة ، ولجعل الالغاز تعمل مثلما تعمل الالغاز في قصة بوليسية •

ج • سي • هاملتون ، مؤلف « جريمة قتل في بلستون » يحاضر بشكل متقطع عن هذا النوع في الادب ، وهو يقول يجب أن تضم الرواية جريمتي قتل، يكون القاتل فيها ضحية الجريمة الثانية التي يرتكبها التحري ، وسلاحه فيها « تفجير الحقيقة » ، التحري على خلاف مع الشرطة ، كما تقتضي التقاليد غالبا، (وهذه في نظر بوتور ايماءة الى أفضل علاقة ممكنة بينه وبين القارىء) ؛ولم ينشأ خلافه معهم بسبب عنايته بالمحافظة على النظام القديم ، بل لاعتنائه بفرض

نظام جديد ، ولذلك ينقذهم (كما فعل ترينت) ، ويبلغ وجوده ذروته لحظــة تستطيع رؤيته الدقيقة أن تحول الواقع وتطهره ، يضاف الى ذلك أنــه أوديب بحق ، « لا لأنه يحل الاحجيات وانما لأنه يقتل الرجل الذي يدين له بلقبــه ولانه أثيم بهذه الجريمة منذ يوم مولده » (١٢) ويمضي هاملتون فيحاج بأن « الرواية تتطلب في أحسن حالاتها بعدا جديدا » ومن بين الاسباب التي يقدمها لتعليل قوله هذا أن لمثل هــذه الروايات سرداً لا يقتصــر على أن يكون اسقاطاً عــلى سطح منبسط لسلسلة من الحـــوادث وانمــا يعيد بناءهـــا وكأنهـــا في الفضــاء (١٣) • ويضيف ريفيــل أن في تفجير الحوادث قبل افتتــاح الروايــة ، تمتلك مثل هذه الرواية حقيقة لا نجدها في غيرها من الانواع ، لأننا نستغرق في مصائبها بعد حدوثها ، ونعيش حيواتنا في هذا التقاطع بين الماضي والحاضر• لهذا السبب شعر أنه مضطر الى هجر البساطة في مايس حين جلس ليكتب ما حدث في تشرين الاول ، لمصلحة القصة البوليسية يقوم الكاتب بحركاتـــه المعقدة في متاهة الزمان والذاكرة •

غير أن المحاولة أخفقت ، والالغاز غير ملائمة ولا مقلقة : فجميع سلاسل الموضوعات ، والاعمال الفنية ، والنظائر الاسطورية ، منحرفة - فلن يحطم أي انفجار للحقيقة مدينة بلستون • ان هذه التناظرات الزوجية الهائلة التــي تحتل التناظرات الفردية ، تجبرنا ـ كلا من وجهة نظره ـ على التحديق في النص ، واحداث الملائمة الموافقة لنا ، واقامة ترتيب جديد للواقع داخل النص ، ترتيب من اختراعنا ، وقد تحدث بوتور بنفسه عــن « تمدد الاصوات الفضائي » ، وسيتحدث بارث حين يتفحص مثــل هذه الظاهــرة عن « التصوير المجسم من الفضاء » ، ونحن نقوم بقراءتنا في حدود العلاقات المقامة من خلاله ، بحيث نغير نظرتنا ونفوسنا ـ اذا تحدثنا بشكل مثالي ـ ثم نبدل آراءنا فيما يهم وما لا يهم وذلك لأننا في العادة نعيش بحالة هدنة مع العالم ، مفترضين وجود تطابق بينــه وبين الرأي الذي كوناه عنه • فيمكن للرواية أن تكون انتقادا للوعي العــام • ويمكن أن تظهر أن تلاؤمنا العادي زائف ، وتهاجم الطريقة التي نضفي بهـــا الشــرعية على اعتقاداتنــا • فلا يبــدو غريباً القــول ان روايات جــورج ايليوت

انتقادات للوعي العام • وبدون نسيان أن الرواية تستطيع أداء كل تلك الامور، بامكاننا الاقرار بأننا مساقون الى اصدار نظام ما ، وان هذا النظام لا بد أن يكون ـ جديدا ، فالمسألة لا تقتصر على مجرد الموافقة على هذا النظام •

على هـــذا النحو تحولت التحمصات التأويلية في القصة البوليسية الى اهتمامات « بالحقيقة » ، حين تمكنا مـن العيش في العالم كما هو ، كما هـــو بساطته ، فيتقمصها كل معنى سوى ما نستفيده في نصوصنا • وبحسب هـــذه النظرة فان كل رواية ينبغي أن تتحدى التوقع التأويلي البسيط الذي تصممه، لأنها تصممه فقط حـــين اذا تقبلنا التصميم الزائف بأن العالم ذاتـــه منظم ، ومشحون بعلاقات قابلة للاكتشاف ويقسم نهاية (للمشكلات) • وكما يؤكد لنا علماء الاجتماع ، بما أن « الآلية التصويرية للنظام الكوني هي ذاتها من انتاج الفعالية الاجتماعية ، كما هي الحال في كل أشكال الشرعية » (١٤) ، فلا تدهش أن الكتّاب الفرنسيين بتكييفهم للقصة البوليسية وفق أغراضهم قد عبروا بنية ثورية • فهم عادة يرغبون أن يروا فيما يصنعون مثالا لتغيرات أكبر في السياسة، و بشكل أعم في تأسيس نظرة عامة حديثة الى العالم فهم يرون ان التحري الاوديبي لم يعد يهتم بالالغاز المضمونة الحل ، بل غدا بشيرا بنظام جديد ، وقد عدت المشكلة المركزية مشكلة اعادة القراءة ، والقراءة للمرة الثالثة ، لأنها تتطلب منا أن نعيد تكييف أنفسنا ، وان نتحرك في عوالم غير متحققة على الصعيد التقليدي• فالرواية قد « نقصت » ، وأنماط مثل كريتيان عادت من جديد تتحدى القارىء• عليه أن ينسى كيف تعود ان يقرأ • فبما انه مضطر بقيود محلية ومرحلية فعليه أن يكف عن اختراع أساطير بنائية، ويطور بدلا سهاهمائية ابداعية يتطلبها دائما السرد الى حد ما ، وان أمكن أن تصاب بالكلال لفرط الألفة وتلبية توقعـــات مسيطرة • وأظن أننا بهذا الغرض نوفي الجدة حقها كاملا • فهي تبلغ الى معرفة حية ، وطريقة جديدة لتقرير ما كان معروفا من قبل ولو عن طريق الحدس على الاقل • « انفتاح » النصوص ، و « عدم تعديها الى العالم الخارجي » ، والروح الادبية الصحيحة فيها • هذه المعرفة الجديدة مضطرة الى تغير الاتجاهات التقليدية

تجاه النصوص الجديدة والقديمة وان نشأت هنا صعوبة ، هي محدودية النقد الذي يمارضه النقاد الجدد ويناصرونه الدام •

كيف تتخلى عن نوع القراءة التي تذعن للقيود المحلية ، والمرحلية وتقويها؟ لقد بدأنا بذلك من زمان طويل ، ولا بد للمرء من أن يأسف لسوء الاتصالاتمع باريس ، فنحن الذين لدينا البروفسور امسون والنقد الجديد منذ أربعينعاما، وقل أن نحتاج الى من يخبرنا بأن النصوص يمكن أن تكون متعددة المعـــاني ، ويصعب علينا الاعتقاد بأن جميع الأساتـذة ينكرون ذلك • على أن هذه الفـروق لا تقدم لنا العذر في اهمال ما قيل ، كما لن تعذرنا على الاهمال قلة ثقتنا بسياسات النقد الفرنسي الجديد وفلسفته ومشاجراته • فلديهم عن المنهج ما يعلمونـه للنقاد التطبيقيين ولا يقتصر ذلك على شغلهم على النصوص الجديدة • ان رولاند بارث ، أحد أوائل المتحمسين لروب غرييه ، قد مضى بعيدا بالامكانات النظرية للرواية الجديدة في أول عهدها فادعى ــ قبل أن يعرف كتابها قدرتها ــ أن «محو الحادثة» قد تحقق في الرواية أخيرا (١٥) •

بعد ذلك ، وقد شايعه نقاد بنيويون آخرون، اهتم بمحاولةالشكليين الروس قبل أربعين عاما لايجاد مناهج لوصف قصة أو رواية كما يصف فقيه اللغة جملة ــ أي دون اعتبار للمعنى الذي تريد أن تبلغه ، بل يهتم فقط ببنيتها • وهذا يوافق رأيه في أن على الادب أن يناضل ضد اغراء المعنى (١٦) ، وأن عـــلى علم الأدب ، كما يسمي المشروع الجديد ــ أن يعمل كما تعمل اللسانيات •وصك كلمة Ecrivance تمييزاً للكتابة الجديدة عن الادب القديم الـذي يعتمد عـلى الاحالة الخارجية •

كان المشروع البنيـوي ــ أو الشكلي الجديـد ــ في السنـوات الست الماضيات عـلى غايـة النشـاط ، فاستنبط الكثـير من الطرائـق لوصف النص وصفاً عملياً (١٧) غير أن بارث بدأ يتململ منه ، فلم يعادل المهمة المتوخاة منه في وصف النص في فرادته وتميزه ، في كتابه S/Z (١٩٧٠) وضع اجراءات جديدة واختبرها في قصية بلزاك « ساراسين » •

فهو يحاج بأنه لا ينبغي احالة النص الى نموذج بنيوي ، بل يجب أن يفهم على أنه سلسلة دعوات موجهة الى القارىء لكي يبنيه • فهو شبكـة من المغازي ، من أشياء ذات مغزى ينتصها أن تدل على مغزى ، وفي وسع القارىء أن يدخل المغزى حيث يشاء ، فعليه أن ينتجه لا أن يستهلكه ، فكأنه يكتبه ، وبما أنه غير قابل للاحالة الى الخارج فيمكن أن يدعى « نص قابل للكتابة » وهو يسمي النصـوص الكلامية « قابلـة للقراءة » اذ ينقصهـا تعددية معـاني النص القابل للكتابة ، لأنها تمتلك معنى لا يمكن الا أن يكون ايديولوجياً ، وفي بعض الوجوه ، كما في القصة ، يمتلك النص توجيهاً ينبغي عليه « النص القابل للكتابة » أن يتجنبه ، وبعبارة أخرى ، فان للقابل للقراءة قيودا محلية ومرحلية ، أما النص القابل للكتابة (والذي ليس له مثيـل) فليس لـه مثل هذه القيود •

يمكن تلخيص تحليل بارث في خمس قواعد تملل ما نقوم به أثناء عملية قراءة نص ، وتتعلق كل قاعدة أو أكثر بوحدة كلامية أو هذه القواعد حافلة بالوعود وان لم تكن مرضية تماما ، تتعلق اثنتان منها بما نعتبره سردا قصصيا وتتميز بأنها قاعدتان تأويليتان : وهمـا توالي الافعال (وذلـك يعتمد على الخيارات) وطرح ألغاز تجد الحل بعد تأخير واخفاء ومراوغة • تتعلق القواعد الاخرى بمعلومات لم ترد على التوالي معلومات دلالية (سمانتية) وثقافيـة ورمزية ، وتقع على محور شاقولي وليس افقيا بالنسبة للعمل الفني ، وتظـل غامضة الى حد ما خاصة بالنسبة لتحريم تنظيم بعضها على أسس فكرية •دراسة هذه القواعد تختلف عن دراسة المعاني ، وتقتصر فقط على وصف تعددية النص كما تفهمه القراءات التي يفترض أن تكون كفؤة • في الكتابة « القابلةللقراءة » (ككتابة بلزاك مثلا) تكون التعددية محدودة ، والعكس مــن ذلك في النص القابل للكتابة • القابل للقراءة ملتصق بمعرفة مهجورة • ولكن حتى في النص القابل للقراءة يوجد انتقال من قاعدة الى قاعدة أخرى : فالمغزى ذاته قد يعمل وفق القاعدتين الرمزية والتأويلية (كاخصـاء زمبينلا في قصة بلزاك أو الألغـاز الرائقة عن العنف الامريكي في « آخر قضية لترينت » • وعلى الرغم مــن قيود

التعددية المحدودة ـ كالالتزام باغلاق اللغز ـ فيمكن أن يقف العنصر الرمزي والتأويلي في النص القابل للقراءة ضمن علاقة مع العالم الخارجي • وصـار بوسعنا الان أن نرى ما منع مؤلفي النصوص القابلة للقراءة من الرؤية •فقبل كل شيء نفهم أنه لا توجد رسالة ينقلها الكاتب الى القارىء : « في النص الذي يتكلم عنه القارىء » (١٨)

اذا تجاهلنا نزعات بارث الايديولوجية ـ وهي في حد ذاتها قيود محليـة ومرحلية ـ يمكن أن نجد في قواعده طريقة واعدة للتقرب من مهمة وصف ما يجري حين نقرأ سرداً قصصيا • وهو يبدو محدوداً جداً في كتابه S/Z ازاءقضية العمليات التأويلية عند القارىء ، ولا شك أن هذا يعود الى طبيعة النص الذي يتفحصه • ولكن لا شك أيضاً أنه تجاوز القيـود التعسفية التي ظنها قواعـد • وربما ساعدنا نوع القراءة التي يصفها على تطهير أدراكنا ازاء مسائل السرد القصصي • أحد الأمثلة على ذلك أن علينا تغيير أرائنا حول الخاتمة المقبولة التي يستغلها التخصص التأويلي في القصة البوليسية ، وكان طرح هذه المسألة من قبل كويتو وروب غرييه مقدمة لفهم جديد يقول انالخاتمة التأويليةوالانواع الأخرى منها ليست جانباً من جوانب السرد القصصي بل هي أمر طارىءوعرضي• وكان هذا درسا لقنتنا اياه الرواية الجديدة والقواعد التي وضعها بارث •

يبدو من الخطأ المحاجة بأن تلك القواعد تضع حداً فاصلا بين ما يدعى رواية ، بكل ما لها من صفات وشروط تبدو جوهرية ثـم تتكشف من أنها شـراك مرحلية ، وبين بعض القصص التي تتخـلى عنها • فقد شاهدنـا بعض القصص البوليسـية التي تعـد كلاسية تسـبق الى التصوير المجسـم بألغاز غير الملائمـة وتلاعبها الحر بين القانون الرمزي والقانون التأويلي• ان الاستبصاراتالجديدة في طبيعة التخييل هي أيضا استبصارات في الرواية ـ لأن جميع الرواياتتقترب من التصوير المجسم حين تريد ارضاء القارىء (ولنعترف بأن هذا المعيـار فج ولكن يمكن الدفاع عنه) •

ومع أن « ساراسين » نشرت عام ١٨٣٠ فانها مهمة من الزاوية السابقة ، ويسميها بارث « النص المحدود » ; ومع أنه يسميها أيضا مثالا على « الأدب الملآن » فان موضوعها الذي يدور حول الخصاء يعكس برموزه اهتماما بالحاجة والفراغ ، ويستغل تضارب الخصاء مع الجنس ، والفراغ من الامتلاء ، و Z مع S ٠

ومع أن « ساراسين » تقع في الجانب الخاطيء من الخط الفاصل بين الأدب الحديث والكلاسي ، فانها لا تقتصر على ايضاح محدودية التعددية في الادب الكلاسي لكنها تشير الى ظهور الأدب الفارغ الذي خلف نظرية المعرفة الراهنة « الادب القديم مثلما خلفت الاشارة الرمز ٠

يظهر أن علينا أن نستنتج أن روايات الماضي جميعها التي نجد فيها ما يعجبنا تشترك مع الرواية الحديثة في أنها لا تتحمل التفسير الذي يفترض معنى محدداً ، وتحت تأثير مهاترة فرنسية محلية ، يتحدث بارث دائماً وكأن النقاد التقليديين ينكرون تلك المسلمة ٠ وهذا غير صحيح خارج فرنسا بطبيعة الحال ٠ فهو يقول بطريقة جديدة يمصى ما أموراً نعرفها من وقت طويل عن تعدد معاني النصوص الجيدة ٠

ومع ذلك فما يزال بعض النقاد يشعرون بالفزع من الفراغ ٠ فابتكار الاساطير لشرح اشارات كريتيان الى قصص غريل مثل واضح عن استمرار ميل النقاد الى الخاتمة ٠ وأمتع ما في الامر أن هناك روايات معاصرة تحتوي على هذه الاختراعات الأسطورية التي وضعت جهاراً لتحبط الخاتمة ، فتقدم جيمس أمثلة كلاسية على ذلك وبالأخص في « النبع المقدس » ٠ ويقتضي الأمر مرور زمان طويل لفهم مضمون هذه التجارب في اخفال التعددية والخاتمة الناقصة ٠ ومع ذلك فان نجاح مشروعاتنا التفسيرية لروايات ديكنز مثلا دليل على أننا قدمنا تخمينات جيدة عن مثل تلك المضمونات ، بطريقتنا غير المنهجية ، ولاحظنا أنه لا تلوح حدود يمكن تمييزها لعدد الابنية التي تحملها : ان ما ترفضه ترفضه بالحدس ٠ وما يزال الامر الابسط من ذلك أن طول كل ما تسميه رواية ينبغي

أن ينبهنا الى أنه يحتوي على الكثير من المعلومات التي لا يستفيد منها الناقد مهما التزم بتفسير واحد • فاما أن يلم بها من بعيد أو يتجاهلها ، واحياناً يتصرف وكأنه يظن بوجود أمور من الضروري للرواية أن تفعلها ـ لأنها رواية وتحتاج الى الظهور بمظهر انها صحيحة ـ وان لم يكن ذلك من عمل الناقد كما يقول بارث: « فيجب أن يكون ذلك مختصراً وغير ذي معنى » (١٩) •

وهو في أحسن الاحوال يعالج قسماً ضئيلا من المعلومات الواردة في النص، وهي معلومات يمكن معالجتها ـ كما نعلم كلنا ـ بطرق متعددة تجعل تعدد وجود النص امرا مؤكدا •

وكما بينت قبلا ، فان الروائيين استغلوا من زمن طويل معرفتهم بأن الرواية بطبيعتها متعددة ، ولا يحتاج المرء أن يضيف الى جانب اسم جيمس سوى اسم كونراد الذي ابتكر الفجوة التأويلية قبل زمان طويل من توسيع روب غرييه لها بحيث تشمل النص بأكمله • فقد أبصر هؤلاء الكتّاب طرقاً لاستخدام حقيقة أن معاني السرد القصصي دائماً « رهان » الى حد ما ، فاستثمروا هذا الاكتشاف وكتبوا ليظهروا مدى طابع الحسم فيه على الرغم من الغموض الذي ظل قائماً حوله • وبذلك يكون بارث قد وجد طريقة يمكن أن تكون مفيدة في الحديث عن شيء كان البحاثة الروائيون قد ألقوا عليه الضوء من قبل •

لنأخذ مثلا بسيطا : في رواية « تحت سمع الغرب وبصره » يغادر رازوموف روسيا ليعمل مخبرا للشعب » • ولا نعلم الا فيما بعد كيف دبر ذلك • لقد ساعده طبيب عيون • وفي الرواية عدد كبير من التلميحات ، قليل منها هام في السرد الروائي ، وهو يتعلق بالعيون والابصار • وبعضها يتعلق بالفرق بين الروس وغيرهم ، وبين روسيا وسويسرا ، وبعضها الاخر يتركز على تقديم الآنسة هالدين• كل ذلك يمكن تصنيفه وفق قواعد بارث التأويلية والدلالية والثقافية والرمزية ، كما أن مرونة التداخل بين هذه القواعد واضحة • فهي أكثر تعقيدا من رواية بلزاك • ومن مثل هذا النوع من الكتابة تنشأ الحاجة الى ابتكار وسائل شكلية

لوصف التعددات ، أكثر من الرغبة في تطوير وسيلة قادرة على تحليل أي سرد (ولو أن بارث قد ينكر ذلك) • ان الوفرة في تداخل المغازي المتعددة كانت من اختراع روائيين تفحصوا امكانيات السرد؛ أما كفاءتنا لقراءة هذا السرد فتتوقف على وجود نصوص تتطلب مثل تلك الكفاءة •

وبالمناسبة ، فمن الصحيح تماما أن نقول مع بارث ، ان مسألة ما اذاقصد كونراد بالزيارة الى طبيب العيون أن تدل على كل ذلك ، مسألة ليست موضع بحث • فهي ببساطة في طبيعة القضية • وبهذا المعنى يصدق القول : « ان النص هو النص الذي يتكلم عنه القارىء » • فاذا تعلم القارىء من نصوص معينة كيف يتكلمفسوف يطبق ذلك على نصوص أخرى ، بما فيها النصوص الكلاسية ، القابلة للقراءة ؛ وهذا هو السبب في أننا نستطيع دائما أن نجد أشياء جديدة نقولها عن نص كلاسي • ففي وسعنا أن نعيد بناءه من جديد • لقد طرأ تطور على قراءتنا وليس على النصوص ؛ فنحن نعرف أن الرواية لا تنقل ببساطة رسالة رمزية من المؤلف ، وهذه المعرفة تزداد وضوحاً حين نضطر الى التعامل مع رواياتمثل « تحت سمع الغرب وبصره » لأنها تؤكد قابلية خطأ كل ما يبدو صحيحاً الى آخر صفحة ، وهذه لا تقدم خاتمة بل شركا تأويليا (٢٠) • ونظرات الرواية الى روسيا ، مهما قيل فيهـا لا تمثل رأي كونـراد ، فلم يكن بصره غريباً • فالفـرق في زوايا الرؤية تؤدي هنا ، الى تجسيم تصويـري صحيح • ويصلح تعبير « زاويـة الرؤيـة » لتذكيرنا بوجود محـاولات مبكرة في التراث الانكلو ـ أميركي لحل المشكلات التي تشغل بارث • وهي كامنة في السرد القصصي ، وبارث لم يكتشفها ولا أظهر أنها جاءت الى الوجود مع تغييرات ثقافية كبرى في العصر الحديث •

يريد المنظرون الفرنسيون رواية دون احالة متعالية مثلما يريدون عالما غير مؤمن • وهم يريدون أن يستحيل على أي شخص أن يستعيد المحلي والمرحلي المتأصل في « القابل للقراءة » • وفي سياق بحثهم عثروا على بعض المكتشفات • فقد لاحظوا ، كما لاحظ د• هـ• لورنس ، أن الرواية قد تكون طريقة لاظهار

أن العيش ممكن ، لأن القراءة ممكنة دون أن نتقبل النسخ الرسمية عن الواقع. وأدت بهم فرحة الاكتشاف الى الاعتقاد بامكان وجود نوع من الرواية يؤمن أكثر من ذي قبل بفضل التحلي عن الافتراضات القديمة وتزويد النص باشارة نقية من الاحالة الخارجية ، وبدون رمز ، وبدون بنية ، بل تنقل كل السياقات التي ينتجها القارىء . غير أن هذا ـ وربما لأغراض ايديولوجية ـ أفرط في تحديث بعض جوانب السرد القصصي ، وهي منتقاة من مجموعة امكانات دائمة ثابتة ، على الرغم من أنها الآن تستحوذ على جل الانتباه . وكما رأينا في البداية ، كان من الممكن لرولان أن يموت ثلاث مرات ، وكذلك أمكن ذلك لشخصيات روب‌غرييه كما أن كريتيان فهم شيئاً عن « الفراغ » الذي يعد الآن أمراً مستحدثاً ، وليس من الصعب الاستكثار من الامثلة التاريخية ، فانا ، بعد كل شيء ، حين نتحدث عن أثر كلاسي فانما نعني نصاً قد تملص من القيود المحلية والمرحلية .

وبالاختصار ، تجدد الانتباه الى جوانب في السرد القصصي لم تتوقف عن الوجود لأن الانتباه لم يتركز عليها . فحين نعيد تركيب رواياتنا العظيمة ـ كما يجب ، وكما فعلنا في السنوات الاخيرة بكلاسيات القرن التاسع عشر حين أعدنا صنعها ـ سنجد أن لها كلها بعض صفات « سارازين » ، كما حددها بارث، وبعض صفات رومانس القرن التاسع عشر ، كما حددتها ماري دي فراس . فهي تدعو دائماً الى تفسير جماعي للأدب ، والى معالجة صحيحة للقوانين ؛ ومن طبعها أن تطالبنا بانتاجها بدلا من استهلاكها ، وبتحريرها من القيود المحلية والمرحلية، بما فيها قيودنا ان أمكن . فيما يتعلق ببارث ، من الصعب التسليم بأنه وضع منهجاً للوصف الشكلي للآثار الكلاسية ، وان كنت أعتقد أنه فعل ذلك ، لأن حذق استبصاراته والمعيتها في تحليل « سارازين » تشهد بذلك . فاذا تابعت الحديث عن السرد القصصي بشكل حسن فهذا يعني أنك ستحسن الحديث عن الرواية .

الملاحظــات :

١ ـ ٥ ، الصفحات ٦ ، ٤٩ ، ٣٢٢ ، ٣٤٩ ، ٥ .

٦ ـ اقتبسها فيناڤر من ماري دي فرانس .

٧ ـ » » » »

٨ ـ ١٠ ، الصفحات ٤٣ ، ٥١ ، ٥٢

١١ ـ من الحق القول ان هذا التلخيص لا يفي تلك الاحجية الممتعة حقها .

١٢ ـ ١٣ « الوقت الماضي » (١٩٦٥) .

١٤ ـ يرجرو لوكمان ، « التركيب الاجتماعي للواقع » .

١٥ ـ ١٦ ـ « مقالات نقدية » .

١٧ ـ تودورف ، « نظرية الادب » (١٩٦٥) .

١٨ ـ ١٩ ـ S/Z ص ١٥٧ ، ١٧٥ .

٢٠ ـ تجد مناقشة وافية لهذا المثال في « ابنية التخييل » (١٩٦٩) .

● ـ المقال مترجم من كتاب : « نظرية الرواية » ، من جمع جون هالبرين : نيويورك

حوار حول :

دوستويفسكي وعلم الجمال الرومانتي*

بقلم : توماس . ج . وينر   ترجمة : عبدالنبي اصطيف

★ فلوكو كامبن :

ربما كان موضوع علاقة دوستويفسكي بعلم الجمال الرومانتي أقل معاندة مما يبدو ، فثمة قدر من الجمالية موجود ضمنيا وعمليا في أعمال الرومانتيين . فالجمالية تنعكس في نتاج وردزورث في السكينة الحالمة ؛ وتبدو رومانتية بليك الرؤيوية أقرب إلى دوستويفسكي ؛ بينما تأخذ رومانتية بايرون صورة عبادة الأنا والمدخل العنيف للحياة والموت ؛ وكذلك فان النمرية الشفافة جزء من الرومانتية أيضاً . وهكذا فان الرومانتية ـ التي رأى لف جوي أن اعادتها الى صيغة واحدة أمر غير ممكن ـ تنعكس في مجموعات مختلفة من الافكار والمواقف لدى عدة شعراء ، ودوستويفسكي يشارك في بعض منها .

★ وقائع مؤتمر « السلافيات والأدب المقارن » الذي نظمته « رابطة أمريكا للغة الحديثة »
"The Modern Language Association of America" M. L. A. A.

في شيكاغو عام ١٩٦١ ونشر فيما بعد في الكتاب السنوي للأدب المقارن والعام رقم ١١ . انظر .
Yearbook of Comparative and General Literature No. 11

من منشورات The Comparative Literature Committee Indian University 1962

والذي اصدرته ثانية دار Russell and Russell في نيويورك عام ١٩٦٨ . ص ٣٦ وما بعدها .

ان شيلر يعبر عن نقاط أساسية محددة في الرومانتية وهي .

أولا : عدم القناعة بالمحدود، وتلك خصيصة من خصائص نظرة دوستويفسكي •

ثانيا : التأكيد على المصدر الجوهري للمعرفة والذي هو الادراك الحسي •

وفي ضوء هذا فان كلا من ملفيل ودوستويفسكي رومانتيان • والحقيقة أن (بلي بد) Billy Buad قريب جداً من ميشكين ، مع أن رواية دوستويفسكي المتصلة بموضوعنا أوسع مدى من رواية مليفيل • ولكن كلتا الروايتين تمثلان البراءة في عالم لا يسمح بها • وعلى العموم فان الرومانتية النموذجية تتميز بالمنهج اللا عقلاني ، وأسلوب الكتابة الرومانتية مسود بهذه النظرة •

☐ فيكتور إرليتش :

يمكن للمرء أن يأخذ بمناهج مختلفة في معالجة الموضوع الذي بين أيدينا • فجمالية دوستويفسكي الجلية يمكن أن تقارن بالجمالية الرومانتية ؛ كما يمكن لتأثير النثر القصصي الرومانتي في دوستويفسكي أن يدرس فنتاجه متخلل بالموضوعات والتقنيات الرومانتية ؛ وكذلك يمكن للمرء أن يتمحص التأكيدات الايديولوجية التي عبرت عنها شخصياته ، أو آراء في النفس الانسانية ؛ اضافة الى امكانية دراسة التأثير الرومانتي في فنه الشعري كما تجسد في بنى أعماله •

ان دين دوستويفسكي لشيلر وكانط أيديولوجياً • يمكن ان يرى بوضوح في تأكيده على استقلالية الفن ، وطبيعته العضوية • لقد حاجّ دوستويفسكي ضد الرأي النفعي في الفن ، وضد الفن المتميز ، واعتبر أن الفن يكون مفيداً فقط عندما يبقى صادقا مع نفسه وضروراته الداخلية • وهذا على نحو مميز ان لم يكن على نحو متفرد موقف رومانتي ، يشترك بالكثير مع الفلسفة الالمانية المثالية • وأكثر من هذا فان دوستويفسكي يلح على القوى غير العقلانية في النفس ، ففي تصويره لشخصياته نراه يركز على الاسراف والتوتر العاطفي والحالات المتطرفة •

وهناك في نتاج دوستويفسكي هذا التلازم الطريف بين المصطلحات الرومانتية وشبه الرومانتية • لقد كان كاتبا رومانتيا في عصر واقعي ورائداً للرومانتية الجديدة أو الرمزية ، ولهذا كان منهجه يؤكد على المسرف Outré والباطني ، أو الميتافيزيائي حقاً ، ويؤوله على أنه جوهر الحقيقة • وهو يدعو نفسه رومانتيا ولكن بمعنى سام • وقد ألح دوستويفسكي على أن عقده كانت حقيقية أكثر من المادة رغم أنها تصور حالات متطرفة ، والواقع أن عقده مبنية على حوادث فعلية أو مسبوقة بحوادث فعلية • وهكذا فان دوستويفسكي يستخدم مصطلحات واقعية ليسوّغ نظرة رومانتية •

□ والتر • هـ• سوكل :

ان الرومانتية تلح على الحدسي ، وعلى مجموعية الانسان في ابداع الشعر للعالم كله • لقد سلك اليونان ــ كما يقول هردر ــ في نتاجهم خطاً معيناً والذي هو العقدة ، واعطوها دوراً مركزياً • واعمال شكسبير نسبياً دون عقدة موحدة، ولكنه كان يعكس فيها عالماً باكمله • وتبعاً لشليغل ــ الذي يضيف الى رأي هردر ــ فان دانتي وشكسبير وسرفانتس ينبغي اعتبارهم رومانتيين • وهذا الماح الى ما اعتقدته جينا في شأن الرومانتية • وثانية ان دانتي يعطينا عالما باكمله ، بينما يعطينا هومر خطاً ملحمياً • ولكن الرومانتيين أجبروا على التضحية بالشكل والعقدة • والعقدة •

ثم انه اذا كانت الرومانتية تلح على قدرة الفن على عكس الكلية فانـــه يمكن اعتبار بلزاك ودوستويفسكي وجويس عندئذ رومانتيـــين • فالكوميديا الانسانية يمكن أن تقارن بالكوميديا الالهية ففي الأولى تُقدم لنا خيمة عظيمة مقامة في باريس هي ثروة من الأغاط الاجتماعية تصل الى درجة العالمية• ولكن دوستويفسكي يحقق عالمية بالأحرى في العمق ، في تصويره للخير والشر ، والحوافز الشعوريـــة واللا شعورية ، فالحوافز عنده مخبوءة ، وهو يستعمل التقنيات التعبيرية ليبرز مـــا

هو موجود في الانسان ، وأعمال ايفان غير العقلانية قبل مغادرته موسكو مثال على ذلك • وقد تابع جويس منهج دوستويفسكي ولكـن بطريقـة أكثر قصدا وعملية ، فالمنهج عنده لم يعد تعبيريا ، بل بات صنماً للأسطورة ، ومن خلالـه يجلب جويس لا وعي الانسان الى السطح •

☐ هاسكل بلوك :

للرومانتية جمالية محددة تنعكس في مجال الشكل • فهي مشتقة من الكلمة Roman التي تقصد بها أن تعني نوعا من الشكل المرن والمستوعب والقريب من الملحمة •

وبالنسبة الى آراء دوستويفسكي في علم الجمال ، نجد أنه ـ رغم كـون وجود نظرية في التخييل أمراً نادراً ـ قد كانت لـه بعض الملاحظات : كملاحظاتـه عن الأبله The Idiat على سبيل المثال ، وفحواها أن وجود شخصيات عامة • أمر ضروري • ولكن يبدو أن دوستويفسكي مهتم أساساً بفن الشعر العام وليس في قضايا نظرية الرواية ، فالآراء المتصلة بالرواية تبدو نسبياً نادرة في كتاباته •

☐ رالف• إي• ماتلو :

هذا صحيح جوهريا رغم ظهور اثني عشر بياناً في مراسلاتـه وأعماله ، فبينما كان دوستويفسكي واعياً لمشاكل الرواية ومهتماً بحماس بهـا ، نجد أن حلوله كروائي كانت في ممارساته أكثر منها في صيغه النقدية •

☐ فيكتور إرليتش :

ان وعي دوستويفسكي للشكل واضح كما يبدو من خلال ميله الى التصنـع والمحاكاة الساخرة • لقد كان على وعي بامكانيات مختلف الاشكال التخييلية ، كما في ربطه بين نزعة الأنانية والحوار الداخلي في « ملاحظـات من تحت الأرض Nates from the Undergrand وكذلك كان مسحوراً بامكانيـات الروايـــة كشكل فني •

☐ توماس • ج وينر :

نستطيع أن نوافق على أن الرومانتية في نتاج دوستويفسكي ضمنية أكثر منها صريحة ، ومع ذلك فان المشكلة تبقى في أن نحدد فقط أين تظهر الجمالية الرومانتية في رواياته •

ربما تجسدت تربة كتابة الرواية في روسيا على وجهها الافضل في أعمال تورجنيف • ولقد اختلف دوستويفسكي مع الكثير من المفاهيم التقليدية لانشاء الرواية والتي تمسك بها متقدموه • وكما استبدل بيتهوفن بالاشكال الموسيقية التقليدية أشكالا متحررة ، فان دوستويفسكي حطم كثيراً من قوانين التراث ، وكانت ثورته على الاشكال التقليدية ذات مسحة رومانتية •

☐ غلوكو كامبُن :

ان الانقياد لفن الشعر المسرف أكثر من المكبوح واحدة من الخصائص الرومانتية ، ويمكن للمرء أن يرى انقياداً كهذا في كل مكان من أعمال دوستويفسكي • ففي الجريمة والعقاب ، والأبله ، والأخوة كارامازوف تجد أن هذا الاسراف يصل الى درجة الالهام •

☐ بول ايلي :

ان عبادة الأنا نقطة جوهرية هنا ، وهي تنعكس في الالحاح على الحوار الداخلي واللاعقلاني ، ويمكن أن توجد ايضاحات من هذا الميل في دون كيشوت والتي تحسب في شعبية سرفانتس بين الرومانتيين• ان النظرة الأنانية والنفسانية أساسية •

☐ فيكتور إرليتش :

ان الانفصال الأناني في شخصيات دوستويفسكي هومل في شخصيات دوستويفسكي بشكل انتقادي من قبله • وهذا واضح في حالة « ملاحظات من تحت

الأرض حيث حاج دوستويفسكي أيضاً ضد الرومانتي عند دوستويفسكي لدينا رومانتية ناقدة لنفسها ، وواعية مسبقاً بنفسها ، وكون دوستويفسكي رومانتيا متأخراً أكثر امتاعاً من امكانية وجود الرومانتية الأصلية •

ولكن « الخيـالي » Phantastic في نتاج دوستويفسكي قريب من الرومانتي والمصطلح يرد في سياقات متنوعة • وعندما تطلق صفة «قصة خيالية» على «كروتكايا» فان ذلك يعني الاشارة الى أن الشكل السردي في هذه الحكاية غير عادي • ويشير دوستويفسكي في أمكنة أخرى الى شخصياته على أنهم « موظفون مدنيون خياليون» • ان المصطلح واضح ، فهو يشير الى مزيج خاص من الواقعية الاشتراكية والرومانتية، وهو اتجاه لاستثمار المأساة بتركيز انفعالي ، والذي هو تبعا للقانون الرومانتي حكر للشخصية البطولية •

☐ إليزابيث تراهان :

من المفيد النظر الى وجوه الصلة بين دوستويفسكي والرومانتيين دون الدخول في التشعبات ، لتجنب الانطباع الجانبي • ان حس الشكل والبنية عند دوستويفسكي هام هنا ، فهو بمنهج الشكل عنده ، وباستخدامه للزمان والمكان كاستعارات ورموز ، وبتشويهه المنتقى أو المتعمد لتفصيـلات هامة انمـا يتجاوز الرومانتيين وكثـيراً ما يتجاوز الحركة الواقعية أيضاً •

☐ غلوكو كامبْن :

ينبغـي ألا تحـدد الرومـانتية بالاسـراف العـاطفي ما دام الرومانتيـون أنفسهم يؤكدون على الطبيعة العضوية للشكل الفني كما هو لدينا عند دوستويفسكي، ولكن القوة المحركة للرومانتية ديونيسيوسية •

☐ توماس • ج • وينر :

ثمة نقطة هامة تتصل بالجمالية الرومانتية هي رأي دوستويفسكي في القبيح ،

فهو في سموه به انما ينطلق بشكل واضح من كانط وشيلر ، لقد كان أقرب الى شيلر منه الى زولا ٠

☐ **هاسكل بلوك :**

لقد كان موقف روائيي القرن التاسع عشر ، واهتمامهم بالبنية والأسلوب ، هو الذي مكن ـ وخاصة في نهاية القرن التاسع عشر ـ من تحويل القبيح الى فن ، وبوجه معين كان دوستويفسكي قريباً من الطبيعيين مع أنه لم يكن واحداً منهم ٠

☐ **انتوني مليكوتين :**

لقد كانت فكرةُ المشاركـة الوجدانيـة هامـة : في الفلسفة الجماليـة بالنسبة للرومانتيين الانكليز كوردزورث على سبيل المثال ؛ وفي النقد الرومانتي بشكل عام ٠ ومفهوم المشاركة الوجدانية أو التعاطف Sastradanie جوهري عند دوستويفسكي، ولكنه ربما حمل دلالات فلسفية أكثر مما في التعاطف الانكليزي ٠

☐ **فيكتور إرليتش :**

ان كلمـة التعـاطف Sastradanie والتي هي عـلى هذه الأهمية في نتـاج دوستويفسكي لها مايقابلها في اللغات الأخرى، وهذه نقطة مناسبة هنا ٠ مع ان التعاطف أو المشاركة الوجدانية لا تعني الشيء نفسه ما دامت Sastradanie تلح على المعاناة ٠ ان مفهوم المعاناة مفهوم أصيل في عالم دوستويفسكي ، فهو مركز الوجود الانساني ، وطريق الخلاص في الوقت نفسه ٠

☐ **اوليغ ماسلينيكوف :**

ان أفكار شوبنهور والمعاناة أشياء مركزية هنا ٠

☐ **وليم ٠ إ٠ هاركينز :**

وبهذه المناسبة لقد مضى دوستويفسكي في جدال عنيف مع غوغول ، فعلى سبيل

المثـــال في الـ Poor Folk أو « قوم فقراء » يقرأ ديفوشكين المعطف ويعلق على تحبير قلب المؤلف •

☐ فيكتور إرليش :

ولكن هذا كـان حنواً اجتماعياً ، وشيء كهـذا أقرب الى الافـراط العاطفي للمدرسة الطبيعيـة ، وهو نعت ملائـم لدوستويفسكي المبكـر ، ولكنه لا يوافـق أكثـر أعمـالـه •

☐ ل•ر• غوتترم :

يقول بروست ان بعض الكتّاب يخلق عملا واحداً فقط ويستشهد على ذلك دوستويفسكي ، وذلك خلط بالطبع • فثمة اتجاه كهذا يمكن أن يربط دوستويفسكي ببلزاك بجويس وبروست نفسه فجميعهم رومانتيون في هذا السياق ، ويستطيع المرء أن يتحدث عن « كونٍ خاص بدوستويفسكي » •
بطريقة لا يمكن معها الحديث عن « كونٍ خاص بتولستوي » •

☐ فلوكو كامين :

الالحاح على الثقافة الوطنية في نتاج دوستويفسكي أمر صحيح •

☐ هاسكل بلوك :

ان التفاعل بين علم الأخـلاق وعلم الجمال هو بشكل جـدي أمر رومانتي • والحقيقـة أن علـم الأخـلاق والديـن يمتدان خـلال الحـركة كلهـا من عـام ١٧٧٠ وحتى ١٨٥٠ •

☐ ريتشارد •ف• كونز الأصغر :

اذا ما أثيرت قضية العلاقة بين القيم الجمالية والقيم الدينية ، فـان كتابات كانط وثيقة الصلة بالموضوع فثمة قسم بين العوالم اللاهوتية والممالك الأخلاقية يتصل بالفن • فالفن رغم أنه جميل وعبقري ما هو الا جسر بين العوالم الظاهراتية

والهوية • ان العمل الفني أخلاقي أساساً ، مع أن ذلك لا يظهر بشكل فوري في نقاش كانط • فالعبقري ، يعطي القواعد للفن كما يعطي الفهم القواعد للطبيعية • ان العمل الفني في معرضه للفرضية رمز للأخلاق ، وهو ادراك أن الطبيعة يمكن أن يفكر بها وفق فكرة منضبطة للفرض •

□ فلوكو كامين :

ثمة بالنسبة للفن اتجاهان لدى كانط . الاتجاه الذي يتحدث من استقلالية الفن ، والآخر الذي هو تحذير من أجل كبحه • ويبدو أن هذين الاتجاهين متناقضان •

□ فيكتور إرليتش :

يقرر ديمتري كارامازوف في الأخوة كارامازوف أن الجمال يمكن أن ينقذ العالم مع أنه مروع ، فالجمال مصدر للخلاص ، أو للهلاك الروحي •

□ ريتشارد •ف• كونز الأصغر :

يبدو أن ثمة صراعاً بين الجميل والسامي في كتابات دوستويفسكي ، وقد أعطي هذا الصراع تعبيراً أدبياً في فيرش عند موته ، حيث نجده غير قادر على الجمع بين الاثنين في خبرته •

□ توماس • ج• وينر :

يبدو من خلال النقاش أن المؤتمر كان مثمراً ، وأن الموضوعات المحدودة نسبياً ـ كما يلاحظ من خلال تجربتنا في الماضي وفي هذا اللقاء ـ تتيح أرضية أكثر حفزاً على النقاش المتصل بالعلاقات المتبادلة بين الآداب القومية •

أكسفورد تموز ١٩٧٧

من الأدب الأمريكي

ولدي القاتل

قصة : للكاتب برنارد مالامود
ترجمة : أحمد جاسم العلي

استيقظ من نومه على احساس في داخله ينبئه بأن اباه في المدخل ، ينصت . ينصت الى ماذا ؟ ينصت اليه ينام ويحلم . ينصت اليه ينهض ويبحث في ارتباك عن سرواله الداخلي . ينصت اليه غير ذاهب الى المطبخ ليأكل . يحدق بعينين مغلقتين في المرآة . يجلس ساعة في المرحاض . يقلب صفحات كتاب لا يستطيع قراءته . ينصت الى غيظه وكربه ووحدته . يقف الاب في الردهة . ويسمعه الابن ينصت .

ولدي الغريب ، لا يخبرني شيئاً .

فتحت الباب ورأيت أبي في الردهة .
لماذا تقف هناك ، لماذا لا تذهب الى العمل ؟
أخذت اجازتي في الشتاء بدلا من الصيف كما أفعل عادة .

وما نفعها بحق الجحيم اذا أنت أمضيتها في هذا المدخل المظلم ذي الرائحة الكريهة تراقب كل حركة من حركاتي . تخمن الذي لا تراه عيناك . لماذا تتجسس علي ؟

ذهب أبي الى غرفته وبعد برهة خرج الى المدخل مرة أخرى ، وراح يصمت .

أسمعه بعض الاحيان في غرفته ولكنه لا يكلمني ولا أعرف أنـا شيئاً مما يجري • انه احساس فظيع بالنسبة الى والد • ربما سيكتب الي يوما رسالةلطيفة، والدي العزيز ....

ولدي العزيز هارى ، افتح الباب •
ولدي السجين •

تركت زوجتي البيت هذا الصباح لتكون مع ابنتي المتزوجة والتي تلـد طفلها الرابع • انها تطبخ وتنظف وترعى الاطفال بدلا عنها • وتعاني ابنتي من حمل شيء ، مع ضغط دم مرتفع ، لذا فهي ترقد في الفراش أكثر الوقت • ستغيب زوجتي اليوم كله • انها تعرف حالة هاري • فمنذ أن تخرج من كليته في الصيف الفائت وهو عصبي ، وحيد منطو على أفكاره الخاصـة • اذا تحدثت اليه ، راح يصرخ نصف الوقت • انه يقرأ الصحف ، يدخن ، ويعتصم في غرفته• ونادرا ما يذهب في نزهة •

كيف كانت النزهة ، يا هاري ،
نزهـــة •

أخبرته زوجتي أن يذهب ويبحث عن عمل وفعل ذلك مرات قليلة ،ولكنه عندما حصل على عرض مناسب رفض أن يعمل •

ليس لأني لا أريد أن أعمل • السبب هو شعوري بأني مريض •
لماذا تشعر بأنك مريض ؟

أنا أشعر بالذي أشعر به • أنا اشعر بما هو كائن •

أتشكو من صحتك يا ولدي الصغير ؟ ربما ينبغي عليـــك أن تذهب الى طبيب ؟

لا تنادني بذاك الاسم • لست مريضاً في جسمي • ومهما يكن السبب فأنـا لا أريد التحدث عنه • ان العمل لم يكن من النوع الذي أرغب •

قالت : اذن خذ شيئا مؤقتا •

وبدأ يصرخ • كل شيء مؤقت • لماذا يجب علي أن أضيف المزيد الى ماهو مؤقت الآن ؟ أحشائي مؤقتة • العالم مؤقت • وفوق ذلك لا أريد عملا مؤقتا • أريد عكس المؤقت ، ولكن أين تبحث عنه ؟ أين تجده ؟

وينصت أبي مؤقتا في المطبخ •

ولدي المؤقت •

قالت أني سأشفى اذا عملت ولكني أنكرت ذلك • عمري اثنتان وعشرون، منذ كانون الاول الفائت ، وأحمل شهادة جامعية ، تعرف أنت أين يمكنك أن تلصقها • في الليل أراقب أخبار الاذاعات • أراقب الحرب من يوم الى يوم • انها حرب كبيرة تعرض على شاشة صغيرة • وأحيانا أنحني والمس الحرب بسطح يدي• اني انتظر لتموت يدي •

ولدي ذو اليد الميتة •

اني أتوقع استدعائي للخدمة العسكرية في أي يوم ولكن الامر لم يعد يزعجني كثيرا بعد الآن • لن أذهب • سأرحل الى كندا أو الى مكان ما ، رغم أن الفكرة ترهقني •

أخاف زوجتي فرحلت مبتهجة الى بيت ابنتي في الصباح لترعى الاطفال الثلاثة • وتركت' وحيداً ، ولكنه لا يتحدث الي •

قالت زوجتي لابنتي ، ينبغي أن تتصلي بهاري وتتحدثي معه •

افعل ذلك بين فترة وأخرى • ولكن لا تنسي أن الفرق بين عمرينا تسع سنوات وأعتقد أنه يحسبني كأم أخرى تحوم حوله وان واحدة تكفي • لقد اعتدت أن أحبه ولكن من الصعب التعامل مع شخص لا يبادل العواطف •

لديها ضغط دموي مرتفع • وأحسب انها تخاف الاتصال به •

انقطعت' اسبوعين عن العمل • فانا موظف في مكتب البريد ، أعمل باتما

في شباك الطوابع • وأخبرت المدير بأني لا أشعر كما يجب ، ولم أكـن كاذبا ، فأشار علي بوجوب أخـذ اجازة مرضية ، ولكني لم أكن مريضا • وأوضحت لصديقي موي بيرك أني غبت عن العمل لأن هاري سبب لي قلقاً •

أعرف ما الذي تعنيه ، يا ليو • أنا أيضا لدي همومي الخاصة وقلقي بسبب أولادي • وعلى الهموم ، فان علينا أن نعيش • هل ستأتي الى لعبة البوكر مساء الجمعة ؟ لا تحرم نفسك من تسلية طيبة •

سأرى كيف أكون حينئذ ، كيف ستجري الامور • لا يمكنني أن أعدك •

حاول أن تأتي • وهذه المتاعب ستنقضي • فاذا بدا لـك الموقف أحسن ، فتعال • تعال حتى اذا لم يتحسن الموقف على أي حال لأن مجيئك ربما يخفف من حدة التوتر والقلق الذي تنوء تحته • ليس من الصالح لقلبـك وأنت في سنك هذه أن يستحوذ القلق عليك تماما •

هذا هو أسوأ أنواع القلق • اذا قلقت على نفسي فأنا أعرف سبب القلق الذي ينتابني • أقصد ، ليس هناك غموض • أستطيع أن أقول لنفسي ، يا ليو ، أنت أحمق ، كفى قلقا على لا شيء ـ على ماذا ، بضعة دولارات ؟ على صحتي التي تقاوم البلى بشكل طيب دائماً رغم صروف الزمان ؟ بسبب بلوغي الستين ولـم أعد أملك أية سمة من سمات الشباب ؟ كل شخص لا يموت في التاسعة والخمسين يبدأ في الستين • وأنت لا تستطيع أن تسحق الزمن اذا راح يدب اثرك • ولكن اذا كان القلق على شخص آخر ، فان ذاك هو النوع الاسوأ • ذلك هـو القلق الحقيقي لأنه اذا لم يخبرك فلن تستطيع النفوذ الى داخله لتجد السبب • ولا تدري كيف توقف هذا القلق • كل الذي تستطيع عمله هو ان تقلق أكثر •

وهكذا فأنا أنتظر في المدخل •

هاري ، لا تقلق بسبب الحرب •

لا تخبرني ما الذي يجب أن أقلق بسببه •

هاري ، والدك يحبك • عندما كنت ولدا صغيراً ، كنت تجري الي عائداً الى البيت كل ليلة • والتقطك عاليا وأرفعك الى السقف • كنت تحب أن تلمسه بيدك الصغيرة •

لا أريد أن أسمع المزيد من ذلك • هذا الشيء بالذات لا أريد أن أسمع عنه • لا أريد أن أسمع شيئاً حول طفولتي •

هاري ، نحن نعيش كالغرباء• كل الذي أقوله هو أني أذكر الايام الطيبة• انا أذكر الايام عندما كنا نتبادل الحب بلا خوف •

لم يقل شيئاً •
دعني أسلق لك بيضة •
لا أريد بيضة • انها الشيء الأخير الذي أريده في العالم •
اذن ماذا تريد ؟

لبس سترته • سحب قبعته من المشجب ونزل الى الشارع • سار على طول شارع الباركوي أوشن بسترته الطويلة وقبعته الرمادية المجعدة • كان يعرف أن أباه يتبعه وملأه هذا بالغيظ •

ولم يلتفت • سار بخطى سريعة فوق الشارع العريض المشجر • في الايام الغابرة كان هناك ممر لجياد الركوب على جانب المشى حيث يقوم الآن ممر اسمنتي خاص للدراجات الهوائية • وكانت الاشجار القليلة الآن تشق أغصانها السوداء السماء اللامشمسة • وعند زاوية شارع ايفنيواكس ، حيث تشم رائحة جزيرة كوني آيلند ، عبر الشارع واتجه الى البيت • وتظاهر بعدم رؤيته لأبيه وهو يعبر ، بالرغم من أنه كان لا يزال حانقاً ، وعبر الأب الشارع وتبع ابنه الى الدار • وعندما وصل الى البيت تصور هاري وقد صعد تواً الى غرفته ثم أغلق الباب وراح يشغل نفسه بالذي لا يدري ماهو •

وأخرج لير مفتاحه وفتح صندوق البريد • كانت هناك ثلاث رسائل • ونظر وهو يأمل أن تكون احدى تلك الرسائل مرسلة ، بالصدفة ، من ابنه اليه •

والدي العزيز ، دعني أوضح نفسي • ان سبب تصرفي على هذا النحو ••••
ولكن لم تكن هناك رسالة كهذه • واحدة من هذه الرسائل كانت من الجمعية الخيرية لموظفي مكتب البريد وضعها في جيب سترته • وصعد الى غرفة ابنه ، قرع الباب وانتظر •

انتظر لفترة •

وقال عند سماعه شخير الولد ، توجد رسالة استدعاء لك • وادار المقبض ودخل الغرفة • كان هاري مضطجعا فوق السرير مغمض العينين •

تستطيع أن تتركها فوق الطاولة •

لماذا لا تفتحها ؟ أتريد أن أفتحها لك ؟

لا ، لا أريد فتحها • اتركها فوق الطاولة • أنا أعرف ما الذي فيها •

ما الذي فيها ؟
هذه مسألة تخصني أنا •
وتركها الاب فوق الطاولة •

أخذ رسالة ابنه الأخرى الى المطبخ ، أغلق الباب وغلى بعض الماء في غلاية • وفكر أنه سيقرأها بسرعة ثم يسدها بعناية بقليل من معجون الالصاق حتى لا يتسرب شيء فوق حاشية الظرف ، وبعد ذلك يهبط ويرجعها الى صندوق البريد • وعندما تعود زوجته من بيت ابنتها ستأخذ الرسالة بواسطة مفتاحها وتحضرها الى هاري •

وقرأ الأب الرسالة • كانت رسالة قصيرة من فتاة تقول أن هاري قد استعار اثنين من كتبها قبل أكثر من ستة أشهر ولما كانت تقدر هذين الكتابين تقديراً شديداً فهي تحب أن يرجعهما اليها • هل يستطيع أن يفعل ذلك بأسرع ما يمكن لكي لا تضطر الى الكتابة مرة أخرى ؟

وبينما كان ليو يقرأ رسالة الفتاة دخل هاري المطبخ ، وعندما رأى سمات الدهشة والشعور بالذنب على وجه أبيه انتزع الرسالة من يديه •

يجب أن أتملك للطريقة التي تتجسس بها علي ٠

وانصرف ليو ، وراح يتطلع من نافذة المطبخ الصغيرة الى فناء المبنى المقدم كان وجهه محتقنا وعيناه كليلتين ، وأحس بالمرض ٠

قرأ هاري الرسالة بنظرة عجلى ثم مزقها ومزق الظرف ٠

اذا فعلت هذا ثانية فلا تعجب اذا قتلتك ٠ لقد أمرضتني بتحسسك علي ٠
وترك هاري البيت ٠

ذهب ليو الى غرفته وراح يبحث ٠ نظر في أدراج الملابس فلم يجد شيئا ذا أهمية ٠ وعلى المنضدة القائمة عند النافذة كانت ورقة كتبها هاري ٠ تقول : عزيزتي ايديث ، لماذا لا تذهبين وتحشين من شخص يعايشك ؟ اذا كتبت رسالة أخرى كهذه قتلتك ٠

وضع الأب قبعته ولبس سترته وترك البيت ٠ ركض لفترة ثم أخذ يركض تارة ويسير أخرى ، حتى أبصر هاري على الجانب الآخر من الشارع ٠ وتبعه على بعد مناسب ٠

واستمر يتبعه حتى الجادة المؤدية الى جزيرة كوني أيلند وشاهده في اللحظة الأخيرة يركب « الباص » الذاهب الى الجزيرة ٠ وكان على ليو أن ينتظر السيارة التالية ٠ فكر في أن يستقل سيارة أجرة ويتبع هاري ، ولكنه لم يحصل على واحدة٠ من الباص التالي بعد خمس عشرة دقيقة واستقله الى الجزيرة ٠ كانت جزيرة كوني آيلند في شهر شباط ، باردة ، مهجورة ٠ وقد خلت جادة سيرف افينيو الا من سيارات قليلة ولم يكن في الشوارع الا عدد من الناس ٠ كان الثلج يسقط خفيفا ٠ وخطا ليو فوق الممشى الخشبي ، وسط هبات الريح الثلجية ، باحثا عن ابنه ٠ كانت الشواطيء الكئيبة اللامشمسة فارغة ٠ وقد أغلقت أكشاك بيع سندويشات السجق وأروقة الرمي والحمامات العمومية ٠ وكان البحر ، وهو يتحرك كالرصاص المصهور ، يبدو وكأنه يتجمد ٠ وشقت الريح الباردة طريقها

الى ثياب ليو فكان يرتجف وهو يسير • وكانت الريح الهائجة تعلو الموجات الرصاصية ، والامواج البطيئة تتكسر على الشواطىء المهجورة بهدير هادىء •

وسار في العاصفة حتى اقترب من بوابة سي كيت ، يبحث عن ابنه ، ثم قفل عائدا • وفي طريقه الى برايتون أبصر رجلاعند الشاطىء يقف وسط الامواج المزبدة • فنزل ليو درجات المشىالخشبي ومشى الى الشاطىء ذي الرمال المظلمة كان الرجل هو هاري يقف وقد غمر الماء كاحليه •

ركض ليو الى ابنه • هاري ، لقد كانت غلطتي ، أعذرني • أنا متأسف اذ فضضت رسائلك •

ولم يلتفت هاري • بقي في الماء ، وعيناه على الموجات الرصاصية •

هاري ، أنا خائف • أخبرني ما القضية • ولدي ، ارحمني

وفكر هاري ، هذا العالم ليس لي • انه يملأني بالرعب •

لم يقل شيئاً •

وأطارت عصفة ريح قبعة أبيه عن رأسه وحملتها بعيدا فوق الشاطىء • ولاحت كما لو أنها تذهب لتحط على الامواج المتكسرة ولكن الريح حملتها نحو المشى الخشبي ، وهي تدور كما تدور عجلة في الطريق • أسرع ليو حنقاً وطاردها هنا وهناك • أخيراً دفعت الريح بها الى ساقية فقبض عليها • وسحب القبعة المتجمدة باحكام الى رأسه حتى أخفت أذنيه• انه يبكي الآن• ومسح عينيه باصبع باردة جداً ورجع ، لاهثاً ، الى ابنه عند حافة الماء •

انه انسان وحيد • وفكر ليو ، انه من النوع المتوحد • سيكون وحيداً دائمـــاً •

ولدي الذي صار وحيداً •

هاري ، ما الذي استطيع قوله لك ؟ كل الذي أستطيع قوله هو ، أن الحياة سهلة ؟ منذ متى ؟ انها لم تكن لي وليست هي لك • انها الحياة ، ما الذي أستطيع ان اقول أكثر من هذا ؟ ولكن اذا رفض شخص أن يعيش فما الذي يستطيع أن يعمل اذا كان ميتا ؟ واذا لم يرد أن يعيش فربما يستحق أن يموت •

وقال ، عد الى البيت ، يا هاري • ان الجو بارد وستصاب بالبرد وانت تضع قدميك في الماء •

وقف هاري بلا حراك وبعد فترة انصرف أبوه • واطارت الريح قبعته عن رأسه بعيدا وهو ينصرف وأرسلتها تتدحرج فوق الرمل •

وقف أبي في المدخل • باقته وهو يقرأ رسالتي • تبعني عـلى مبعدة في الشارع • والتقينا عند حافة الماء • انه يركض خلف قبعته •

وقف ولدي وقدماه في البحر •



من الأدب الأرمني الحديث

الشاعر يغيشة تشارنتس

دراسة وترجمة : نظار . ب . نظاريان

في مدينة قارص تلك المدينة القديمة قدم التاريخ ، حيث كانت الحياة تمضي رتيبة جافة ، خالية من المغريات رغم جمال الطبيعة حولها ، تكسوها مسحة من الحزن ، وتظللها غلالة من الالم • وتقارن هذه المدينة بين ماضيها العريق في الحضارة والازدهار ، وبين حاضرها المؤلم الحزين ، بما اصابها من الخراب والدمار ، بسبب الاهوال التي توالت على كاهلها منذ مملكة "نايري" العريقة في الحضارة الارمنية القديمة قبل الميلاد ، الى مرور جحافل الغزاة والفاتحين ، حتى اعلان الحرب العالمية الاولى • ففي هذه المدينة ولد الشاعر يغيشه تشارنتس بن ايكار صوغومونيان في ١٣ آذار من عام ١٨٩٧ •

كان والده يشتغل بتجارة البسط والطنافس ، حاملاً في اغوار نفسه بعضاً من قساوة الطبع وغم الحياة . مثقلاً بوطأة هموم المعيشة ومرارة واقعها . تمضي ايام الطفولة والصبا ، وتتفتق براعم الموهبة الشعرية في يراع هذا الفتى وهو لم يبلغ الخامسة عشرة من العمر ، فيغزو الحب قلبه البكر مفجراً فيه ينابيع العواطف والاحساسات ، فتتدفق جداول الشعر رقراقة صافية . وينظم باكورة قصائده ويهديها الى تلك الفتاة التي أحبها وكانت تدعى (أسدغيك) . وترى هذه الباقة النور لأول مرة في مجموعة صغيرة بعنوان (ثلاث اغنيات الى الفتاة الحزينة) في مدينة قارص سنة ١٩١٤ . ثم يستمر ظهور قصائده في المجلات الادبية .

هكذا يدخل الشاعر عالم الشعر الواسع . وتعرف هـذه المرحلة مـن حياته الشعرية بالمؤثرات الرومانسية ، خاصـة مؤثرات الشاعر الوجـداني واهان ديريان ، الى جانب مؤثرات الشاعرين المعروفين اوهانيس طومانيـان وأويديك اسحاقيـان .

كان تشارنتس عصبي المزاج ، مفرط الحسـاسيـة ، مرهف الشـعور يحمل في جوابه قلباً ثائراً وروحاً متمردة على كل شيء . وسوف يظهر هذا التمرد في اشعاره . لكن غلالة الحزن الرومانسي كانت تبدو في البدء واضحة المعالم وبعد ذلك اخذت تختفي ، ولكنك بين الحين والآخر كنت تشعر بأن غلالة من الرومانسـية لا تزال تظهر آثارها حتى في اشد قصائده واقعية وثورة. غير أن شعره في هده المرحلة لا يخلو من الصور الواقعية ، وصدق الاحاسيس المتمثلة في حياة بسطاء الناس وكفاحهم اليومي في العالم اجمع .

وفي مرحلة ما ظهرت المؤثرات الرمزية الفرنسية . واحب شعرائها الى قلبه كان الشاعر الفرنسي (الفريد سامين) .

طرق تشارنتس جميع أبواب الشعر ولكنه برع في الشعر الملحمي شعر البطولات ، بطولة الناس من اجل الحرية وفي سبيل التحرر والانطلاق نحـو مستقبل مشرق . لقد اطلع الشاعر فيما بعـد على الآداب الاجنبيـة والثقـافـات العالميـة ، وعرف كيف يثقف نفسـه ، ويزيد مـن المعرفة . اطلع على أشعار سعد الشيرازي والفردوسي. كذلك تعرف على مؤلفات هانريخ هاينة وجوتيه، كما أغنى اطلاعه بالتعرف على التراث الادبي الارمني القـديم والجديد . لذا نجده واسع الاطلاع عظيم التجارب ، له نفس طويل في المطولات من القصائد لا تنضب مناهله ولا تجف منابعه . ولا ينسى ان يفلسـف الحياة بما يأخذه من الحكم الشعبية ونهج الشعراء الشعبيين القدامى في الغزل والمأساة . وما أعظم ما تمس مأساة الانسان روح الشاعر مسـاً عميقاً لتلقي عليها خيوطاً من اليأس حيناً او باقـة من القساوة والتمرد حتى الثورة حينـاً آخر . ولا تكف آلام الوجود والعدم عن احتواء قلبه المتيقظ حتى يقول :

اعلم ستاتي يوما منيتي
وبها ينتهي درب حياتي
ويواروني في التراب الخصيب
ناسين كل اضوائي ،
وانوار اشعاري .
وستطلق الشمس ، دون هم ، ضحكتها من جديد ،
ناشرة حولها كنوز نورها العتيد ،
وحتى امي لن تصدق اني يوماً وجدت
وجدت ، وعشت ، ثم مضيت .

وعندما يغلقون عليّ باب قبري
ينسون ذنوبي . يلهجون بالحب ذكري ،
وتغدو حياتي الماضية اسطورة
سامية لا تعود ، مثل ايام عمري الماضية .

كان تشارنتس ، بعد أن خاض غمار الحرب العالمية الاولى وذاق اهوال المعارك ، وشاهد الدمار والخراب ، قد ادرك تماماً معنى الحرب . وعرف الى جانب ذلك قدسيتها من الناحية الوطنية والتحرر ، كما ادرك سمو هدفها القومي في الفداء والتضحية . الا انه عرف أيضا كيف يستنكر الحروب . وانها تعني الخراب والدمار ، المذابح والتقتيل ، وانها فتك وافناء للانسان والحضارة ، واي فتك وافناء . لم تكن مشاهد القتل تمر بسهولة امام انظار الشاعر دون أن تثير في نفسه الرقيقة الحساسة مشاعر القرف والاشمئزاز . وتحت هذه المشاعر كتب الشاعر قصيدته الرائعة (الاسطورة الدانتيئية) وهو لا يزال في خنادق القتال يذوق طعم الموت كل لحظة ، ويشم رائحة اللحم المحترق من كل ناح وصوب . ففي هذه القصيدة يصور ، في البدء ، جمال الحياة وحسن الطبيعة ، واذ به ينتقل الى جحيم الحرب ، واين منها جحيم دانتي ؟! دانتي تخيل الجحيم ، وتشارنتس ذاق مرارته ، وعاش فيه ، وشاهد

هذا الجحيم الحقيقي وعايشه حيث مدن تدك وقرى تحرق واشلاء الجثث تتطاير مع شظايا القنابل . هنا بقايا ارجل اطفال وهناك رؤوس شيوخ أو نساء مفصولة عن الجثث لا تزال تحترق ، فتثور روح الشاعر وتتمرد ، ويتساءل عمن يكون المسؤول عن كل هذه المآسي ، ويوجه نداءه الى الانسانية اجمع .

لماذا هذا الحلم المدمر للعالم
نعق فوق رؤوسنا بعشوائية ؟
لماذا ينتشر كل هذا الدمار وهذه الآلام .
وهذه الرياح الشريرة متى ستكف عن العصف .
ومن يحيك هذه المؤامرات ،
ويحيل الى جحيم لعين هذه الحياة .

تتألف هذه القصيدة من ٧٣٠ بيتاً ، انها ملحمة الحرب واهوالها .

وفي عام ١٩١٨ يتطوع تشارنتس في صفوف الثوار ، ويخوض معمعة الحرب الاهلية لازالة القيصرية ولهدم الماضي البغيض في سبيل مستقبل مشرق جديد . وفي خنادق الحرب الاهلية ومن صفوف الثوار الذين يدكون حصون الاستبداد ، ويزحفون نحو فجر ملحمي جديد ، نحو شمس الحرية ببطولات نادرة ، ولدت قصيدة (الجماهير المجنونة) الملحمية حيث الجماهير الثائرة ، الثائرة حتى الجنون . لقد جاءت من كل ناح وصوب ، جاءت من المدن والقرى، جمعت جموعها في ثورة عارمة تكاد ان تصل الى الجنون . اسمعوا ماذا يقول :

جاءوا من السهول القصية ،
وجاءوا من الحقول الدنية ،
جاءوا من جديد والامل شعلة تحرق منهم حبات القلوب .
من جاء من السهوب حيث كان العيش رقا
جاء وعرض السهوب في زرقة العيون .

جاءوا ثائرين حتى الجنــون .
جاءوا ، وقــد عجزوا عــن حمل ثقــل الحيــاة القديمة .

لم يعبر شاعر عن ثورة الجماهير بكل هذا الصدق والاخلاص . ان كل كلمة منها تسيل ثورة وتمرداً وكل عبارة منها تنطق غضباً . لقد حمل تشارنتس السلاح بيد والقلم بأخرى ، ليبدع أروع بطولة تصنعها اليد الحيّرة التي تحمــل السلاح للدفاع عن الوطن وللذود عن الحرية والكرامة . لقــد سجل الشاعر بكلمات اقوى من الرصاص واصلب من الفولاذ بطولة أولئك الناس البسطاء الطيبون ، المتطلعون الى شمس العدالة الاجتماعية لتمنحهم شيئاً من الدفء والحرارة لاستعادة كرامتهم المهدورة .

طبعت هذه القصيدة لاول مرة عام ١٩١٩ بتفليس في كتيب ، وبعد ذلك طبعت طبعــات عديــدة .

واصدر تشارنتس بين الاعوام ١٩٢٠-١٩٢٣ رواية بعنوان (بلاد نايري) صوَّر فيها تشارنتس الحياة في مسقط رأسه مدينة قارص ، بل انه يؤرخ لهذه المدينة ، بأسلوب شعري ساخر ، ويحلل نفسية شخصياتها ، من مختلف الطبقات والاتجاهات .

في عام ١٩٢٢ ظهرت مجموعة أشــعاره بموسكو في مجلدين . وفي عام ١٩٣٠ صدر ديوانه المرموق (الفجر الملحمي) ويضم هــذا الديوان قصائــده الرائعة ، وأشعاره الناضجة ، يعبر فيها عــن قضايا الساعة وعن القضايا الوطنية التي لا تنفصل عن مسيرة الثورة والانسانية ، ويتعرض فيها لمصير الانسان في الحياة الجديدة وبنــاء المستقبل . يقــول في قصيدة بعنــوان : (اغنيــة المحيط) :

غــنِّ أيهــا الشاعر غني أغنيــة الريــاح ،
غــنِّ أغنيــة الحب اغنيــة الكفــاح ،
غــنِّ كالعاصفــة كرياح السموم

فلا شعلة تلك الاغنيــة اطفئت
مــن فؤادك ، ولا نارها خبت ،
في خلود لهيب هــذا الحب اللا محــدود ،
في هــذا الكفــاح المرير ، في هــذه المعركة الطاحنــة ،
لتزد نفســك صلابــة كخنجــر مــن فــولاذ
ولتشمخ مثــل حكمــة عبقريــة ،
ولتغلي في جــوارحــك غليــان الحيويــة الخالدة .

لم يجنح الشاعر الى استعمال القوالب الجامــدة ، والمضامين المــادية المكررة ، ولم يضحِّ بالجمال والفنية في سبيل الالتزام المقولب ، وانما كــان ملتزماً بقضايا اساسية واسعة التزاماً لا يحدد حرية الفــن ـ لقد فتح نوافذه لكافة الاغراض ولمختلف المضامين الشعرية التي تحقق بجمالية الابداع الفني غايته ومراميه ، بألوان فيها الحيوية ، وصور تصــح بالحياة والانفعــال . والشاعر يتقدم كل يوم خطوة الى الامام مجدداً مبدعاً ، حتى قال عن نفسه في احــدى قصائــده :

نعــم ، فانا الآن ايضاً ، لست كمــا كنت
وانت ايضــاً يا قيثــاري قــد تبدلت
وكذلك صباحــك المشتعل كالذهب .

لقد أغنى تشارنتس تجاربه الشعرية عندما قام عام ١٩٢٤ بزيارة الى كل من المانيا وفرنسا وايطاليــا وتركيــا ، واطلع على الحضارة الاوربية عن كثب . وزودته هذه الجولة نضجاً ومعرفة بما شاهده من التناقضات والازمات في حياة الانسان الاوروبي ، وبما لمســه من تطلع الناس الى العدالة الاجتماعيــة وخاصة بعد الدمار الذي اصاب تلك البلاد من جراء الحرب العالمية الاولى .

كان الشاعر متفائلا بالمستقبل الاشتراكي ، يشعر بقوة الدماء تجري في عروقه جديدة مشرقة . لقد زال الخوف ومضى زمان الاستعباد ، وعاد الحق الى اصحــابه الحقيقيــين .

ويقول في ذلك :

غارساً اقدامي بقوة في قلب الثرى
وهامتي تطاول سماء النجوم
انتصب بلا خوف فوق التراب
وبعيون صافية تحدق ابداً
انظر الى المستقبل البعيد .

انه صوت الحاضر المنطلق نحو المستقبل . انه ينشد ملاحم بطولات الشعوب ، انه يمثل ضمير الانسانية في كل مكان وزمان هذه الشعوب التي تقف بقوة وجبروت في وجه جلاديها سالبي حقها في العيش والابداع ، في بناء حضارة الانسان الجديد وهي تقف بقوة على تراب الوطن . ان الاجيال القادمة لا بد أن تعرف كل ذلك . قال من قصيدة بعنوان (الاذاعة) :

أولئك الذين لم يولدوا بعد .
وسوف يولدون ويرون هذه الدنيا لاول مرة
وسوف يعيشون فيها عما قريب .
هل يستطيع اولئك بالا يشعروا بالذات
انطلاقة مسيرتنا الحاضرة هذه ؟.

وأخيراً في عام ١٩٣٣ تصدر للشاعر مجموعته الاخيرة في الشعر بمجلد واحد تحت عنوان (كتاب الطريق) أي بمعنى (رائد الطريق) . وتضم هذه المجموعة اقوى مطولاته الشعرية ابداعاً ، وانضج قصائده الانسانية والفكرية واكملها فناً . امثال القصائد التالية . ــ مع دروب التاريخ ــ ورؤيا الموت ــ والاخيرة قصيدة مطولة تتألف من ٧٤٢ بيتاً ، حيث يصور آلام شعبه وهو يعرج الى عالم الآخرة . كذلك تضم هذه المجموعة تلك الرباعيات التي سماها (تشارنتس نامة) ، حيث نشعر بعبير الشرق ، عبير الورد والقرنفل والخمرة والحكمة . وتضم ايضاً قصائد مهداة الى ــ الطبيعة ــ والفلاح (سبع حكم الى بذاري للغد) ــ و (سبع حكم الى مغني المستقبل) .

أسس تشارنتس مدرسة شعرية جديدة في الادب الارمني بمضمون

ثوري جديد . أن عناصر البطولة والملحمة ليست ضيوفاً بصورة اعتباطية عند الشاعر في ابداعه الفني الممثل للحياة المعقدة ، وانما هي اصيلة كل الاصالة وجديدة كلياً تمثل معركة جمالية الفن بقوة ساحرة ، وبكمال متجدد دوماً دون ركود أو جمود ، وهي تصل الى انسجام كامل بين الشكل والموضوع ، والغرض والاسلوب محدثة تياراً للتعبير الشعري .

عندما يغلقون عليّ باب قبري
ينسون ذنوبي ويلهجون بالحب ذكري .

وقال ايضاً :

النسيان اذن لجميع الاموات
والمجد دوماً والخلود ابداً
لاولئك الذين ما تركوا في الحياة
الا نار الذكريات

ولتشارنتس ايضاً اشعار مترجمة من بوشكين وجوتيه وغوركي وغيرهم من الشعراء المعروفين . لقد لحن عدد من اشعار تشارنتس بسبب الشعبية الكبيرة التي كان ـ ولا يزال ـ يتمتع بها ، وتغني الشعب بهذه الاشعار وخاصة القصائد الوطنية منها ، ومنها قصيدته الوطنية المشهورة (احب في وطني ارمينيا ..) وترجمت الى لغات عديدة .

ظهرت دراسات عديدة في المجلات الادبية وفي كتب خاصة عن شعر وادب تشارنتس ، نخص بالذكر كتاب (شعر تشارنتس) للناقد الاديب كاركين هوفسيبيان عام ١٩٦٩ . كما ترجمت أشعاره الى اكثر اللغات في الاتحاد السوفيتي كذلك الى الانكليزية والفرنسية ولغات أخرى .
وتوفي الشاعر سنة ١٩٣٧ .

وها اني اقدم ، مع هذا التعريف الموجز عن حياة وادب تشارنتس ، اقدم للقارىء العربي ترجمة كاملة لقصيدة (الجماهير المجنونة) ، وهي من أشهر قصائده الثورية واجملها . لقد ظهرت في طبعات خاصة عديدة مزينة بالرسوم الفنية الجميلة .

– ١ –

الى الرفاق في القرب
الى الرفاق في البعد
الى الدنى الى الشموس
الى اجيج النار في النفوس ،
الى كل من تشتعل نفسه اشتعالا ،
الى جميع النفوس الملتهبة كالشمس ،
الى النفوس التي تتلظى حية
في اتون هذا الفسق الجامح ،
فسق الحياة والموت ،
تحياتي تحياتي ...

– ٢ –

كان مساء احمر كالجمر ،
الشمس اللاهبة تتوارى في المغيب
وضباب أحمر دامي الارداء
يلف منتشراً ارجاء السهل ،
فكانه سمٌ زعاف عصر من مهجة لهيب الشمس .
والشمس المتأججة كانت تنحدر نحو المغيب ،
صابغة وجه الفلاة بالدم
باصقة فيه زعاف السمّ
كانها اتون أحمر يشتعل في الأفق ،
ينشر على السهل لمعان بريق كالدم .
كانت الحقول المائجة قد اشتعلت
بحمرة بريق شمس الاصيل .

والسهل الشاسع يمتد أحمر كالجمر ،
على مدى البصر بلا نهاية ولا حد ،
كأنه بحر مترامي الأرجاء ،
قد احتضنه ضباب المساء .

- ٣ -

في ربوع ذلك السهل القديم
كانت الجماهير المجنونة تقاتل ،
وشمس الأصيل تغمرهم ،
ونار المغيب تحرقهم .
جاؤوا من المدن ، جاؤوا من القرى ـ .
جاؤوا من السهول القصية
وجاؤوا من الحقول الدنية
جاؤوا من جديد والأمل شعلة تحرق منهم حبات القلوب .
من غادر المدينة ـ فقد ترك وراءه الضباب الهرم .
ضباب كان على صفحة الحياة
غيمة سوداء من دخان .
ومن جاء من القرية النائية ـ
فقد ترك وراءه رطوبة التربة ،
حيث لم تنبت حياة الخنوع
اية سنبلة ذهبية .
من جاء من السهوب ـ
فقد ترك وراءه عرض الافق الشاسع ،
الافق الذي كان سجناً له .
ومن جاء من المدينة النائية ،

حيث يسود ضباب خفي
قد حمل قلبه المسلول كراية حمراء .
من جاء تاركاً في البعيد
ظلام القرية المديد ،
قد جاء بقوة التراب تثمر في عضلاته .
ومن جاء من السهوب ،
حيث كان العيش رقاً ،
جاء وعرض السهوب في زرقة العيون ...
جاؤوا ثائرين حتى الجنون ،
جاؤوا ، وقد عجزوا عن حمل ثقل الحياة القديمة .
جاؤوا جامعين جموعهم .
جاؤوا ليقاتلوا في ربوع ذلك السهل الشاسع .

— ٤ —

كانت شمس الاصيل ترسل نورها كاللهيب ،
وهي تنحدر نحو المغيب .
وكانت الجماهير المجنونة
تقاتل بالأيدي ، تقاتل بالاناشيد .
كان السهل يمتد امامهم تغمره اشعة الشمس الخجول .
والمدينة الكبيرة ، هناك في البعيد ،
كانت بادية على قارعة الطريق بدلال الكسول .
كانت المدينة القديمة تتمدد دونهم
في غمرة شمس الاصيل ،
وتتلألأ كتلة بألف لون ولون .
كانت المدينة القديمة تمتد هناك ،
بعيدة بعيدة ، عريضة بلا حد ،

تخالها تستحم في سكون ضباب المساء .
وأبنيتها الضخمة كانت تشمخ بقاماتها ،
حتى لتبدو معلقة في حمرة الاجواء .
كانت الظلمة تلفها رويداً رويداً ،
وتمسح الوانها حتى لتبدو كالحة غبراء .
لم تبق سوى زجاجات النوافذ مشتعلة بالنار البعيدة ،
وهي تلتمع امام آخر جمرات الشمس الدموية .
ترسل ببريقها نحو الشمس احمر كالجمر ،
وقد اشتعلت في قلوبها حمّى مجنونة ،
وكانت المداخن الهائلة غارزة هاماتها في كبد السماء ،
كالمسامير الدامية ، ترسل لمعانها بلون الدماء .
فوهاتها ما كانت تنفث دخاناً ، يتصاعد في الاجواء ،
ولم يثقل تكاثفه سماء المساء ،
فلم يكن الا ضباب المساء يتكاثف رويداً رويداً ،
ويبتلع في جوفه المداخن الحديدية .

— ٥ —

اما محطة القطار فكانت تبدو
جنوبي المدينة رهيبة شامخة .
وبين الحين والآخر ،
كان يسمع صفير القطار
حاداً ، خلال الضباب من بعيد ،
حتى ليخيل للمرء أن حيواناً هائجاً كان يذبح هناك ...
فينطلق صوته بصرخات حادة يشوبه اليأس والقنوط ،
ويمتد عبر السهل كنبأ المنون الابدي .
كانت المحطة قابعة في وجههم ضخمة هائلة .

ومن عقد سكك المحطة
شمالاً وجنوباً ، غرباً وشرقاً ،
كانت تمتد الخطوط الحديدية
عبر السهول الشاسعة .
وكانت الخطوط الحديدية
تمتد من محطة المدينة ،
الى البعيد البعيد ،
كانها عروق قدت من الحديد ،
وهي تحتضن بقوة صدر التراب .
فكانها عروق من الصلب .
وخلسة ، تمضي قصياً ،
وهي تتقارب شيئاً فشيئاً في المدى البعيد ...
وعلى عقدة ما تتصالب الخطوط الضيقة .
كانت المحطة تبرز ، كقضية ما ، بصمت كبير قد تحجر .
وعلى مفترق الطرق كانت أشبه بعقدة
تلملم اطراف الخطوط وتشدها اليها ـ
و ... كانت تقاتل الجماهير المجنونة دون هوادة .
كانوا يقاتلون ، منشدين الاناشيد ،
ويتقدمون لاحتلال المحطة ،
كان يداً جبارة ، تحركها ارادة العالم
كانت تقذف بهم الى الامام .

- ٦ -

كانوا يقاتلون . والمساء يبث هواءً عليلاً ،
والمدينة تمتد امامهم كخصم عنيد ،
هائلة كأبي الهول ، يجثم بصدره على التراب ،

سادة الطريق الحمراء طريق الجماهير الصامـدة .
والمحطة الضخمة تربعت تجاه المدينـة بعزة وشموخ ،
في حمرة ضبـاب المساء كأنها كلب يحرسهـا .
تربعت قبالتهـا اسيرة لارادة صاحبتهـا ،
تحرس حركة عروق الحـديـد تلك .
وخنـادق كانت تمتـد كأمواج البحـر ،
على طرفي العروق الحديدية مـن الشمال والامام .
وقـد قبـع العـدو في حفرها المتماوجـة ،
يحفـر السـهل الممتد قبالتـه بأنامله الداميـة ،
ويطلق الرصـاص خفيـة بأياديه المجرمـة .
وقـد كمن غاصاً في صـدر التراب الداخلي .
كانت الجماهير تتقـدم بخطوات حثيثـة وهي تقـاتل .
والقنـابل تزار مدويـة وتتفجـر .
فكان تلك المعركة كانت أغنيـة
ترسل رنينهـا عنـد المغيب .
هـذه قنبلة قـد انطلقت وانفجرت بقوة في الخنـدق ...

— ٧ —

كانوا يقاتلون ويتقـدمون بالقتـال .
وعلى مدى اتساع سـهول الاصـيل ،
كان الموت يطلق ساخر الضحكـات .
ويرفـع عقيرته بالغنـاء ودوي القنـابل يمتزج بالغنـاء .
والجماهير تتقدم ، وهي تقاتل بضراوة النـار .
قلب كـل مقـاتل منهم كـان انشودة ،
ونظرة كـل واحـد منهـم اغنيـة مـن نار ،
كـانت قلوبهـم تشتعل كجمرة الفجـر .

والشمس القديمة كأنها أنشودة
كانت تستعر بأنوار الاصيل .
والجماهير المجنونة كانت تقاتل ...
تقاتل ، وتقاتل وهي تنشد ...

- ٨ -

ومقاتل كان يتغنى بصوته الجبار المدوي ،
يتغنى مادحاً بسالة رفيق جاء يقاتل ،
وتنطلق اغنيته كالصقر نحو الآفاق البعيدة .
كان يقاتل بضراوة وهو ما زال يغني بابتسامة مشرقة ..
كان يقاتل ،
كانت الشمس القديمة تنحدر نحو المغيب
شعلة حمراء .
وكان صوته كدقات ناقوس
عبر سهول المساء .
دقات ناقوس يرسل رنيناً حاداً ،
ليعلم البشر ، وليعرف الناس جميعاً .
كان يغني بلظى شوق غير متناه .
كان يغني وهو لا يزال يطلق النار .

- ٩ -

« ... من السهوب ، من الغابات ، من المدن القاصية والدانية ،
ها قد اتينا من جديد حاملين قلوبنا ،
قلوبنا المشرقة أملا وحيوية .
فهنا الآن معركة ، هنا موت وغسق مجهول .

ها قد رفعنا الآن مهجنا راية حمراء امام الموت .
ها هي الشمس القديمة ، شمس العصور تغيب الآن
وهي شاحبة ، تنزف الدم .
دنيا المساء هذه تبسم لنا بسمة حمراء دامية ...
ونحن ما زلنا نقاتل بقلوب تطفح بهجة وسرورا ،
بينما تنطلق انشودتنا في رحاب هذا القتال الآن .
يقاومنا العالم كانه عدونا منذ آلاف السنين ...
آه ... سيضحي الكثير منا بقلبه المشتعل شوقا .
كاشواقنا الحمر ، فلا هوادة في هذه المسيرة المجيدة .
فالى النار ، اطلقوا النار يا رفاقي المجانين ... »

- ١٠ -

كانت شمس المساء تطل على المغيب
بنورها الشاحب ،
والجماهير المجنونة تقاتل بصلابة ، دون يأس .
عيونهم تقدح بحمرة كالجمر ،
قلوبهم تطفح حمراء كالنار ،
وهم يقاتلون بثقة وثبات ،
حاملين حملتهم الاخيرة بصفوف مرصوصة .
انهم يتقدمون . وترتفع اغنيتهم بجنون ،
وهم يصلون العدو نارا حامية .
واذ بالعدو يدبر هاربا هلعا .
كان الظلام قد حل ، وغاب آخر شعاع للشمس
عندما احتلوا المحطة بحملة بطولية ...

- ١١ -

الآن ظلام ، هبط الليل بكل عمقه وكلكلـه .
الآن ظلام ، ظلام كثيف دامس ،
لا نور يضيء محطـة القطـار ،
حيث الجماهير المجنونة تتزاحم بآلاف الوجوه والاسماء .
والاقـواس الحديدية الضخمـة
لا ترى في ظـلام الليـل .
فالانوار اطفئت في المحطـة ،
خشية ان يلمحهـا العـدو ..
انهـم ينتظرون ، واحداقهم عالقـة بالآفـاق المظلمـة .
المحطـة سقطت في ايديهـم بعـد حلول الظـلام .
الآن ـ ، ينتظرون طلوع الفجـر ، طالبين شيئاً من الراحـة .
وفي الصباح سيزحفون مـن جديد على المدينـة .
تحـدق عيونهـم في الظـلام الكثيف ،
وقلوبهـم تخفـق عطشى ،
وينتظرون طلوع الصبـاح ليستانفوا القتـال .
كم كانت المدينـة تبدو قريبـة من محطـة القطـار ...
قبيـل قليـل ، عندما كانوا في السهل
يخوضون غمـار قتـال دام .
جاءوا واحتلوا المحطـة الكبيرة ،
وهم يقاتلون ، وينشدون الاناشـيد .
اما العـدو فقـد التجـا الى المدينـة مندحرا هاربا .
الآن ينتظرون ، ليرتاحوا حتى انبـلاج النـور ،
ليستانفوا الزحف مع الصبـاح على المدينـة .

- ١٢ -

في عتمـة ألف عام ، وفي أعماق الليـل اللامتناهيـة ،
حشدوا حشودهم في المحطـة .
والسهل المظلم يمتـد أمامهـم .
فلا يعكر صفو هدوئه صـوت ولا ريـح .
الظـلام سـيد كل شيء .
هنالك يمتد السهل أمامهم دون حـد ،
كتلة لا متناهيـة الاطراف ، سوداء معتمـة ،
حيث تربـع الشك مظلمـاً ، مليئـاً بالاسرار .
فلا عـينٌ له تبصـر ، ولا نور يضيء ،
لقـد أقعى مثـل كلب يحرس الآن ظلمـة الليـل .
لقـد أقعى ، والضبـاب الكثيف يلفه مثـل عـدو لا يرى .
الشك القـديم تربـع في الظـلام ،
يحـدق في المحطـة القائمـة أمامـه بعيـون معتمـة .
وكـان الظـلام كان يتحرك محدقاً بعيـونه
في زرقـة عيـون الجماهـير المجنونـة .
بنظرات تحـدق دون رفـة جفن ، واضطراب كـاد أن ينطق
تـطر الجماهـير المجنونـة في الابعـاد المدلهمـة .
يحدقـون بزرقـة عيونهـم الحزينـة
تعمـق في العتمـة اللامتناهيـة ،
وضجـة الليـل الخرسـاء تئزّ في المحطـة

- ١٣ -

أمام المحطة الكبيرة تجمعت جيوشهم سيلاً عرمرماً ،
وعيونهم الزرقاء تحدق في ظلمة السهل
وهي تفيض بإرادة كالشمس .
يسود الظلام امامهم فاتحاً فاه كالهاوية .
وهناك في البعيد القصي ،
كتلة ترسل نوراً احمر ،
ويتراءى ذلك النور المشتعل في البعيد المعتم
كتله تلتهب ، نقطة حمراء ؛
أمام العيون التي تحجبها غشاوة الظلام ،
أمام النظرات التي يقلقها الترقب
وترسل تلك الشعلة بنورها في هدأة ظلام الليل ،
ترسل شعلة حمراء ، حمراء ، باضطراب .
اشعلوا ذلك النور في ظلام الليل
كي لا تنام القوات ، ولتبقى يقظة مستعدة .
وفي عتمة الليل المترامية بعيداً
تبدو تلك الشعلة .
اشعلوها رمزاً للقتال ، للثورة .
هي المدينة قائمة منذ الف عام ،
حيث الصراع يتحكم ، والقشعريرة تسود ،
انها متخفية كعدو جن جنونه من الخوف .
والجمرة الحمراء تلك تبدو وكأنها نقطة دموية
هائلة رهيبة في دماغ مجنون مهووس ،
قد التهبت بآخر امل ، واشتعلت بحرارة الاحتضار .

- ١٤ -

تنتظر الجماهير المجنونة انبـلاج الصـبـاح ،
واحداقهم في ظلمـة الدجى مسـمّرة في نقطـة الامل الحمراء .
وتلـك النقطـه السوداء في أحزان نفوسهم المؤمنـة
تلتهب كشعلة امـل في الافق البعيـد .
انهـا سيف مضى في افئدتهم مضاء اقطـاب نار حمراء .
مالئـة قلوبهم سماً ولهيباً ، واحلاماً تدمر العوالم ...
يصـح الجـرح القديم جرح آلاف السنـين في قلوبهـم ،
ويزرع الآن السعيرَ والعصيانَ في نفوسهم المؤمنـة ،
ورغبـة حمراء دمويـة تشع في عيونهـم السماوية .
وملايـين العيـون تبصق السمَّ ، تبصق السمَّ والدم ،
وتتصاعـد مرارة السنـين الاليمـة مـن افئدتهـم ،
ثم تحترق في عيونهـم الزرق دمويـة مسعورة .
وبعيـون طافحـة بالدماء ، محدقة في النقطـة الحمراء
تنتظر الجماهير المجنونـة انبـلاج الصبـاح .

- ١٥ -

نفوسهم المظلمـة ليـل دامس أمام الليـل ،
تنتظر بشوق لاهب طلوع الصبـاح .
قلوبهـم ظـلام كبـير ، ولكن في ذلك الظـلام اللامتناهي
تكمن سموات زرقـاء العيـون ،
وآفـاق مديدة ، آفـاق لا تحـدّ .
وفي عيونهـم الزرق حيث بسط الليـل المظلم ذراعيـه .
آلاف براعم ناريـة ، وفجـر وصبـاح .
تربعت في عضلاتهـم المشدودة قوة الارض الرطبـة .

فان أرادوا ــ أعطوا الشموس دفقة انطلاقة جديدة وطريقا جديدا ...
ان ارادوا ــ قذفوا الشموس الى ذرى السماء
ان ارادوا ــ انزلوا الشموس من العليـاء ...
ان ارادوا ــ بارداة لا تلـين تلتهب بنـار الدنيـا ،
فأي شيء تعجز عـن تحقيقه الجماهير المجنونـة ...

- ١٦ -

ويسيل الليـل المظلم ، مقترباً مـن الفجـر .
ويسيل آخر ، ساعـة الانتظار باردة دون جـدوى .
ها هي نـسمات الفجـر تهب مـن الـسهل لطيفـة منعشة
وتزكو نار تلك النقطـة الحمراء بآخر نورها ...
ها هي العتمـة تتلاشى قليـلاً قليـلاً ويتبدل لونهـا .
وساعد من نـار هائلـة تشق كبـد الظـلام في الشرق .
وتـري في غسق الفجـر من الآفـاق البعيـدة
ابتعاثات الربيـع المعطرة الفواحـة رقيقـاً هادئاً .
وتتحرك الظلمة هنـا وهنـاك ، وفي البعيـد الملتفة بالعتمـة ،
ها قـد اخذت المدينـة تبدو كتلة سـوداء غامضـة ،

□ ■ □

معجم الأساطير اليونانية والرومانية

القسم السادس

ترجمة وإعداد : سهيل عثمان
عبد الرزاق الأصفر

□ بونـاديـا Bona Dea :

هذه التسمية تعني (الآلهة الطيبة) • وهي الهة الخصب والطهارة عند الرومان وكانت زوجة فونوس • وفي رواية أخرى أنها ابنته دافعت عن عفافها حين حاول اغتصابها • وكانت عبادتها القائمة على الأسرار تجري في شهر كانون الأول في بيت أحد النبلاء حيث تجتمع نساء النبلاء ويمارسن الطقوس بعد خروج جميع الرجال وكل ما يمثل جنس الذكر من الانسان والحيوان • وفي حديقة معبدها يقدم العلاج للمرضى لانها ايضاً آلهة الشفاء •

بونـاديـا في الفن : وجدت لهذه الآلهة تماثيل صغيرة على هيئة امرأة جالسة على عرش وبيدها قرن الوفرة وبصحبتها الأفعى رمز الشفاء كما وجدت صورها أيضاً على الميداليات •

□ بـونتـوس Pontos :

هو تشخيص للبحر بأمواجه وأعماقه ولدته غايا ثم تزوجها فولدت منه العديد من القوى مثل اوقيانوس ونيريوس وفورسيس وسيتو وتوماس • ولم يكن بونتوس موضوعاً لأي عمل فني ولا لأية أسطورة • وكان القدماء يطلقون اسمه على البحر الأسود •

☐ بونوس ايفانتوس Bonus Eventus :

هذه التسمية تعني (النتيجة الطيبة) وهي اسم آله الغلة الوفيرة والمساعي الناجحة • وقد وجد تمثاله بجانب معبد جوبيتر في الكابيتول بروما •

☐ بيبليس Byblis :

هي بنت ميلتيس وحفيدة مينوس عشقت أخاها كونوس فكان يهرب منهـا وما زالت تلاحقه وتبحث عنه في آسيا الصغرى حتى هلكت جوعاً وتعباً وتحولت الى ينبوع • ويقال أنها شنقت نفسها من ألم الخيبة واليأس • كما يقال أن بيبلوس (جبيل) المدينة الفينيقية التي اشتهرت بعبادة أدونيس قد اشتق اسمها منها •

☐ بيتــون Biton :

كان هو وأخوه التوأم كليوبيس ولدين لسيديب كاهنة هيرا في أرغوس • وفي أحد الأعياد الدينية أرادت الكاهنة الذهاب الى المعبد في موعد القربان وكان عليها أن تمتطي الى المعبد عربتها التي تجرها الثيران البيض • ولكن الثيران تأخرت في مرعاها فتطوع ولداها بجر العربة وكانت المسافة طويلة • وتأثرت الوالدة ببرهما فدعت الالهة هيرا أن تمنحهما أفضل ما يمكن أن يمنح لانسان فألقت عليهما النوم الأبدي وقيل أماتتهما أثناء نومهما •

☐ بيثــون Python :

هو تنين هائل أنجبته الأرض بناء على طلب هيرا لكي يقضي على ليتو ضرتها التي حملت من زوس • وقد نجت ليتو من هذا الوحش بمساعدة بوزيدون وولدت الالهين أبولون وأرتيميس • وبلغ أبولون سن الرشد في يومه الرابع وطارد التنين عند أسفل البارناس وأفلح في قتله وأنشأ بهذه المناسبة الألعاب البيثية واتخـذ لنفسه لقب بيثوس أو ابيثي •

☐ بيثيــا Pythie :

لقب لعرافة أبولون في دلفي وقـد كانت في الاصـل تنتقى من بين أجمـل

الفتيات وأطهرهن ثم أسندت هذه المهمة الى النساء الناضجات • وكانت البيثيا تجلس في الهيكل على كرسي مثلث القوائم فوق حفرة تتصاعد منها أبخرة تعبر بشكل ما عن روح أبولون بينما تمضغ بعض أوراق الغار • وحين يوافيها الوحي تنتابها أعراض هيستيرية فتنطق بكلام متفكك يفسره الكهان للراغبين في استشارة الاله ومعرفة مصائرهم ومستقبل مشروعاتهم • وقد ظهرت بعض صورها على الآنية الاغريقية جالسة على كرسي مثلث القوائم وحاملة باحدى يديها صحفة وبالأخرى غصناً من الغار •

☐ بيرّا **Pyrrha** :

هي بنت أبيميثيوس وباندورا نجت مع زوجها دوكاليون من الهلاك العالمي بسبب رأفتها الكبيرة ثم أصبحت واياه أصلا جديدا للنوع الانساني فكانا يلقيان قطعاً من الحجارة سرعان ما تستحيل الى نساء ورجال •

☐ بيرام **Pyrame** :

يروي أوفيد أن بيرام كان فتى بابلياً نشأت بينه وبين جارته الفتاة ثيسبة عاطفة حب نموذجية • ورفض الأهل تزويجهما فراحا يتناجيان من خلال شق الجدار الفاصل بين بيتيهما وتواعدا مرة أن يلتقيا في احدى الليالي تحت شجرة توت أبيض خارج المدينة • ووصلت ثيسبة الى المكان قبل حبيبها ففاجأها أسد نجحت في الافلات منه بعد أن سقط وشاحها بين مخالبه فلوثه الوحش بفمه الدامي• وبعد قليل وصل بيرام فلم يجد حبيبته ورأى وشاحها الملوث بالدماء فظن أن الوحش قد افترسها فما كان منه الا أن أغمد سيفه في صدره منتحراً • وحين عادت ثيسبة وجدت جثة حبيبها المضرجة بالدماء فانتحرت فوقه وتمازجت دماؤهما واستحال توت الشجرة أحمر اللون قانياً • وتذكر رواية أخرى أن ثيسبة حملت من بيرام بدون زواج فانتحرت خجلا وانتحر هو حزناً عليها •

ولم تظهر هذه القصة في الفنون القديمة ولكن فناني عصر النهضة والباروك تناولوها في رسومهم ونقوشهم •

□ بـيرديكس Perdix :

هو ابن أخي ديـدال وتلميذه . اخترع المشار والفرجار ودولاب الفخـار فحسده عمه على نبوغه وقذف به من أعلى معبد أثينا في الأكروبول . واجتمعت محكمـة الأريوباج لتنظـر في الجريمة فحكمت عـلى ديدال بالنفي . وتذكر احـدى الروايات أن اسمه كان تالوس وأن الآلهة أثينا حولته الى طائر حجل عندما تحطم جسمه على صخور الأكروبول .

□ بريكليمينوس Periclymenos :

١ ـ هو ابن بوريدون وكلوريس . كان حليفاً لايتيوكل بن أوديب ضد أخيـه بولينيس الذي جاء الى طيبة بحملة الرؤساء السبعة . وقد قاوم هذه الحملة وقتل أحد الرؤسـاء كما طـارد أمفياروس الـذي أنقذه زوس بأن جعـل الارض تبتلعـه .

٢ ـ ابن الاله البحري نيريوس وأحد الأرغيين اشتهر بشدة بأسه . وقد منحـه بوزيدون القدرة على التقمص في أية صورة حيوانية يشاء . قتله هرقـل عند تدمير بيلوس .

□ بيغـــاس Pégase :

هو حصان سحري مجنح كان أسرع من الريح وقد ولد من دم ميدوزا عندما قطع برسيوس رأسها وعاش هذا الحصان يبحث عن الينابيع وبضربة من حافـره انبجس ينبوع هيبوكرين . وقد استطاع بيلّيريفون ترويضه وركبه لقتل الغول ثم مضى به صعداً نحو السماء فرماه زوس بصاعقة وقذفه بيغاس عن ظهره وتابع طريقه حتى أصبح في عداد النجوم .

بيغاس في الفن : ظهرت صورة الحصان بيغاس على العديد من النقود اليونانية ووجـدت صورة على قطعة مـن الآجر تمثل بيلّيريفون ممتطياً صهوة بيغـاس وهو يقاتل الغول . وفي نقش بارز روماني يشاهد بيلّيريفون وهو يسقي حصانه من الينبوع كما وجد نقش بارز يعود الى القرن السادس قبـل الميلاد يمثل ميدوزا

ذات الرأس المقطوع وهي تضم بيماس بذراعها الأيمن • وصور بيماس بشكل عام مجنحة الا أن بعضها يظهره بلا أجنحة •

بيغمـاليــون Pygmalion :

هو ملك قبرص ، كـان نحاتاً بارعاً ، قضى شطرا مـن حيـاته عزبة الى أن صنع تمثالا عاجياً لامرأة عارية جميلة فأسقط حبه للمرأة على هذا التمثال الذي أحيته له افروديت استجابة لابتهالاته فكانت غالاتيا التي تزوجها وولدت منـه بافوس مؤسس مدينة قبرصية سميت باسمه • ويحمل هذا الاسم أيضاً أحد ملوك صور الذي يقال انه كان أخا ديدون وقاتل زوجها •

وقد كان بيغماليون النحات وحبه للمرأة التي صنعها موضوعاً أثيراً لـدى فناني النهضة والباروك ومنهم بوشيه وفالكونيه •

بيــلاد Pylade :

هو ابن ستروفيوس ملك فوسيد وخال أورست الذي كفله بعد مصرع أبيه أغاممنون • كان بيـلاد رفيقاً لأورست منـذ الصغر ونشأت بينهما صداقـة متينة أصبحت مضرب المثل ، وقد صحب بيلاد صديقـه أورست في تجواله وشاركـه في أعماله التي انتهت بقتل والدته كليمنسترة وعشيقها ايجيست ثأراً لأبيه أغاممنون• ولم يتخل بيلاد عن صديقه حين لاحقته آلهات الانتقام وصحبه في الرحلة التي أعاد فيها أخته ايفيجنيا من معبد أرتيميس وقد كافاه أورست بتزويجه أخته الكتـرا التي أنجب منها ولدين هما ستروفيوس وميدون •

ويظهر بيلاد في الآثار الفنية دائماً بصحبة أورست •

بيلاسغوس Pelasgos :

هو جد البيلاسغيين وهم السكان الأسطوريون الأوائل لبلاد اليونان • ولـد هذا البطل على ساحل أركاديا ثمرة لحب بين زوس ونيوبة • أحب الحورية سيديبة وأنجب منها ولده ليكاوون وبنته كاليستو • وتزعم رواية أخرى أنه ابن تريوباس

وسوريس وأخو ياروس واجينور وانه خلف بنتاً اسمها لاريسا • وتقول رواية أخرى أن لاريسا هي أمه وأن بوزيدون أبوه • وقد اقتسم حكم الأرض اليونانية مع أخويه آخايوس وفتيوس •

☐ بيلوبس Pelops :

هو ابن تانتال ملك ليديا • ذبحه والده وقدمه طعاماً للآلهة الذين دعاهم الى مائدته ظناً منه أنه سيحظى برضاهم ، ولم يخبرهم بذلك وحين ابتدأ الطعام أكلت ديمترا قطعة من كتف بيلوبس قبل أن يكتشفوا الجريمة • ولما اكتشفوها سخطوا وبعثوا بيلوبس حياً وعوضوه عن كتفه كتفاً من العاج • وساح بيلوبس في أرجاء اليونان الى أن وصل الى مدينة بيزا في مقاطعة الايليد التي كان ملكها أونوماوس قد أعلن أنه لن يزوج ابنته الحسناء هيبوداميا الا لمن يتفوق عليه في سباق العربات ، واستطاع بيلوبس أن يفوز بعد ان رشا السائس فألصق عجلات عربة أونوماوس بالشمع فذاب الشمع وانفصلت العجلات وسقط أونوماوس صريعاً وجرته جياده التي لا تسبق • وتزوج بيلوبس هيبوداميا وأصبح ملكاً على الايليد وكانت فترة ملكه مجيدة بحيث أطلق اسمه على شبه الجزيرة اليونانية بأسرها (البيلوبونيز) ومعناها جزيرة بيلوبس • وأسس الألعاب الأولمبية التي نظمها هرقل من بعده • ولكن النقمة التي حاقت بتنتال لازمت بيلوبس وذريته ومنهم ولداه أتريوس وثييستوس •

بيلوبس في الفن : توجد على الواجهة الشرقية من معبد زوس في أولمبيا صورة لبيلوبس متأهباً للمباراة مع أونوماوس لابساً درعه وحاملاً حربته وتعود هذه الصورة الى النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد • وتوجد صور السباق على مختلف الآنية والتوابيت والأجران الأتروسكية ومنها صورة تظهره مع زوجته منطلقين بعربتهما بينما اندفعت ثيابهما وشعورهما مع الريح •

☐ بيلوبيا Pelopia :

هي بنت ثييستوس • وكانت كاهنة عند الملك ثيسبروتوس • تزوجت أباها

وأنجبت منه ايجيست وأرادت اخفاء عارها فطرحت ابنها هذا في العراء وتزوجت عمها أتريوس لكن القدر قاد اليها ابنها شاباً ولما علم بسر مولده انتحرت أمه ٠

☐ بيلـــوس **Belos** :

١ ـ تسمية لاتينية للاله السامي بعل ٠
٢ ـ ملك صيدا أو صور ووالد ديدون وبيغماليون ٠
٣ ـ ابن الحورية ليبيا من الاله بوزيدون وتوأم آجينور ٠ وقد ملك مصر وانجب ايجيبتوس ثم داناووس ٠

☐ بيلتّون **Bellone** :

هي آلهة الحرب عند الرومان ذات أصل سابيني وهي إما مرضعة الاله مارس أو أخته أو زوجته أو بنته ٠ كانت ترافقه في الحرب وتقود عربته وتضع الخوذة على رأسها وتحمل الرمح بيدها ٠ بنى لها الرومان معبداً على الكابيتول احترق عام ٤٨ ق٠م ٠ وقد اتحدت بيلتّون بالآلهة اليونانية اينيو ٠

بيلتّون في الفن : بـــرزت بيلتّون في الصور الرومانية امرأة مقـدامة ذات خطوة فسيحة متسلحة بالرمح أو حاملة الشعلة وواضعة الخوذة على رأسها ٠ وقد صورها رامبرانت على هيئة امرأة رومانية تحمل الترس ٠

☐ بيليـــاس **Pelias** :

هو شقيق نيليوس ٠ وقد ولدتهما تيرو من بوزيدون آله البحار وحاولت التخلص منهما بأن القتهما على قمة جبل فانقذهما الرعاة وعرفا فيما بعد أصلهما الآلهي فانطلقا حتى وصلا الى يولكوس فوجدا أمهما سجينة تعذبها حماتها فخلصاها وقتل بيلياس الحماة في معبد هيرا ، ثم جـــرت بينهما خصومة على العرش الـــذي فاز به بيلياس بعد أن تغلب على أخيه نيلوس وأخيه غير الشقيق ايزون ٠ وحذره الوحي من رجل يلبس نعلا واحدة فكان هذا جازون ابن أخيه ايزون ٠ وقد أتى المدينة بعد سنين مطالباً بعرش أبيـه ، فوعده بيليـــاس برد العرش اليه اذا جاءه

بالصوف الذهبي من الكولشيد • ولهذا كانت رحلة الأرغيين التي عاد منها جازون باراً بوعده ليلقى الجحود من عمه ولكنه استطاع مع زوجته الساحرة ميديا أن ينتقم فقد اقنعا ثلاثاً من بنات بيلياس بأن ميديا تستطيع أن تعيد الشباب الى أبيهن اذا قطعنه وطبخنه في قدر مع جملة من الأعشاب السحرية • وانطلت الحيلة عليهن فقتلن أباهن ولم ترجعه ميديا الى الحياة • وتسلم العرش من بعده ابنه آكاست الذي طرد جازون وزوجته وأقام الاحتفالات الجنائزية الشهيرة على روح والده وقد حضرها كثير من الأبطال •

بيلياس في الفن : للفنان بوليغنوت صورة رسمها لبيلياس وهو جالس على العرش ، وقد فقدت هذه الصورة من دلفي • ولبيلياس صور على بعض الآنية الاغريقية وهو جالس على عرشه معتمداً على عصا بينما تشاهد ميديا وهي تدبر مؤامرتها مع بناته •

☐ بيليروفون Belléraphone :

هو ابن غلوكوس وحفيد سيزيف • قتل في صباه بيلّيروس طاغية كورانثوس فطرد من المدينة والتجأ الى برويتوس ملك تيرانت الذي أكرم وفادته وطهره من دنبه • وهامت الملكة حباً بالبطل وتقربت اليه فاستعصم فغضبت واتهمته لدى زوجها بمحاولة إغوائها فصدقها ولكنه لم يشأ أن يقتل ضيفه بيده رعاية لحرمة الضيافة فبعثه الى حميه يوباتس ليسيا وأوصاه سراً بقتله ولكن هذا أبت عليه حميته أيضاً أن يقتل ضيفه بشكل مباشر فأخذ يكلفه خدمات خطيرة علّه يهلك في احداها الا أن بيلّيروفون كان يخرج منها سالماً مظفراً فقد روض الحصان الخارق بيغاس وركبه وقاتل الغول بمساعدة أثينا ، وقاتل الأمازونات • وقد اغتر بيلّيروفون بقوته فلم يقف عند الحدود التي رسمتها الآلهة للبشر اذ امتطى صهوة الجواد بيغاس وصعد به نحو الأولمب طالباً الخلود فتصفه زوس باحدى صواعقه وأوقعه الحصان عن ظهره وتابع الحصان سيره نحو الأولمب ، ويقال أن البطل مات في هذه الحادثة ويقال أنه ظل حياً وهام على وجهه في أنحاء العالم أعرج أعمى وحيداً •

بيلتيروفون في الفن : طرق الفن القديم موضوع قتل بيلتيروفون للغول وهو يمتطي حصانه فوجد هذا المنظر على كـوب كورانثي يعود الى القرن السابع قبـل الميلاد عثر عليه في جزيرة ايجـين كما وجد المنظـر منقوشاً بارزاً على قطعـة من الفخـار المشوي في ميلو بايطاليا ووجـدت نقوش بارزة تعود الى حقب احـدث فـي رومـــا ٠

☐ **بيليـوس Pelée :**

هو ابن اياكوس ملك الميرميدون ٠ قتل أخاه غـير الشقيق فوكوس اثنـاء ألعاب رمي القرص بمساعدة شقيقه تيلامون فعوقبا بالنفي ومضى بيليوس الى مقاطعة فتيوتيد حيث طهره ملكها أوريتيون وزوجه ابنته أنتيغون واعطاه قسماً من مملكته ٠ وقد اشترك في رحلة الأرغيين واثناء صيد الخنزير في كاليدونيا قتل خطأ حماه أوريتيون فنفي ثانية ومضى الى يولكس التي كان ملكها آكاست يقيـم احتفالا جنائزياً على روح أبيه فاستقبل بيليوس وطهره من ذنبه ولكن زوجته الملكة أستيدامية أحبت ضيفها الذي لم يستجب لاغوائها فانتقمت منه مرتين أولاهما حين أرسلت رسالة الى زوجته تتهمـه فيها بالخيانة الزوجية مما دعـا الزوجـة الى شنق نفسها والثانية حين سمت به لدى زوجها مدعيـة أنه حاول اغواءها ٠ فاحتـال اكاست حتى ترك ضيفه طريحاً على الأرض وسط الجبال مرتقباً هلاكه ولكن الآلهة أنقذته على يد السانطور شيرون فعاد الى يولكوس وقتل الملك والملكة الغادرين وحكم محلهما وتبادل الحب مع الحورية ثيتيس التي كانت الآلهة قد منعتها من الزواج بانسان فأخذت تغير هيئتها كلما اقترب منها حبيبها وتأخذ أشكالا كبيرة وصغـيرة مخيفة وحقيرة الى أن رضيت الآلهة بزواجها فأقام بيليوس حفلة زفاف عظيمـة دعا اليها جميع الآلهة الذين أهدوا اليه ترساً لا تخرق وجوادين خالدين ٠ ولـم تدع ايريس الى هذه الحفلة فتطفلت وألقت تفاحتها الشهيرة التي أدت الى حرب طروادة ٠ وقد ولد من هذا الزواج البطل آخيل ٠ بقي بيليوس ملكاً حتى اقصي عن العرش أثناء غياب ابنه آخيل في حرب طروادة وتوجد روايتان حول مصـيره بعد الموت تقول احداهما أنه انضم في العالم الآخر الى أبيه وابنه وتقول الأخرى انه لحق بالحورية ثيتيس وما زال يعيش معها في أعماق البحر ٠

بينات Penates :

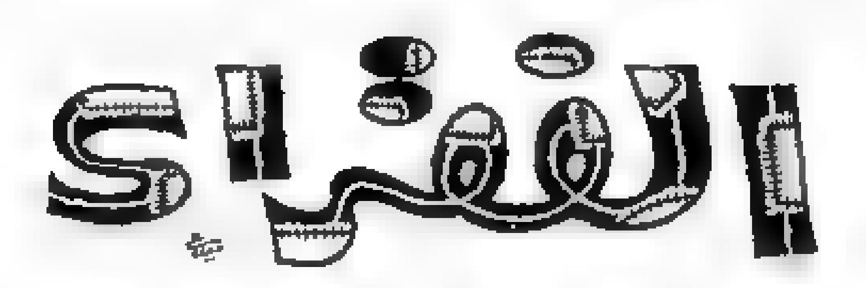
هي أصنام رومانية تحمي المنزل والحياة العائلية • وكانت تؤلف مع الفستا واللار ثالوثاً متلازماً • ولها في كل بيت ركن خاص تقدم إليها فيه العادات والقرابين لتجلب البركة الى المنزل • ويقال ان اينياس حملها من طروادة الى ايطاليا • وتمثل البينات على هيئة شابين جالسين وبالتدريج أصبح لكل قرية أو مدينة بيناتها الخاصة حتى أن الدولة الرومانية ذاتها كانت تعتقد برعاية هذه الآلهة لها •

بينيلوبة Pénèlope :

هي بنت ايكاريوس والحورية بريبويا • وكان تندار ملك أسبارطة عمها • تزوجها أوليس كما ورد في سيرته التي سلفت • وتروي الأوديسة أنه حين طال الغياب بعد حرب طروادة تعرضت زوجته لضغط شديد من بعض الوجهاء الطامعين بالزواج منها فعاشوا حول قصرها وعاثوا فساداً في رزقها واشاعوا موت أوليس • ولكي تماطلهم أعلنت أنها لن تختار زوجها الجديد الا بعد أن تنجز حياكة كفن لايرت والد أوليس ، وكانت تنقض في الليل ما تنسجه في النهار ولكن احدى خادماتها كشفت حيلتها لخاطبيها فشددوا عليها ضغطهم حتى كادت أن تخضع لهم لولا أن وصل أوليس الى ايتاكا في الوقت المناسب فقتلهم وأنقذها •

وترتسم روايات أخرى بعد العصر الهوميري أن بينيلوبة اختارت لها زوجاً جديداً وتقول رواية أخرى ان أوليس هجرها بعد أن عاد وتقول رواية ثالثة أن تليغونوس ابن زوجها اوليس تزوجها بعد أن قتل أباه خطأ • وعلى كل حال تبقى بينيلوبة رمزاً للوفاء الزوجي بين زوجات أبطال طروادة •

بينيلوبة في الفن : توجد في متحف الفاتيكان لوحة لامرأة مقنعة يظن أنها بينيلوبة وربما كانت صورة عادية من صور النساء الحزينات التي تصور على التوابيت • وتوجد على اناء أتيكي صورة تمثل بينيلوبة عاكفة على نسجها وفي بومبي صورة مائية تظهر اللقاء بين أوليس وبينيلوبة •



قصة : إيليا فولين
ترجمة : حسيب كيالي

شمس الصيف ترتفع الى السمت وتطعن بأشعتها الذرة التي ارتفعت سوقها قوية متراصة انضجتها الحرارة فحولتها من الخضرة الى الرمادي الشاحب . ما من ورقة تتحرك ، ولا يسمع غير ضوضاء الفلاحين الذين يحكشون الارض هنا وهنالك في الحقول . من العدوة الاخرى للطريق يتوهج القمح الذي أصفر . وكان آل روستنوف يعزقون عوداً على بدء حقل ذرة نيكولاي الضخم الذي استجروه مناصفة الربيع الماضي . وقد جاء معهم طفلهم الذي يبلغ الخامسة أو السادسة من العمر ولم يشأ ان يظلّ في القرية عند جدته . كان سعيداً برؤية الغابة الخضراء حيث تغرد الطيور ، والبراري الصهباء الناضجة تزركشها الأزهار وبطن النمل ، والاقحوان الاحمر يطلّ من بين سنابل القمح الذي ينضج . رادتشكو ، كان هذا اسم الولد ، يساعد اباه وامه في اقتلاع أوراق الذرة الواطئة التي تعيق الفرق ، ويعمل في همة على حش الاعشاب الضارة التي تحف بالنباتات ، ويصاحب اباه عندما يرد العين لجلب الماء . وكان أبوه يتخير بعض اوراق الذرة مما هو عريض وطويل ، ويثنيه مرات عدة . ويعض على الورقة المطوية هكذا تاركاً آثار أسنانه عليها . فاذا نشر الورقة بعد طيّ تهرمشت بعض الشيء وبدت فيها وجوه متداخلة بعضها في بعض على نحو غريب يثير دهشة لا حد لها تظهر على الوجه الطفلي العذب . وكانت دهشة الطفل تتعاظم اكثر حينما كانا يعمان

على فسيلة درة أوراقها الخضراء مُحَبَّرة ، على نحو غير مألوف ولكنه جميل، بالخطوط البيضاء حتى ان الاسرة رسمت هذه الفسيلة « ملك الدرة » ، وان راديتشكو طفق يدور حول الساق المُحَبَّرة حتى الظهر . وقد لقيت أمه كلَّ العَسْر في اقتلاعه من فتنته اذ جلسوا الى السفرة تحت شجرة الاجاص.

بعد البصل ، الصنف الوحيد المملح في وجبتهم البسيطة تلك ، أكلوا فطيرة الذرة البارده وتحلَّوْا ببضع خوخات حمراء كانوا قطفوها من الخوخة التي اظهرت باكوراتها المبكرة خلف منزلهم في الضيعة . ولا نكتم سراً اذا قلنا لك انهم صفر اليدين غير قادرين على شراء السكر لصنع الخشاف .

وبرم الطفل شفتيه وهو يلوك طعامه . وقال الأب وهو يلقي على اسرته نظرة تنطوي على شيء من التشجيع :

ـ قليلاً من الصبر . يجب ان نصبر اسبوعا وعلى الأكثر اسبوعين .

الأم والولد ركزا عليه نظرة طافحة بالتساؤل والأمل ، فقال وهو يشير الى سنابل القمح بحركة من عينيه :

ـ انظرا اليها . انها صفراء وتفوح منها ، منذ الآن ، رائحة الخبز !

وبدأت المرأة تقول وقد خطر على بالها شيء ما :

ـ اجل ، وعندئذ ...

ولكن زوجهـا سبقها الى القول :

ـ ينبغي لنا صباح بأكمله من اجل حصاد الحقل الذي في الأعلى ، حقل بريبيك ، حيث تضرب اشعة الشمس أقوى من اي مكان آخر . هناك ينضج القمح أول ما ينضج . ونحن لسنا في حاجة الى انتظار نضجه تماماً !

وقالت المرأة متحننة :

ـ يا للحقل الصغير اللطيف الذي في بريبيك !

ـ سنحمّل العربة بالحزم سريعـاً و ... مع وجهنا الى الجرجر فالطاحون . وسأذهب فأرجو كراتشون ان يطحنه لي في الليل . وهكذا ، في

صباح اليوم التالي ستكون لدينا فطاير طازجة : مستديرة ، ساخنة تماماً ، ساخنة جداً ...

واضاف مارحاً وهو يلحس شفتيه ويبلع الريق الذي تدفق الى فمه :

ــ انتهبوا انها محرقة ما تزال !

وسألت الأم الولد وهي تحصنه بنظرها ، وتداعب شعره الذي الهبته الشمس :

ــ فطيرة ساخنة تماماً ! ! هل تسمع ؟ فطيرة تقطعها فيتصاعد منها اللهاب يا سيد راسي . وهي طرية ، حلوة . حلوة جداً أحلى من القبلة . انتظر فترى على أي شيء أملك قادرة ...

وكرر الندب وعينه تحدد النظر أمامه ونظره يزداد قساوة وسوءا

ــ فطيرة ساخنة تماماً .

وسألت المرأة متوجّسة ، سيئة الظن :

ــ و « الصخم » ، هل تعتقد أنه سيحرج الحصّادة الى البيدر بالقليل؟

ــ مؤكد ! عندما يصلحها سينزل بها الى آخر القرية وسيجيء حسابة الافعى ، نصف سطل ونصفاً من الحب !

وعادت الأم تقول وهي تداعب الطفل :

ــ فطيرة ساخنة تماماً . والعجلة ، اذا نحن غذيناها جيداً أصبحت سمينة . واضافت وعيناها تضطرمان بحماسة أشد :

ــ رح يا ولدي اجمع لها سيقان الذرة المقطوعة . ستحملها لها على ظهرنا هذا المساء . فلتأكلها وتحمل وتلد ! حتى يصير لدينا حليب !

وانتهت الوجبة . وابعد الأب ، وهو ما يزال جالساً ، قلّيمات التراب وراء ظهره ، ثم تمدد وراسه في الظل ورجلاه في الشمس لانه كان يشكو من الرثية . وما ان فعل حتى علا شخيره .

الأم لم تتمدد . صحبت الطفل في الغابة المرتشة القريبة بحثاً عن الفراولة البرية لعلّها أن تضع له شيئاً آخر تحت ضرسه . وقاما ، بعد

عودتهما من الدغل ، بجولة وتوقفا في الجانب الآخر من الطريق غير بعيد من حقــل القمح .

سنابل القمح كان لونها يضرب الى الصفرة وأما أسافلها ، قرب الأرض الملساء المخدّدة ، فصهباء . في حين لم يبق على الســوق في الأعلى غير قليل من الخضرة . الســنابل قد ثقلت واخذت تميل عن جانب .

ولبثا كلاهما هكذا واقفين امام القمح . الأم حافية ، بثيابها الرمادية المرقعة ، متغضّنة الوجه ، عجوز قبل الأوان . والطفل حافٍ هو ايضــاً ، بـبنطاله الكتاني الأسود ووجهه الهزيل المغطى بالنمش وأنفه الذي قشرته الشــمس .

ـ هل تشمّ ؟ ما اطيب رائحته ! رائحة الخبز ! خبز القمح الطيب ! العطرة الطيبة ! هاك . شمّ بأنفك ذاته !

قالت هذا وهي تنظر الى الولد بعينيها السوداوين البراقتين .

وتنشق الولد وضحك وهو ينظر الى امّه وقد ثنى الضحك وجهه نحافه كوجه شيخ همّ كبــير .

بعد لحظة دحشا وجهيهما في الســنابل واخذا يتنشقان رائحة القمــح الندية المسكرة . وقالت الأم مازحة وهي تقلّد حركة المضغ والبلع :

ـ هانذي آكل .

قال الولد وهو يلعب لعبة امه في « المضغ » و « البلع » :

ـ وانا ايضاً آكل .

ولم تلبث الأم أن انتصبت واقفة لانها أحست بألم في ظهرها . ولكنهـــا قالت مع ذلك :

ـ اف ! امتلأ بطني تماماً .

قال ضحوكاً وهو يرفع راسه عــن القمح :

ـ وانا ايضاً .

قالت الأم وهي تضحك اكثر فأكثر وتمدّ يدها الى سنبلة :

ـ وقف سأعطيك هذه الكسرة أيضاً .

ـ وقف ساعطيك هذه الكسرة ايضاً . ولكن ، في هذه اللحظة ذاتها ، ارعد صوت ناطور الحقول :

ـ اي انتما هناك ، ماذا تفعلان ؟ ممنوع ! ممنوع !

وسبرت الأم ما حولها بالنظر فابصرت بالعمرة المدعوكة ، عمرة الحارس ، تبرز في العدوة الأخرى من الوادي ، فاخذت الولد واتجهت به نحو حقل الذرة. ثم انهما كَوَّكما قرب الاب واستسلما للغفو بعد حين يسير وقرقرات مديدة كانت تفضح الصراع العنيد الذي يشنه الجوع على النوم .

بعد القيلولة عاد الابوان الى عرق الارض القاسية كالصوان . غالباً ما كانا يستندان الى المسحاة وظهرهما الى الشمس حتى يلتقطا انفاسهما . احياناً كانا يجلسان على الثلم ذاتها لشدة ما كانا منهوكين . وكانا ، كل لحظة ، يذهبان فيشربان الماء البارد خداعاً لمعدتهما الخاوية ثم يمصقان من الجوع والأب يطلق كلَّ مرَّة مسبّة والأم لعنــة .

وكان الولد يسلّي نفسه بجمع الاوراق المقطوعة الجافة في الشطر المفروق من الحقل الذي بدا كأنما عاد حلماً جديداً ، ويكوّم ما يجمعه ويحمله الى القلعة الواقعة في طرف الحقل غير منقطع عن القول لامه وابيــه ، وهو مزهوٌّ بعمله مثــل الديــك :

ـ هذا من أجل العِجْلة ! لكي تكبر وتحمل لنا عجولاً صغيرة !

ويجيبــه أبواه :

ـ أجــل لكي تلد وتعطينــا الحليب !

قبيل المساء كانت عربة تقطرها خيول ضخمة سوداء تكرُّ على الطريــق المحجرة وتتوقف قرب حقل الذرة ، وينزل منها نيكولا الضخم وهو ينفخ ويهرُّ . كان رجلاً طويل القامة ، يعتمر قبعة من الاستراكان مخروطة في راسه حتى حاجبيه ، وحدّاه الازهران يتدليان من سمن حتى كتفيه ، يرتدي ثياباً بنيــة اللون مزينة بحواشٍ من التتنا ويتنعل جزمتين من الصوف علــى طريقة الأثرياء المترفــين .

وراقب عمل آل روسانوف وتوقف على مسافة قريبة منهم ، وساقاه مساعدتان وقال بصوت جعلته سمنته قرقرة كأنما مسيل مزراب :

اعزقوا هذا الحقل مثل الخلق والعالم ولا تتجاوزوه هكذا ، واقتلعوا العشب عوضاً عن اخفائه ! أنتم ، أنتم لا يهمكم غير قلع عرانيس الذرة . وأما انا ، فانا اريد ان اطلب من هذا الحقل قمحاً في العام القابل ! وبعد فان ضلَيْعات التراب يجب كسرها وتفتيتها .

قال هذا وهو يرفس كتلة من التراب الجاف .

أجاب الرجل الطويل النحيف المدهوش ويداه الى المسحاة :

ـ اذا لم نقم بعملك جيداً فالضرر لا يعود عليك وحدك ولكن علينا نحن أيضاً ...

ـ ثم انكم تجورون عليها . هذه الذرة . هذا لكي تصنعوا منها عرانيس صحمه للخبز ؟ ؟ لكن ما احتاج اليه انا ايها السادة هو أن احصل على قوت لسانحتي .

قال هذا وعيناه الصغراوان تلتمعان ببريق خبيث ماكر ، ثم أضاف بصوته الآمر ، صوت المعلم :

ـ دعوها مرصوصة أكثر ، مرصوصة أكثر !

وقبل ان ينصرف حشا عربته بكل أوراق الذرة وسوقها التي جمعها راديتشكو . وألقى راديشكو نظرة غاضبة على الحقل وتوقفت عيناه على أوراق « تلك الذرة » المحبّرة . ومن غير أن يعلم لماذا ، هجم على النبتة ووضع قدمه على ساقها الرخصة وكسرها .

ومضى نيكولا الضخم بعربته ناحية القرية . وبينما هو يبتعد كان الأب والام والولد واقفين في الحقل خرْساً ، قد قلّص الضغن ملامحهم ، ينظرون اليه وهو ذاهب على الطريق . كان يصغر كلما ابتعد ، يصغر في نظرهم الحاقد الحاد حتى غام في الفضاء حتى انمحى تماماً .



نبذة عن حياة الشاعر :

ولد شارل بيير بودلير في التاسع من نيسان في عام ١٨٢١ ، وكان ثمرة زواج غير متكافيء في السن ، اذ كان أبوه فرانسوا بودلير شيخاً في حوالي الستين من عمره ، بينما كانت أمه كارولين بحدود السادسة والعشرين في زهرة شبابها ، وقد ورث الشاعر من أمه الذوق الرفيع ، والحساسية المرهفة والتدين البريء والصادق ، بينما ورث عن والده حب الصور والنزعة الوثنية . وقد كان والده ميسور الحال الى درجة جيدة ، ويمتلك مظهراً جذاباً ومحببا ، وأناقة فاقت أناقة معاصريه في الملبس والمأكل والمسكن ، مع بساطة جميلة ، وقد كان يعتبر نفسه رساماً موهوباً .

ولكن رحلة الطفل لم تطل مع والده اذ توفي في عام ١٨٢٧ ، غير أن أمه استطاعت أن تعوض بحنانها مكانة أبيه ، ووفرت لهما الثروة الموروثة حياة كريمة لم يكن ينقصها شيء غير أن القدر ساق لأمه ضابطاً شاباً هو جاك أوبيك اتفق معها على الزواج في عام ١٨٢٨ ، وانتقلت الى بيتها الجديد مع ابنها الصغير الذي أصيب بخيبة أمل كبيرة من هذا الزواج الذي سلبه ـ كما كان يتصور ـ حنان أمه بدخول هذا الشريك الجديد في حياتها بعد أن كان يظن أنه سيحتكر هذا الحنان وحده . وأخذ الضابط الشاب زوج أمه يترقى سنة بعد سنة في الرتب العسكرية والمناصب

حتى بلغ رتبة جنرال وعمل سفيراً لفرنسا في تركيا وفي اسبانيا ، وكان الطفل قد بدأ يشب ويتطور برفقة أمه وزوجها في فرنسا ، أو مقيماً وحده عندما يغادرانها . وكان يضمر لهذا المنافس الخطير البغضاء والحقد منذ اللحظة الأولى • فكانت نفسه ثائرة متمردة ، وقد تلقى تعليمه حتى حصل على البكالوريا •

كان مشتت الذهن في الفصول الدراسية وكان مشاكساً لمعلميه وزملائه ، ولم يكن يتلاءم مع أجواء البيئات الراقية لأمه وزوجها لأنه لم يكن مقتنعاً بها ، وقد بدت عليه سيماء الموهبة الشعرية في وقت مراهقته . وكان سلوكه الشاذ يثير حفيظة زوج أمه فحاول أن يصلحه بارساله في رحلة حول افريقيا تصل به الى الهند ، غير أنه وصل حتى جزيرة موريس الواقعة في المحيط الهندي ، ثم قفل عائداً بعد غياب عدة شهور ، وقد كان نزوله في هذه الجزيرة قد ترك في نفسه أثراً كبيراً من حيث الأجواء الجديدة التي تعرف عليها وهي أجواء افريقيا السوداء المعروفة بسحرها وجاذبيتها واختلافها عن أجواء فرنسا ، وكذلك تعرف على بعض الفتيات الزنجيات والفرنسيات المقيمات هناك فأخذ بجمالهن وفتنتهن الطبيعية • وفي نيسان من عام ١٩٤٢ بلغ بودلير سن الرشد فسلّم له ميراث أبيه نقداً كما أراد ، وكان مبلغاً كبيراً (حوالي ٧٥ ألف فرنك) ، وسرعان ما انفصل عن أمه وزوجها ، وغادر بيتهما ليعيش حياة بوهيمية خاصة يمارس فيها الموبقات ويجتني اللذات المحرمة من الغانيات ، ويعب الخمرة بإفراط ويتعاطى تدخين الحشيش ، كما اختلط مع بعض الشبان الفنانين والأدباء في عصره ، وأحب مدام سباتييه صاحبة الندوة الأسبوعية أيام الآحاد ، أحبها حباً عذرياً نقياً ، وكان ينزل هو في فندق فخم في جناح خاص به ، وكان يتأنق كثيراً ويتنعم في حياته مبذراً الثروة التي تسلمها من ارث والده ، حتى أشرف على اتلافها في غير مواضعها ودون اقتصاد في المصروفات ، وعندما أحس بالخطر يحدق به ، أخذ ينشر في الصحف أشعاراً له ، أو كان يكتب مقالات فيها ، أو يترجم فصولا أدبية من أجل التخفيف من ضائقته المادية •

لقد تأثر الشاعر بودلير بشعر الناقد الفرنسي المشهور سانت بوف ونثره وخاصة قصة اللذة وبفكتور هوغو ، وتيوفيل غوتييه وبلزاك ، وقرأ

لديدرو ، وباسكال ، واغرم كثيراً بالشاعر الأمريكي المعاصر له ادغار آلان بو ، فأخذ يترجم أشعاره الى الفرنسية ، وكتب عنه فصولا عن حياته ، وظل مولعاً به حتى نهاية نشاطه الأدبي .

أصيب بودلير في المدة الأخيرة من حياته بالفالج حيث شُلَّ نصفه الأيسر ، وتعطلت آلة نطقه ، وظل كذلك حتى وافته المنية في آخر شهر آب من عام ١٨٦٧ ، بعد أن عاش حياة قصيرة زاخرة بالمعاناة والتجارب المتنوعة .

وقد كان لأشعار بودلير أثر كبير في معاصريه ومن تلاهم الى يومنا هذا ، ويكفي أن نذكر شعراء المدرسة الرمزية الكبار في فرنسا ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، حتى نعرف قدر تأثيره فيهم وتلمذتهم عليه ، وهؤلاء هم : رامبو ، ومالارميه ، وفرلين . وقد قال فيه الناقد الفرنسي برونتيير : « ان بودلير أحد الأصنام المعبودة في هذا الزمن .. ومعبد هذا الصنم المعبود أكثر المعابد زحاماً » ، وقال عنه هوغو : « انه أحدث في الشعر انتفاضة جديدة » .

وكان شعر بودلير صورة أمينة لحياته كلها في لذاتها وآلامها ، في تفاؤلها وتشاؤمها ، وفي يسرها وعسرها ، وفي اقبالها وادبارها ، في طهارتها ورجسها . ولعلّ أبرز ما تحكم بعواطفه ونزعاته هو عدم التكافؤ بين سني أمه في شبابها وأبيه في شيخوخته ـ وفاة والده وهو صغير ـ زواج أمه وخيبة أمله في ذلك ـ رحلته الى افريقيا ـ تعاطيه الرذيلة واصابته بمرض جنسي خطير ـ مخالطته للأوساط الأدبية والفنية الرفيعة .

روح الخمـــرة

في أحد الأماسي ، كانت روح الخمرة تنشد في القوارير :
« أيها الانسان ، أيها المحروم العزيز ، انني أدفع نحوك ،
من وراء سجني الزجاجي وأختامي القرمزية ،
أدفع أغنية مليئة بالأخوة والنور !

انني اعرف كم اكلّفُ ، فوق التل الملتهب
من العرق والشمس المحرقة ، ومن التعب
من أجل أن تولد حياتي ومن أجل اعطائي الروحَ
ولكنني لن أكون أبداً عاقة ولا شريرة ،

لانني أحس بفرحة عارمة عندما أسقط
في حلق انســان أنهكته أعمالــه ،
فصدره الدافيء جَدَثٌ لذيذٌ لي
وفيه انبسط أكثر بكثير من اقبيتي الباردة .

هل تسمع ، أيها الانسان ، اغنيات الآحاد تتعالى
وهل تسمع الأمل الذي يغرّد في صدري الخافق ؟
انك سوف تمجّدني وستكون سعيداً
وانت مشمّرٌ كميك ومرفقــاك على الطاولة

انني سأشعل عيني زوجتك المفتونة ؛
وساعيد لابنــك قوّته والوانه
وساكونُ ، لمصارعِ الحياة الضعيف هذا ،
الزيتَ الذي يقوي عضلات المصارعين .

ففيك سأسقط ، رحيقاً نباتياً ،
وبذرة ثمينةً ألقاها البــاذر الازلي ،
من أجل أن يولدَ حبنا الشعرَ
الذي سيتدفق نحو الاله مثل زهرة نادرة ! »

وكتب بودلير نفس القصيدة السابقة نثراً ، فجاءت كما يلي :

عن الخمرة والحشيش

يبدو لي أحياناً انني أسمعني أقول للخمرة : ـ إنها تتكلم مع روحي ، بصوت الأرواح الذي لا تسمعه إلا الأرواح : ـ « أيها الانسان ، يا حبيبي ، أريد أن أدفع اليك ، برغم سجني الزجاجي وسداداتي الفلينية ، أغنيةً مليئة بالأخوة ، أغنية مليئة بالفرحة ، وبالنور والأمل ، انني لست بخيلة ، انني أعرف أنني أدين لك بحياتي . واعلم كم كلفتك من جهد ، ومن شمس على الكتفين . انك أعطيتني الحياة ، وانا سأجزيك على ذلك . سأدفع لك صداقي عظيماً ، لأنني أحس بفرحة غريبة عندما أسقط في جوف حلقٍ أظمأه العملُ .

« هل تسمع الأغنيات القوية للأزمنة القديمة تهتز في وترن ، أغنيات الحب والمجد ؟ انني روح الوطن ، انني الشطر اللطيف ، والشطر العسكري . انني أمل الآحاد . العمل يصنع الأيام المزدهرة ، والخمرة تصنع الآحاد السعيدة . وانت ستمجدني بافتخار ومرفقاك على مائدة العائلة وكماك مشمران ، وستكون سعيداً حقـاً .

« سأشعل عيني زوجتك العجوز ، الشريكة القديمة لأحزانك اليومية ولأقدَم امالك . إنني سوف أحسّن نظرتها وسأضع في حدقتها بريق شبابها . وصغيرك العزيز ، الشاحب اللون ، هذا الكرُّ الصغير المسكين الذي أصابه التعب الذي يصيب حصاناً مربوطاً الى عربة ، سأعيد له ألوانه الزاهية وهو في المهد ، وسأكون ، لهذا المصارع الجديد للحياة ، الزيتَ الذي كان يقوي عضلات المصارعين القـدمـاء .

« انني سأسقط في جوف صدرك مثل رحيق نباتي . انني سأكون مثل البذرة لتي تخصبُ الثلم المحفور بمشقة . إن اجتماعنا الحميم سيخلق الشعر . وسنطير نحو اللا نهائي ، مثل الطيور ، والفراشات ، والعطور ، وسائر الأشياء المجنحة . »

خمرة جامعي الخروق البالية

أحياناً على الضوء الأحمر لفانوسٍ
تجعل الريحُ لهبَه يخفق وتعصفُ بزجاجه
في قلب ضاحية قديمة ، ومتاهةٍ موحلةٍ
حيث تعج الانسانية فيها بالخمائر العاصفية

كان المرء يرى جامع الخروق الآتي وهو يهزّ رأسه ،
يصطدم ويرتطم بالجدران مثل شاعر ،
وبدون أن يهتم بالشرطة ، وبأفكاره ،
يفيض قلبه كله بالمشروعات المجيدة

إنه يعطي عهوداً ، ويملي قوانينَ رائعةً ،
يصرع الأشرار ، وينعش الضحايـا ،
وتحت سماءٍ مثل قبـة معلقـة
ينتشي بروائع فضيلته الذاتية •

أجل ، ان هؤلاء الناس المنهوكين بأحزان الأسرة ،
والذين يطحنهم العمل ، وتعصف بهن السنُّ ،
والمتعبين والمطويين تحت ركام من العظام ،
إنهم قيء بـاريس الشنيعـة ،

إن مثل هؤلاء الناس يعودون ، معطرين برائحة البراميل ،
ومتبوعين برفاق ، شابوا في المعارك ،
شواربهم تتدلى مثل الأعلام القديمة •
والراياتُ ، والأزاهيرُ وأقواس النصرِ

تنتصبُ أمامهم ، سِحْراً احتفاليا !
وفي الفيض المسكر والمنير
الأبواق ، والشمس ، والهتافات ، والطبل ،
حاملة المجد للشعب الثمل بالحب !

وهكذا عبر الانسانية الطائشة
تجري الخمرة من الذهب ، مثل الباكتول(١) الباهر
وتتغنى بمآثرها في حنجرة الانسان
وتحكم بهباتها مثل الملوك الحقيقيين

ومن أجل القضاء على الحقد وتخفيف التراخي
لدى هؤلاء الأشرار المسنين الذين يموتون في صمت
خلقت الآلهة بعد ان مسّها عذاب الضمير النُعاس
وأضاف الانسان الخمرة ، الابنة المقدسة للشمس !

خمـــرة القـــاتـــل

ماتت زوجتي ، فأنا الآن طليق !
وأستطيع أن أشرب بملء فمي •
عندما كنت أعود دون فلسٍ واحد ،
كانت صرخاتها تمزق أعصابي •

إنني سعيد مثل ملـك من الملـوك ؛
الهـواء نقي ، والسـماء رائعـة •••

---

(١) نهر صغير في ليديا بآسيا الصغرى • كان يجري بشذور من الذهب ، وقد أصبح اسمه مرادفاً للثروة •

كان لدينا صيف مشابه
عندما غدوت عاشقاً لها !

إن الظمأ الرهيب الذي يفتنني
يحتاج ليرتوي
الى كثير من الخمرة بقدر ما يسَعُ
قبرها ! ـ وليس قليلاً ما أقول :

إنني ألقيتها في قعر بئر ،
حتى أنني دفعت فوقها أيضاً
كل بلاطات فوهة البئر •
ـ سأنساها إن استطعت ذلك !

وباسم أيمان المودة
التي لا يستطيع شيءأن يحلنا منها ،
ومن أجل أن نتصالح
كما كان الأمرُ يجري في الوقت الجميل لثملنا ،

التمستُ منها موعداً ،
وفي المساء ، وعلى طريقٍ مظلمةٍ
جاءت إليه ! ـ يا للمخلوقة المجنونة !
كلنا مجانينُ كثيراً أو قليلاً

كانت لا تزال جميلة ،
مع أنها مرهقة جداً ! وأنا ،
كنت أحبها كثيراً ! ولهذا
قلت لها : اخرجي من هذه الحياة !

لا أحد يستطيع أن يفهمني • فهل حلم
واحد" فقط من بين هؤلاء السكارى الأغبياء
في لياليه المَرَضية
أن يصنع من الخمرةِ كفناً ؟

وتلك المرأة القذرة المنيعة
كآلات الحديد
لم تعرف الحب الحقيقي قط ،
لا في الصيف ولا في الشتاء ،

ـ بسحرها الأسود ،
بموكبها الجهنمي المنتثر ،
بقارورات سمها ، ودموعها
وضجيجها الشبيه بصليل السلاسل وقضقضة العظام

ـ ها أنذا طليق" ووحيد !
سأكون هذا المساء ثملاً ـ ميتة ؛
وحينذاك أنام على الأرض ،
دون خوف وندم ،

سوف أنام مثل الكلب !
إن العربة ذات العجلات الثقيلة
والمحملة بالحجارة والأوحال
والعافلة المهووسة ، يمكنها جميعا

أن تسحق رأسي الآثم
أو تقطعني من الوسط ،
وأنا سأهزأ بها كما أهزأ من الشيطان !

خمرة العشّاق

الفضاء في هذا اليوم مشرقٌ
ودون خطام ، ودون مهماز ، ودون لجام ،
لننطلق على الحصان إلى الخمرة
وإلى سماء سحرية وإلهية !

مثلَ ملاكين يعذبهما
دوار شديد
في البللور الأزرق للصباح
لنتبع السرابَ البعيد !

متوازنين باسترخاء على جناح
الزوبعة الذكية ،
وفي هذيان موازٍ ،

وأختي تسبح جنبا الى جنب
سوف نهرب دون استراحة ولا مهادنة
نحو جنة أحلامي .

تنويه

اقتضت الضرورة حذف بضع كلمات من نص نيكوس كازانتزاكي « تقرير الى ألجريكو » الذي ترجمه للآداب الاجنبية الزميل ممدوح عدوان . ونشر في العدد الماضي من الآداب الاجنبية .